موسوعة
جغرافية مصر وتاريخها
N
نوبليس

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

(١٧)

عبد الرحمان الجبرتي

موسوعة

جغرافية مصر وتاريخها

المجلّد السابع عشر

عجائب الآثار في التراجم والأخبار - ٥ -

الجزء الخامس: محمد علي وتجربة الاستقلال - ١ -

إعداد وتحقيق

عبد العزيز جمال الدين

دار نوبليس

نشر هذا الكتاب بعد أخذ حق النشر من مكتبة مدبولي

اسم الموسوعة: موسوعة جغرافية مصر وتاريخها

اسم الكتـــاب: عجائب الآثار في التراجم والأخبار - ٥ -
الجزء الخامس: محمد علي وتجربة الاستقلال - . -

المؤلـــــف: عبد الرحمان الجبرتي

إعداد وتحقيق: عبد العزيز جمال الدين

قياس الكتـاب: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ٢١٢

عدد صفحات الموسوعة: ٥٧٨٤

مكـان النشـر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبِليس

تلفاكس: ٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١

هاتــف: ٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ - ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١

صندوق بريـد: ٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان

بريد إلكتروني: info@nobilis-int.com

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

EAN 9786144031353

ISBN 978-614-403-135-3

تقديم

المقدمات التاريخية
لسلطة محمد على

يقصد بهذه المقدمات تلك الوقائع والتفاعلات والتيارات التاريخية، التى ساهمت فى توجيه تجربة محمد على، على مختلف مستوياتها من جانب، والتى مهدت لصعوده للسلطة من جانب آخر. ولقد شكلت بنية التكوين الاجتماعى فى مصر فى القرن الثامن عشر، إحدى المقدمات الأساسية لتجربة محمد على، وهى العلاقة التى يمكن رصدهاعلى أكثر من مستوى. فمن جانب كانت صيرورة تحلل التكوين الاجتماعى، هى التى خلقت الظروف التاريخية، التى مكنت محمد على من الوصول إلى السلطة. ومن جانب ثان كان وصول محمد على إلى السلطة فى جزء أساسى منه، نتيجة لتصاعد أنماط محددة من تناقضات بنية التكوين الاجتماعى، وذلك فى الفترة التالية على رحيل الحملة الفرنسية. والمقصود على وجه التحديد هو التناقض بين القسم المملوكى وكبار رجال المؤسسة الدينية، ثم التناقض بين القسم المملوكى والجماهير الحضرية، وهو التناقض الذى أولد تمردات جماهير القاهرة فى الربع الأخير من القرن الثامن عشر. ومن جانب ثالث شكلت حركة التحولات فى عهد محمد على، امتداداً لتحولات التكوين الاجتماعى فى القرن الثامن عشر. والمقصود بذلك على وجه التحديد التحولات التى جسدتها حركة على بك الكبير، والتى يمكن إيجازها فى النزوع نحو الاستقلال والتوسع، ومحاولة بناء سلطة مركزية قوية، والسعى نحو تنمية التجارة الخارجية، وفى النهاية محاولة إعادة إحياء السيطرة على طرق تجارة الشرق القديمة. وفيما يلى سنتناول المقدمات التاريخية الأخرى للتجربة، وذلك على المستويات التالية :

أولاً : تحلل السلطنة العثمانية.

ثانيًا : البانيا - الاستقلال والتحول.

ثالثًا : الحملة الفرنسية - المؤثرات الفكرية والنتائج السياسية.

رابعًا : الصراع السياسى فى مصر فيما بين ١٨٠١ - ١٨٠٥.

أولاً - تحلل السلطنة العثمانية

لقد مثلت عملية تحلل السلطنة العثمانية، إحدى المقدمات التاريخية الأساسية لتجربة محمد على. لقد كان عهد السلطان سليمان القانونى ١٥٢٠ - ١٥٦٦، هو قمة ازدهار السلطنة، وبدايات تحللها فى آن واحد. وإذا كان منتصف القرن السادس عشر قد شهد بدايات التحلل، فإن القرنين السابع والثامن عشر، قد شهدا تصاعد هذا التحلل الذى وصل إلى أوجه فى أواخر القرن الثامن عشر. وسوف نشير هنا إلى الطابع العام لحركة التحلل، التى بدأت بالمؤسسات السياسية، وانتهت بالاقتصاد فى أغلب قطاعاته. ذلك أن ما يهمنا هو النتائج التى ترتبت على عملية التحلل ذاتها، والتى شكلت جزءاً من المقدمات التاريخية لتجربة محمد على. هذه النتائج التى يمكن رصدها على المستويين التاليين : الأول حركات الاستقلال السياسى الإقليمى، والثانى حركة الإصلاح العثمانى.

١ - « حركات الاستقلال السياسى » :

(أ) « حركات الاستقلال السياسى - تحليل » :

لقد كان من الطبيعى أن تمتد عملية تحلل النظام المركزى فى الآستانة، لتشمل النظام السياسى العام. ولقد تجسد تحلل نظام السلطنة العام، فى ظاهرتين أساسيتين : الأول هى تحلل مؤسسات النظام العثمانى فى الولايات العثمانية، وهو التحلل الذى نتج عنه إما اضمحلال تلك المؤسسات ومعها القائمون عليها، ومن ثم ظهور وسيادة المؤسسات والقوى السياسية المحلية، أو استمرار ذات المؤسسات والقائمين عليها، ولكن مع اندماجها الأساسى سياسيًا واجتماعيًا فى إطار الولاية. والظاهرة الثانية ناتجة بالضرورة عن الظاهرة الأولى وهى تحلل العلاقات السياسية بين المركز العثمانى والولايات، وهو التحلل الذى عبرت عنه ظواهر عديدة مثل عدم انتظام إرسال الجزية، ورفض استقبال الولاة العثمانيين أو عزلهم فى أى وقت، وانتهاج سياسة خارجية مستقلة إلى حد ما. ولقد كانت تلك الخلفية، هى التى مهدت لظهور حركات الاستقلال السياسى الإقليمى، ثم تدعمت هذه النزعة نتيجة لتأثير الحروب العثمانية الأوروبية، التى خاضتها الآستانة فى القرنين السابع والثامن عشر. ذلك أنها قيدت أيدى الآستانة، وجعلتها عاجزة عن توفير القوة العسكرية اللازمة لقمع تلك النزعات الاستقلالية. ولا يتسع المجال فى هذه المقدمة، للتعرض التفصيلى

لحركات الاستقلال، وبالتالى وسوف نكتفى بإشارة سريعة لهذه الحكايات الاستقلالية، مع إيراد تحليل مختصر لسماتها الأساسية فيما بعد.

إن لبنان هو الذى شهد أول هذه الحركات، وذلك فى عهد فخر الدين المعنى الثانى، الذى امتد من ١٥٩٠ إلى ١٦٣٥. وفى تونس بدأت النزعة الاستقلالية عام ١٥٩٠ وذلك بتأسيس حكم البايات، الذى أصبح حكمًا وراثيًا فى منتصف القرن السابع عشر، وفى مطلع القرن الثامن عشر تم تأسيس حكم البايات الوراثى، الذى امتد حتى عام ١٩٥٧. وفى الجزائر تبلورت النزعة الاستقلالية ابتداء من ١٦٥٩، وابتداء من ١٧١١ امتنع الدايات عن استقبال الولاة العثمانيين، وأصبح الداى يجمع بين لقب الداى ولقب الباشا، واستمر الأمر حتى الاحتلال الفرنسى. وفى العراق بدأت النزعة الاستقلالية عام ١٧٤٧، وذلك مع تأسيس الحكم المملوكى، الذى وصل إلى أوجه على يد داود باشا فيما بين ١٨١٧ - ١٨٣١. وفى طرابلس - ليبيا نجح أحمد بك القره منلى، فى تأسيس حكم أسرته الوراثى، الذى امتد من ١٧١١ إلى ١٨٣٥. وفى الجزيرة العربية قامت الدولة السعودية، التى نجحت فيما بين ١٨٠٠ - ١٨١١ فى السيطرة على الحجاز والطائف ومكة والمدينة وأجزاء من اليمن الشمالى وعمان، وكلها مناطق كانت خاضعة بدرجات متفاوتة لسلطة الآستانة، وفى نفس الوقت هاجموا العراق والشام وحدود فلسطين. وفى فلسطين ظهرت حركة ظاهر العمر، وذلك فيما بين ١٧٣٧ - ١٧٧٥، الذى نجح فى السيطرة على طبريه ونابلس والناصرة وعكا وصيدا، وحركة على باشا عام ١٧٨٨ فى يانينه بالروملى وكلها مناطق كانت خاضعة لسلطة الآستانة. وفى لبنان ظهرت حركة بشير الشهابى، وذلك فيما بين ١٨٢١ - ١٨٤٠.

(ب) «حركات الاستقلال بوصفها مقدمات لتجربة محمد على»:

إن حاصل ما سبق أن المنطقة، خلال فترة القرن ونصف قرن السابقة على تجربة محمد على، كانت تزخر بحركات الاستقلال. وبالنظر إلى تاريخ تلك الحركات الاستقلالية، يمكن تحديد عدة سمات أساسية لها. إن السمة الأولى هى السعى نحو الاستقلال السياسى، وهو ما تجسد فى السيطرة الكاملة على المؤسسات السياسية العثمانية، وتأسيس مؤسسات سياسية محلية جديدة، والاستيعاب الكامل للقوى السياسية والعسكرية العثمانية [أنظر تجربة على بك الكبير]، وانتهاج سياسة خارجية على درجة من الاستقلال. ولكن من الضرورى ملاحظة أن تلك التوجهات، لم تتوج بعدم الاعتراف بشرعية سلطة الآستانة.

فهؤلاء الحكام وهم فى أوج قوتهم اعترفوا بسلطة الآستانة، وذلك بوصفها رأس النظام العثمانى ومقر خليفة المسلمين، والسمة الثانية هى السعى نحو تحويل الحكم إلى حكم وراثى فى إطار أسر حاكمة، ويتضح ذلك تمامًا فى طرابلس وتونس والجزائر والحجاز وبعض فترات حكم مماليك العراق. والسمة الثالثة هى السعى نحو التوسع الخارجى، وذلك من خلال ضم أقاليم وولايات أخرى، كانت خاضعة لسلطة الآستانة بدرجات متفاوتة، وهو ما يتضح فى حركة على بك الكبير وظاهر العمر والحركة الوهابية وحركة مماليك العراق. والسمة الرابعة والأخيرة هى السعى نحو تطوير الاقتصاد عامة، وتحديث المؤسسات السياسية والعسكرية، والانفتاح الجزئى على الخبرة الأوروبية، وهو ما جسدته بدرجات متفاوتة حركات على بك الكبير وداود باشا وبشير الشهابى وظاهر العمر. وعلى ضوء ما سبق ذكره يمكن تحديد العلاقة، بين تلك الحركات الاستقلالية وتجربة محمد على. فلقد ارتكز مشروع محمد على السياسى على ثلاث محاور أساسية، وهى الاستقلال الذى يرتكز على الحكم الوراثى والتوسع والنهضة، والحال أن هذه المحاور ليست سوى امتداد للسمات الأساسية لحركات الاستقلال من جانب، وتطوير لها إلى آفاق أبعد من جانب آخر.

٢ - « حركات الإصلاح العثمانى » :

(أ) « حركات الإصلاح العثمانى - تحليل » :

إن تصاعد عملية تحلل السلطنة العثمانية، والهزائم المتوالية التى واجهتها على أيدى الجيوش الأوروبية، قد مهد الطريق أمام العقل العثمانى فى مطلع القرن الثامن عشر، نحو التخلى عن مسلمته التقليدية القائلة بأفضلية النظم العثمانية على النظم الأوروبية. الأمر الذى أفسح الطريق أمام ظهور نمط جديد من الوعى التاريخى، حيث أخذ العقل العثمانى فى الوعى بالتخلف الذاتى وأبعاده من جانب، ووعى النهضة الأوروبية وعواملها من جانب آخر. ولقد ظهرت بدايات هذا الوعى الجديد، فى مخطوطة ترجع إلى عام ١٧١٨ مجهولة المؤلف، التى عقد كاتبها حواراً بين ضابط فرنسى وأحد المسلمين، موضوعه أسباب هزيمة الترك عسكرياً، ثم اكتسب هذا الوعى صياغات أكثر نضجاً، وذلك على يد جلبى محمد الذى زار فرنسا عام ١٧٢٠، وألف عنها كتابًا يصف حضارتها. ثم على يد إبراهيم متفرقة ١٦٧٠ - ١٧٥٤ صاحب المؤلفات والتراجم العديدة.

وإذا كان القرن الثامن عشر، هو قرن نمو وتبلور هذا الوعى الوليد، فهو أيضًا قرن انتقاله إلى طور الحركة، أى قرن ظهور وتطور حركة الإصلاح العثمانى. ولقد مرت حركة الإصلاح العثمانى بفترتين، الأولى تمتد من ١٧١٦ إلى ١٧٨٩، والثانية تمتد من ١٧٨٩ إلى ١٨٠٧، ولقد اتسمت جهود الإصلاح فى الفترة الأولى، باللانظامية واللاتكامل، علاوة على كونها غير مطردة، أى كانت تتم على نحو متقطع ووفق امزجة السلاطين. ولقد بدأت جهود الإصلاح فى هذه الفترة بإدخال النظم الأوروبية إلى الجيش العثمانى، وكانت تلك البداية مبررة تمامًا، لأن العقل العثمانى وعى التقدم الأوروبى أول ما وعى، على مستوى القدرة العسكرية.هذا بالإضافة إلى اتساق ذلك مع منطق القوة والعنف الذى يحكم العقلية العثمانية. ويمكن القول أن جهود الإصلاح فى هذه الفترة، قد تركزت على المحاور التالية : تأسيس فرق عسكرية على النمط الأوروبى وبالتحديد الفرنسى، تأسيس المدارس العسكرية الجديثة، بناء مصانع أسلحة أوروبية حديثة، إدخال الطباعة، تطور حركة الترجمة عن اللغات الأوروبية فى مختلف المجالات.

إن الفترة الثانية الممتدة من ١٧٨٩ إلى ١٨٠٨ هى فترة حكم السلطان سليم الثالث، وتتسم بكون جهود الإصلاح فيها أكثر نظامية وتكاملاً. وفى عام ١٧٩١ بدأ سليم الثالث فى تحديد ملامح برنامجه الإصلاحى، فأرسل أبو بكر راتب أفندى إلى أوروبا، مكلفًا بكتابة تقرير عن أسباب النهضة الأوروبية، والإصلاحات التى ينبغى إدخالها. وعاد راتب أفندى فى ١٧٩٢ ليقدم تقريره إلى السلطان، الذى حدد فيه أن الدولة الحديثة ترتكز على الأسس التالية: جيش نظامى حديث، مالية منظمة، جهاز إدارة مستنير وكفء، أمن شعبى، وازدهار اقتصادى. وفى نفس الوقت كلف السلطان ما يقرب من ٢٢ شخصًا من كبار رجال السلطنة، بكتابة آرائهم حول أسباب ضعف السلطنة العثمانية ومناهج إصلاحها. ولقد أجمعوا على أن الأسباب تكمن داخل تحلل المؤسسات العسكرية، إلا أنهم اختلفوا حول مناهج الإصلاح. فهناك فريق اقترح تبنى الأسلحة والتقنية الأوروبية، فى إطار التنظيمات العسكرية العثمانية التقليدية، وهناك فريق آخر راديكالى نادى بضرورة تبنى التنظيمات العسكرية الأوروبية قلبًا وقالبًا. وفى مواجهة هذه المقترحات، إنحاز السلطان إلى آراء راتب أفندى والفريق الراديكالى، ومن مجمل هذه الآراء، قام بتكوين برنامجه الإصلاحى، أو «النظام الجديد» كما أطلق عليه فى حينه. والحال أن برنامج سليم الإصلاحى قد اتسم بالتكامل، فهو لم يكن مجرد برنامج للإصلاح العسكرى، بل امتد

ليشمل أغلب مؤسسات الدولة، كما أنه امتد إلى عمق هذه المؤسسات، وسعى لخلق مؤسسات جديدة تمامًا. إلا أن الإصلاحات العسكرية بالرغم من ذلك، احتلت مركز الثقل فى البرنامج الإصلاحى. ويمكن تحدي أهم أبعاد برنامج سليم الثالث فيما يلى : إنشاء مدارس عسكرية وبحرية حديثة، تأسيس فرق عسكرية حديثة من طلاب هذه المدارس، إدخال تنظيمات إدارية حديثة فى الحكومات الإقليمية، إدخال الإصلاحات الإدارية فى أغلب مؤسسات الإدارة، إصلاح النظام الضريبى وأساليب التحكم الإدارى فى تجارة الحبوب، إعادة تنظيم الإدارة المالية المركزية، تشجيع حركة الترجمة وتكوين المكتبات، وتبنى نظام البعثات الدبلوماسية الدائمة فى العواصم الأوروبية.

(ب) «حركة الإصلاح العثمانى بوصفها إحدى مقدمات تجربة محمد على» :

لقد مثلت حركة الإصلاح العثمانى، إحدى المقدمات التاريخية لتجربة محمد على. ولقد قدر لمحمد على والنخبة الجديدة المحيطة به، أن يحتكوا ويتفاعلوا مع حركة الإصلاح العثمانى. وهو التفاعل الذى حدث عبر عدة قنوات أهمها قناتان:

القناة الأولى هى خبرات محمد على، هذا مع ملاحظة إمكانية تطبيق ذات التحليل، علي جزء من النخبة العثمانية المحيطة به. فلقد نشأ محمد على فى مناخ عثمانى صرف، وكانت ثقافته ثقافة عثمانية تقليدية، وعاش حياته الأولى فى ألبانيا، القريبة جغرافيًا ومن ثم سياسيًا من الأناضول. وعمل فى مطلع حياته بالتجارة، وهى مهنة تتيح اتصالاً دائمًا وحيًا بالعالم الخارجى. ثم احترف الجندية وهى مهنة تحتم الاهتمام بقضايا الحرب، وتنظيمات الجيوش والأسلحة والتطورات المرتبطة بكل ذلك. وفى النهاية حضر إلى مصر ليحارب بجوار فرق النظام الجديد.

ومن المؤكد أن هذه العوامل جميعها، قد أكسبته وعيًا بما هية حركة الإصلاح العثمانى. ومن المؤكد أن هذا الوعى قد تبلور أكثر، مع السقوط الدامى لسليم الثالث عام ١٨٠٧ بعد تمرد عسكر الانكشارية، وما تلاه من اضطرابات هزت أركان الامبراطورية.

والقناة الثانية هى هجرة عدد من المثقفين الأتراك العلمانيين إلى مصر. فلقد ذكر نيازى بركيس أنه فى أعقاب سقوط سليم الثالث، قام عدد من المثقفين الأتراك العلمانيين، الذين تعلموا فى مدارس الآستانة الحديثة، وتولوا وظائف هامة فى دولة سليم الثالث، بالحضور إلى مصر حيث عملوا فى مؤسسات محمد على.

وللأسف لم يذكر نيازى بركيس أسماء هذه الفئة، ولكن يمكن التحديد بقدر كبير من الثقة أن أدهم بك ينتمى إليها. ولقد تخرج أدهم بك فى مهند سخانه الآستانة، وإن كانت المصادر لا تذكر الوظايف التى تولاها فى الآستانة. ثم حضر إلى مصر ليعمل ضابطًا فى المدفعية، ثم أصبح ناظرًا للمهمات الحربية، وفى عام ١٨٣٩ تولى رياسة ديوان المدارس.

ومن المؤكد أن هذه الفئة، قد حملت معها أفكار وبرامج حركة الإصلاح العثمانى، وقامت بنقلها بصورة متكاملة إلى محمد على والنخبة المحيطة به، وحاولت تطبيقها فى مصر، مشكلة بذلك قنطرة أساسية تصل محمد على بسليم الثالث بالنظام الجديد.

والسؤال المطروح الآن : كيف أثرت حركة الإصلاح العثمانى علي تجربة محمد على ؟. من السهل عند مقارنة برنامج سليم الثالث ببرنامج محمد على الإصلاحى، ملاحظة عناصر التشابه بينهما. الأمر الذى يمكننا من القول، بأن برنامج محمد على الإصلاحى فى الكثير من جوانبه، هو امتداد مباشر لبرنامج سليم الثالث. ويبدو ذلك واضحًا على مستوى الإصلاحات العسكرية، أى تأسيس المدارس العسكرية الحديثة وإعادة تنظيم الجيش على النمط الأوروبى، وبناء مصانع الأسلحة الحديثة، وتبنى الأسلحة والتقنيات الأوروبية. وفى هذا الصدد من المفيد التذكير بأن محمد على، حينما بدأ فى بناء الجيش الحديث عام ١٨١٥، كان يدعوه بذات الاسم الذى أطلقه سليم الثالث على جيشه الحديث أى «النظام الجديد». كما تبدو العلاقة واضحة، على مستوى الوعى التاريخى الموجه لحركة الإصلاح، فالواقع أن مفهوم محمد على عن النهضة، يكاد يكون امتدادًا متطورًا لوعى النهضة العثمانى السابق الإشارة إليه.

ثانيًا - الاستقلال والتحول

طوال مراحل التاريخ المصرى، كان غزو مصر فى الأغلب مقدمة لتحولات تاريخية هامة، داخل بنية التكوين الاجتماعى والاقتصادى. ومصدر تلك العلاقة أن غزو مصر على أيدى تلك القوى الخارجية، كان ينتج عنه عدة نتائج أساسية. أولها إعادة تحديد نمط علاقات مصر الخارجية. وثانيًا إعادة تكوين جهاز الدولة، أى إعادة تكوين نمط تنظيم السلطة المركزية من جانب، ونمط تنظيم علاقة الدولة بالمشتركات الفلاحية من جانب آخر.

وكان ذلك بدوره يولد تحولات تاريخية هامة. وثالثهـا، وهو ما نهتم به، إعادة تكوين الطبقة الحاكـمة. إن الطبقة الحـاكمة القـديمة سيجرى هـدمها كليًا أو جـزئيًا، وتتكون طبقـة جديدة تحمل معهـا خبرات تاريخية جديدة متمايزة، تتراوح بين أنماط الإنتاج الجديـدة والتوجهات السلعيـة، وأنماط التنظيم الاجتماعى والسيـاسى والمفاهيم الفكرية. والحـال أن هذه الخبرات الوافدة، من الحـتمى أن تؤثر عل بنية الـتكوين الاجتمـاعى، مولدة تحولات تاريخـية، ولكن عبـر تفاعل مـنطق هذه الخبـرات، مع القوانين الأسـاسيـة للنمط المهيـمن. وينتهى التـحليل السابق إلى نتيجة هامة، مضمونها أن دراسة تحولات التكوين الاجتماعى، فى أعقاب عملية الغـزو وإعـادة تكوين الطبـقـة الحـاكـمـة، لا يمكن لهـا أن تكتـمل إلا بعـة دراسـة التكوين الاجتـماعى الذى أتت منه هذه الطبـقة، بحـثًا عن أصول الخـبرات التـاريخية الجـديدة التى حملتها معها.

فى عام ١٨٠١ نجح العثمانيون فى غزو مصر من جديد، ودخل محمد على مصر مع القوات الـعثمـانية، وهو رأس الفـرقة الألبـانية. وفى عـام ١٨٠٥ تمكن من الاستيـلاء على السلطة، وتلا ذلك هدمه للطبـقة الحاكمة القـديمة، وتكوين طبقة حاكمـة جديدة. والحال أن هذه الطبقـة كانت فى الجـزء الأساسى منها طـبقة عـثمانيـة، إلا أن الألبان قد شـكلوا القوة الأساسيـة داخلها. والفئة الأكثـر تأثيرًا على عملية صـياغة المشروع السيـاسى، والتحولات المرتبطة به والناتجة عنه. وترتيبًا على ذلك تتعين دراسة التحـولات الاقتصادية والسياسية فى ألبـانيا، فى الفـترة السـابقة على والمعـاصرة لتـجربة مـحمـد على، وذلك بوصـفهـا إحدى المقدمات التاريخية للتجربة.

١ - «ألبانيا - التحولات الاجتماعية والاقتصادية»:

خلال القرن الثـامن عشر جرت تحولات هامـة فى ألبانيا، مثلت بعض سمـات عملية الانتقال إلى الاقتصـاد الرأسمالى. ففى الريـف شهدت ألبانيا ظهور واسـتقرار طبقة جديدة، تدعوها المراجع الـتركيـة بطبقة الأعـيان. إن حركـة تحلل الامبراطورية العـثمـانية، هى التى مهدت لظهور الأعيان فى القرن السابع عـشر. فلقد أدى تفكك نظام التيمار إلى ظهور نظام الالتزام، الذى عبـر تحلله أدى إلى ظهور الضيـاع الكبيرة «الشفالك»، الـتى كونت الأساس الاقتصـادى لطبقة الأعيـان. ثم جاءت الأزمة المالية للإمـبراطورية، وما رافقـها من تحلل فى مؤسـسات السلطة المركزية، لكى توطد من نزوع الـقبائل الألبانيـة نحو الاستـقلال، مكونة بذلك الإطار السياسى لنشأة الأعيان. وخلال القـرن الثامن عشر توطد وضع الطبقة الجديدة

اقتصاديًا وسياسيًا. فعلى المستوي الاقتصادى اتجه أفرادها إلى توسيع نطاق ضياعهم «شفالكهم»، واقتربت حقوقهم تجاه الأرض فعليًا وقانونيًا من الملكية للفردية، ووازى اتجاههم نحو الإنتاج الرأسمالى، وذلك من خلال تكثيف استخدام العمل المأجور فى زراعة الشفالك. وعلى المستوى السياسى اتجه الأعيان، نحو تدعيم استقلالهم من خلال تدعيم حكمهم المباشر للمناطق الواقعة تحت سيطرتهم. وقد اعترفت الآستانة باستقلالهم بوصفهم ممثلى الشعب أمام الحكومة، وزودتهم بوثائق تدل على ذلك «أعيا نلق بيور يلديسى».

وفى المدينة حدثت تحولات مماثلة، فلقد ازدهرت البرجوازية التجارية، وتطورت حركة التجارة مع الأسواق الخارجية وخاصة أوروبا. وفى مجال الصناعة، يذكر الأستاذ أحمد صادق سعد : «تبرز فئة من صغار المنتجين والحرفيين والتجار الألبان وغيرهم، كما تظهر المصانع اليدوية المبعثرة والمركزة على السواء، وتعود إلى الظهور للتنظيمات الطائفية (الأصناف أو الروقات) برياسة المتولين، والتى تحتكر الإنتاج وتفرض القواعد المستهدفة مراعاة الجودة والكمية والأسعار، وأخذت هذه الطوائف تلعب دورًا سياسيًا فى المدن، وخاصة عند تكوينها الأحلاف الحرفية».

٢ - «ألبانيا : التحولا السياسية - حركة على باشا التبه ده لنلى» :

إن أطراد التحولات الاجتماعية والاقتصادية، قد شدد أكثر على ضرورة بناء سلطة سياسية جديدة، تتسم بالاستقلال السياسى فى مواجهة الآستانة من جانب، والمركزية بهدف توسيع السوق الداخلى من جانب آخر. وانطلاقًا من تلك المتطلبات، قامت حركة الاستقلال الألبانى فى أواخد القرن الثامن عشر. وهى الحركة التى تبلورت فى حركتين أساسيتين، الأولى حركة محمد باشا بوشاتلى فى أشفودره، والثانية حركة على باشا التبه ده لنلى فى يانينه. وسنتعرض للحركة الثانية بوصفها الحركة الأهم.

لقد انحدر على باشا من آسرة (تبه ده لنلى) المنتمية إلى طبقة الأعيان، والتى سيطرت على مساحات واسعة من الأرض جنوبى ألبانيا، كما مارست نشاطًا تجاريًا وماليًا عريضًا. ولقد ولد على باشا عام ١٧٤٤، وفى عام ١٧٨٥ عينه الباب العالى متصرفًا لصنجقية نالوبيه ومنحه لقب باشا. وفى عام ١٧٨٨ استولى على السلطة فى يانينه، مؤيدًا بحلف سياسى مكون من الأعيان والبرجوازية التجارية الألبانية، بالإضافة إلى سكان المدن. وفى أعقاب ذلك اتجه نحو توطيد حكمه، فقوى من سلطته بالقضاء على بكوات ألبانيا الجنوبية،

وأسس فرقًا وانتهج سياسة استقلالية تجاه الاستانة. وقد تلا نجاحه فى توطيد سلطته، اتجاهه نحو التفكير والتخطيط لإعلان استقلاله. وفى عام ١٨٢٠ قام بتكوين مجلس من الأعيان الألبان واليونانيين، وذلك لإعلان الثورة على تركيا وفى أعقاب ذلك تكون بشلك يانينه المستقل، المكون من ألبانيا والإيبروس والروملى، وفى مواجهة هذه التطورات أرسلت الآستانة حملة عسكرية، تمكنت من القضاء على حكمه عام ١٨٢٢.

وقد انتهج على باشا سياسة اقتصادية، دعمت عملية الانتقال نحو الاقتصاد الرأسمالى.. ففى مجال الزراعة وسع من مساحة شفالكه حتى بلغت ألف شفلك، ثم وزع هذه الشفالك على أفراد أسرته وحاشيته. وقد كانت هذه الشفالك ذات اقتصاد مركزى موجه، وتزرع باستخدام العمل المأجور. وفى الصناعة أسس فى بعض ضياعه مصانع يدوية كبيرة. وفى مجال التجارة حدثت تطورات مماثلة، فاهتم بتوطيد الأمن وتولى إنشاء الطرق الجديدة وصيانة الطرق الملاحية بين الموانى الجديدة. وكذلك قام بدفع النشاط التجارى من خلال احتكاره للعديد من السلع، ورفض تطبيق القوانين العثمانية المتعلقة بالامتيازات التجارية الأجنبية.

٣ - «تأثير ألبانيا على تجربة محمد على»:

(أ) «العلاقات بين قوله وألبانيا»:

لقد ولد محمد على فى قوله وهى أصلا ليست من ألبانيا، بل من أعمال مقدونيا باليونان. ولقد كانت هناك علاقات تاريخية وثيقة بين الشعبين، فالألبان اعتبروا أنفسهم منحدرين من المقدونيين، وأولد ذلك اتجاهًا للوحدة بين البلدين. ففى القرن السابع عشر أرسلوا إلى ملك أسبانيا وفدًا ممثلاً للإقليمين، وكان الرمز الذى اتخذته المجالس الألبانية بعد ذلك، نسرًا ذا رأسين يمثل الوحدة الألبانية المقدونية. وعلى ذلك يمكن القول بأن محمد على، قد تشرب بالتحولات التاريخية الألبانية، عبر توسط العلاقة التاريخية العضوية بين الألبان والمقدونيين. إلا أن مقدونيا بدورها قد شهدت تحولات مماثلة لهذه التحولات الألبانية. فقد ظهرت فيها الشفالك ذات الاقتصاد الرأسمالى، كما أن المقدونيين بدورهم نزعوا نحو الاستقلال عن الآستانة، واتضح ذلك جليًا فى تحالفهم مع على باشا التبة ده لنلى.

(ب) تأثير ألبانيا على تجربة محمد على»:

لقد شكلت هذه التحولات التاريخية الألبانية، إحدى المقدمات التاريخية لحركة

محمد على. فلقد تشرب محمد على والنخبة الألبانية المحيطة به هذه التحولات، وساهم ذلك بشكل واضح فى توجيه التجربة. ويتضح ذلك فى تلك السمات المشتركة، التى توجد فى التحولات الألبانية ونظيرتها المصرية. وأهمها على الإطلاق : الازدهار التجارى، والتحول الرأسمالى فى الزراعة من خلال صيغة الشفالك، الاقتصاد ذو الطبيعة المركزية، الاحتكار التجارى، الاستقلال السياسى، والتنظيمات العسكرية الأوروبية.

ثالثاً - الحملة الفرنسية - المؤثرات الفكرية والنتائج السياسية

لقد شكلت الحملة الفرنسية (يوليو ١٧٩٨ – أغسطس ١٨٠١) إحدى المقدمات التاريخية لتجربة محمد على. هذه العلاقة بين الحملة والتجربة موضع الدراسة، يمكن رصدها على المستويين التاليين : الأول مستوى المؤثرات الفكرية الناتجة عنها، والثانى مستوى النتائج السياسية المباشرة لها.

١ - « الحملة الفرنسية - المؤثرات الفكرية » :

(أ) « المؤثرات الفكرية - تحليل " :

خلال سنوات الحملة الفرنسية، حدثت تفاعلات فكرية هامة، من خلال قنوات عديدة وعبر أشكال مختلفة، بين رجال الحملة الفرنسية وكبار علماء الأزهر. هذه التفاعلات نتج عنها تأثيرات فكرية هامة، ساهمت بدورها فى التمهيد للتجربة. وهى المؤثرات التى يمكن رصدها على المستويين التاليين :

١ - « وعى المفاهيم الليبرالية » :

(أ) «تحديد وتحفظات» إن التفاعلات السابق ذكرها، قد نتج عنها بدايات وعى المثقف المصرى لبعض المفاهيم الأساسية لليبرالية السياسية. وقبل الدخول فى صلب التحليل، تفرض الدقة إيراد بعض التحفظات. التحفظ الأول مضمونه عدم إمكانية التحديد المتكامل لأبعاد هذا الوعى، وذلك من حيث مفرداته جميعًا، وعلاقات هذه المفردات الداخلية، وعلاقتها بإطارها الفكرى الأعم، ثم علاقتها بالبنية الأيديولوجية التقليدية المهيمنة، وهى الصعوبة الناتجة عن ندرة الوثائق الفكرية، والطبيعة غير المباشرة للوثائق

المتاحة. والتحفظ الثانى مضمونه ضرورة التمييز بين وعى المفاهيم واعتناق المفاهيم، فليس كل وعى بمفهوم معين يعنى تبنى ذات المفهوم. وعلى سبيل المثال إذا كان الجبرتى قد وعى مفهوم العقلانية فى صياغته السياسية والدينية، فمما لاشك فيه أنه قد رفض مفهوم سيادة القانون. وانطلاقًا من التحفظات السابقة يمكن التحديد بقدر كبير من الثقة، أن المثقفين المصريين قد وعوا المفاهيم التالية : الحرية، المساواة، الأمة، العقلانية، تكافؤ الفرص، سيادة القانون، الفكرة النيابية، حق الشعب فى عزل واختيار الحاكم. وتوجد صياغات فكرية متفاوته النضج لبعض هذه المفاهيم، لدى اثنين من كبار مثقفى هذه الفترة، هما عبد الرحمان الجبرتى وعبد الرحمان الشرقاوى.

(ب) «عبد الرحمان الجبرتى». إن استقراء النصوص التى تركها الجبرتى، يؤدى إلى القول بأنه قد وعى عدة مفاهيم. المفهوم الأول هو مفهوم سيادة القانون، وهو المفهوم الذى نجده فى مقدمته لوثيقة محاكمة سليمان الحلبى. وهى المقدمة التى جاء فيها «وقد كنت قد أعرضت عن ذكرها لطولها وركاكة تركيبها، ثم رأيت الكثير من الناس تتشوق نفسه للاطلاع عليها، لتضمنها خبر الواقعة وكيفية الحكومة، ولما فيها من الاعتبار وضبط الأحكام، من هؤلاء الطايفة الذين يحكمون بالعقل ولا يتدينون بدين، وكيف وقد تجارى على كبيرهم ويعسو بهم رجل أفاقى أهوج وغدره. وقبضوا عليه وقرروه ولم يعجلوا بقتله وقتل من أخبر عنهم بمجرد الإقرار، بعد أن عثروا عليه ووجدوا معه آلة القتل مضمخة بدم سارى عسكرهم وأميرهم، بل رتبوا حكومة ومحاكمة وأحضروا القاتل وكرروا عليه السؤال والاستفهام مرة بالقول ومرة بالعقوبة، ثم أحضروا من أخبر عنهم وسألوهم على انفرادهم ومجتمعين ثم نفذوا الحكومة فيهم بما اقتضاه التحكيم».

والمفهوم الثانى هو مفهوم العقلانية، فيذكر الجبرتى فى كتابه مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس «فهؤلاء القوم خالفوا النصارى والمسلمين ولم يتمسكوا من الأديان بدين، فتراهم دهرية معطلون، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون، ويقولون بقدم العالم وتأثير العلوية، وللحوادث الكونية بالحركات الدورية، وظهور الملل وانتقال الدول، بموجب طبع القرآنات وامتزاج المناظرات، وعقيدتهم السالكون فيها ما تستحسنه النفوس بحسب الشهوات».

والمفهوم الثالث هو مفهوم المساواة ، ومفهوم تكافؤ الفرص المتفرع منه ، فيذكر الجبرتى فى مظهر التقديس معلقًا على بيان بونابرت « إن جميع الناس متساويين عند الله » هذا كذب .

وجهل وحماقة، كيف وقد فضل الله بعضهم على بعض وشهد بذلك أهل السماوات والأرض.. كذلك «فى المناصب السامية» فيه احتزار عن وقع اللوم عنهم بتقليدهم مناصب الأحكام الجليلة للأسافل والرعاع، كجعلهم برطلمين الطبخى، وهو المسمى عند العامة بفرط الرمان، كتخداً مستحفظان».

(جـ) «عبد الرحمان الشرقاوى». فيما يتعلق بالشيخ عبد الرحمان الشرقاوى فلقد وعى بدوره مفهوم العقلانية، حيث كتب «وحقيقة حال الفرنساوية الذين حضروا إلى مصر أنهم فرقة من الفلاسفة إباحية طبائعية يقال لهم نصارى قاثوليقية يتبعون عيسى عليه السلام ظاهراً وينكرون البعثة والدار الآخرة وبقية الأنبياء والمرسلين ويقولون أن الله واحد ولكن بطريقة التعليل ويحكمون العقل ويجعلون منهم مدبرين يديرون الأحكام يضعونها بعقولهم ويسمونها شرايع ويزعمون أن الرسل محمد وعيسى وموسى كانوا جماعة عقلا وأن الشرايع المنسوبة إليهم كناية عن قوانين وضعوها بعقولهم تناسب أهل زمانهم».

٢ - «**وعى التخلف - وعى النهضة**» : إن التأثير الفكرى الثانى للحملة الفرنسية، هو بدايات ظهور وعى تخلف الذات الوطنية من جانب، ووعى النهضة الأوروبية من جانب آخر. الأمر الذى يعنى أن الحملة الفرنسية قد خلقت فى العقل المصرى ذات النتيجة التى خلّفتها الحروب العثمانية الأوروبية فى العقل العثمانى. وهناك صياغات فكرية متفاوتة التطور لهذا الوعى، لدى اثنين من كبار مثقفى هذه الفترة وهما الشيخ عبد الرحمان الجبرتى والشيخ حسن العطار.

(أ) «عبد الرحمان الجبرتى» : إن تحليل كتابات عبد الرحمان الجبرتى التاريخية يقود إلى نتيجة مضمونها أن الجبرتى قد وعى نهضة الغرب، الممثلة فى الوافد الفرنسى، على المستويات الثلاثة التالية : النظام السياسى، العلم، والتقنيات. وفيما يتعلق بالنظام السياسى، توجد نصوص عديدة لدى الجبرتى، تعكس وعيه بتحلل وتخلف النظام المملوكى ومن أجل النجاح فى فهم دلالة هذه النصوص، يجب التذكر أن الجبرتى كان يكتبها فى ضوء تجربة الحملة الفرنسية. ويدل على ذلك ما هو معروف عن مراحل تدوين وصياغة «عجايب الآثار فى التراجم والأخبار» كما تدل عليه أيضاً طبيعة وأبعاد هذه الصياغات ذاتها. كتب الجبرتى فى ترجمته لمحمد بك أبو الذهب «ولم يتفق لأمير مثله كثرة المماليك وظهور شأنهم فى المدة اليسيرة وعظم أمرهم بعده وانحرفت طباعهم عن قبول العدالة ومالوا إلى طريق الجهالة واشتروا المماليك فنشأوا على طرايقهم وزادوا من سوابقهم، وألفوا المظالم وظنوها مغانم،

وتمادوا على الجور وتلاحقوا فى البغى على الـغور،إلى أن حصل ما حصل ونزل بهم والناس ما نزل». وهناك نصوص أخرى مشابهة تمامًا للنص السابق فى ترجمته لمراد بك وإبراهيم بك. والجبرتى فى مـقدمته لمظهـر التقديس يتحدث عن تحلل الـنظام المملوكى والنتائج التى ترتبت عليه «ولما لم يقـتفوا آثار مـن مضى من الدول، وأضاعـوا ما تعب فى تأسيس قـواعده الأول، تطرق الخلل لهذا القطر العظيـم من كل جهة و أضحت وجوه مـحاسنه بما ابتدعـوه مشوهة». وفى موازاة هذا الوعى بتـخلف وتحلل النظام السياسى المملوكى، نجـد وعيًا آخر وليـدًا بتقدم النظام السـياسى الفـرنسى. وهو ما يتـضح فى ملاحظاته العـديدة والجزئيـة على المؤسـسات السياسـية الفرنسية والسلوك السيـاسى الفرنسى. ونموذج ذلك إعجابه بمعاقـبة نابليون لجنوده الذين اعتدوا على الأهالى.إلا أن أهم ملاحظاته وأكثرها دلالة، وهى ملاحظاته حول محاكمة سليمـان الحلبى. فهـا هو يقدم للوثيقـة شارحًـا «ثم رأيت أن الكثير من النـاس تتشوق نفسه الاطلاع عليها، لتضمنها خـبر الواقعة وكيفية الحكومة ولما فيـها من الاعتبار وضبط الأحكام، من هؤلاء الطائفة الذين يحكمون بالعقل ولا يتدينون بدين». ثم يخـتم مقدمته قائلاً «بخلاف ما رأيناه بعد ذلك من أفعال أوباش العسـاكـر الذين يدعون الإسلام ويزعمون أنهم مجاهدين وقتلهم الأنفس وتجاريهم على هدم البنية الإنسانية بمجرد شهواتهم الحيوانية».

وفيما يتعلق بالمستوى الثانى وهو العلم. تدل النصوص أن الجبرتى قد وعى مدى التقدم العلمى، الذى وصلت إليـه الحضـارة الأوروبية. وهو مـا يدل عليه وصـفه المفـصل للمجـمع العلمى الفـرنسى، فلقد وصف المكتـبة العـامة وورش المهندسين المخـتلفة ومـعامل الصـيادلة والمرصد الفلكى وبعض التجارب العلمية التى أجريت أمامه، وطَوال هذا الوصـف كان يدون تعليقات جانبـيه. فيذكر عند وصفه للمكتبـة «فيتصفحون ويراجعون ويكتـبون حتى أسافلهم من العسـاكر». ثم خـتم وصفه للمكـتبة «ولهم تطلع زايـد للعلوم وأكثرها الريـاضة ومعـرفة اللغات واجتـهاد كبيـر فى معرفة اللغة والمنطـق، ويدأبون على ذلك الليل والنهار». وفى أثناء وصفه لـلمجمع العلمى الفرنسى، عـبرّ بوضوح عن وعـيه بالهوة الحضـارية التى تفصله عن الفرنسـيين، فيذكر بعد وصـفه لإحدى التجـارب العلمية «ولهم فيه (الـعلم) أمور وأحوال وتراكيب غريبة لا تسعها عقول أمثالنا». ومن أجل إدراك الدلالات الكامنة داخل هذا التعليق المختصـر وإلهام، يجب العودة إلى مـا أورده فى الأجزاء الأولى من كتابه، بشـأن الحوار الذى دار بين أحمد باشا كور الوالى التركى وعلمـاء الأزهر، وموضعه دراسة علماء الأزهر للفلك والرياضة. فـالجبرتى يـذكر أن العلماء قـد ذكروا للوالى، أن هذه العلوم قـد انتهت دراستـها

بالأزهر، إلا فى حدود ما هو ضرورى لأداء الفرايض. ثم أضاف أن الباشا قد صدم، وعلق على ذلك قائلاً «كنت أحسب مصر كما نسمع فى بلادنا منبع العلوم والفضايل، فلما جيتها أخلفت ظنى، وذكرت المثل القايل تسمع بالمعيدى خيراً من أن تراه».

وفيما يتعلق بالمستوى الثالث والأخير وهو التقنيات يوجد أكثر من نص فى عجايب الآثار، يوضح وعيه بمدى تقدم أدوات العمل الفرنسية، فها هو يذكر «ويستعينون فى الأشغال وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول والمساعدة فى العمل وقلة الكلفة، وكانوا يجعلون بدل الغلقان والقصاع عربات صغيرة ويداها ممتدتان من خلف، يملؤها الفاعل تراباً وطيناً أو أحجاراً من مقدمها بسهولة، بحيث تتسع مقدار خمسة غلقان، ثم يقبض بيديه على خشبتيها المذكورتين ويدفعها أمامه فتجر على عجلتها بأدنى مساعدة منه إلى محل العمل فيميلها بإحدى يديه، ويفرغ ما فيها من غير تعب ولا مشقة، كذلك لهم فوس وقزم محكمة الصنع متقنة الوضع، ولا يقطعون الأحجار والأخشاب إلا بالطرق الهندسية والخطوط المستقيمة».

(ب) " حسن العطار». لقد كان العطار واحداً من علماء الأزهر الذين عاصروا الحملة. ولقد قدر له أن يراقب تطوراتها عن قرب، وأن يدخل فى علاقات وثيقة مع بعض المستشرقين. ولقد نتج عن هذا التفاعل مع الوافد الحضارى الجديد، بالإضافة إلى الميول التحدثية التى كانت لديه منذ مطلع حياته، أن تكون لديه وعياً وليداً موضوعه تخلف الذات من جانب ونهضة أوروبا من جانب آخر. هذا الوعى تركز على مستوى أساسى هو مستوى الفكر. ولقد ترك العطار عدة نصوص، يمكن من خلالها بلورة الأبعاد الأولية لهذا الوعى الوليد. ففى مقامته القصيرة، التى وصف فيها لقاءه مع بعض المستشرقين الفرنسيين، كتب «وكنت أسمع من أهل العرفان وممن جال منهم فى الأقطار والبلدان، أن للبعض منهم إلى غوامض المعارف تطلع، ولا ثباتها لديهم عند الاختبار تودد وترفع، وقد أشربوا قلوبهم بحب العلوم الفلسفية، وأحرصوا على اقتناء كتبها وأعمال الفكر فيها والروية، ويبحثون عمن له بها إلمام ويتجازبون معه أطراف الكلام». ثم تحدث عن لقائه بواحد منهم : «فاجتمعت به فى عصر ذلك اليوم وهو مع فتية من هؤلاء القوم، كل يعانى غوامض المعارف، ويجيل ذهنه فى تحصيل قوائم الأدب ويعتنيها، فلما استقر بى الجلوس، أخذت يدرن من المنادمة على سمعى حميًا الكؤوس، وأريننى من الكتب الصغير والكبير النكير عندى والشهير، وكلها فى العلوم الرياضية والأدبية، وأطلعونى على آلات فلكية وهندسية، وتحادثن معى فى مسائل تلك

العلوم، وكتبن عن بعض هاتيك الفهوم». والحال أن وعى العطار بنهضة الفكر الأوروبى، قد أولد وعيًا حادًا بتخلف الذات الوطنية على ذات المستوى. وهو ما توضحه ملاحظته التالية عن حالة العلم فى الأزهر فى مطلع القرن التاسع عشر «أن من تأمل علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية، لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التى ألفت فيها، حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع، وأعجب من ذلك تجاوزهم إلى النظر فى كتب غير أهل الإسلام وغيرها.. ومن نظر فى ذلك وفيما انتهى إليه الحال فى زمن وقعنا فيه، علم أنّا منهم بمنزل عامة أهل زمانهم، فإن قصارى أمرنا النقل عنهم دون أن نخترع شيئًا من عندنا.. وحالنا الآن كما قال ابن الجوزى فى مجلس وعظه ببغداد :

ما فى الديار أخو وجد نطارحه   حديث نجد ولا خل نجاريه

وهذه نفثة مصدور».

(ب) «المؤثرات الفكرية - علاقتها بتجربة محمد على» :

١ - **«حدود التحولات الفكرية»:** إن التحولات السابقة الذكر، لم ينتج عنها حركة فكرية بالمعنى المحدد للعبارة. ذلك أن هذا الوعى الوليد كان لا يزال فى أطواره الأولى، وذلك سواء من حيث درجة التبلور، أو من حيث درجة الانتشار. ومرجع ذلك أسباب عديدة، فالعقل المصرى لم يكن مهيئًا للاستيعاب الجذرى والمتكامل، لنظام من المفاهيم اجتاحت أوروبا ذاتها إلى ما يقرب من أربعة قرون حتى تصل إليه. ويضاف إلى ذلك أن اللقاء بين العقل المصرى والعقل الأوروبى، كان طابعه الأساسى هو الطابع العدائى، وهو الطابع الذى دعمه عمق الاختلاف الدينى من جانب، وقصر مدة الحملة الفرنسية من جانب آخر. وعلاوة على ما سبق كان التأثير الفكرى الاجمالى للحملة ذا طبيعة تناقضية، ذلك أن الفرنسيين قد أتوا إلى مصر بوصفهم مستعمرين أولاً ثم بوصفهم حملة مبادئ الثورة الفرنسية أخيرًا.

وفى إطار التحفظات السابقة، يمكن تحديد مساهمة هذه التحولات الفكرية، فى التمهيد للتجربة وفى تشكيل مسارها. وهى العلاقة التى يمكن رصدها عل«مستويين، الأول يتعلق بعملية تولية محمد على ١٨٠٥، والثانى يتعلق بالتحولات الأيديولوجية فى عهد محمد على.

٢ - **«١٨٠٥ - تولية محمد على»:** إن الفترة الممتدة من ١٨٠١ إلى ١٨٠٥ قد تميزت،

بتصاعد الصراع السياسى ونمو الدور السياسى لكبار رجال المؤسسة الدينية. ويمكن القول أن الحركة السياسية لعلماء الأزهر، قد تأثرت فى حدود معينة بالوعي السياسى الجديد. ذلك أن هناك مؤشرات تدل على أن وعيهم بالمبادئ الجديدة بصدد علاقة الحاكم بالمحكوم، ومبدأ سيادة القانون، ثم وعيهم بالهوة العظيمة الفاصلة بين المؤسسات السياسية الفرنسية والمؤسسات المملوكية، وفى النهاية خبرتهم السياسية المكتسبة فى إطار مؤسسات الحكم الفرنسى، كل ذلك قد ساهم بدرجة ما فى توجيه حركتهم السياسية، ولعب دوراً حاسماً فى الجولة النهائية للصراع فى مايو ١٨٠٥. ويضاف إلى ذلك وجود عاملين، ساهما فى تقوية التأثير السياسى لهذا الوعي الجديد. أولهما أن فترة ما بين ١٨٠١ - ١٨٠٥ قد شهدت انهيار توقعات العلماء، لنتائج عودة السلطة العثمانية المباشرة إلى مصر. فالتجربة أثبتت أن المؤسسات العثمانية العائدة، ليست أكثر صلاحية من المؤسسات المملوكية القديمة. وبالتالى وجد العلماء أنفسهم مجبرين على البحث عن بديل وعلى ممارسة دور سياسى أكثر جذرية. وهى النزعة التى كانت ملائمة تماما لأن يفعل الوعى الجديد فعله. وثانيهما أن بنية الأيديولوجيا الإسلامية التقليدية، وذلك من المنظور التراثى أساسًا، كانت تتيح إمكانية تبنى بعض المفاهيم الوافدة، وذلك عبر توسط إحياء المفاهيم الإسلامية المناظرة لها.

والحال أن التأثير السياسى لهذا الوعى السياسى الوليد قد تبلور وبلغ أقصى قوته، وفى صراع مايو ١٨٠٥ (الذى انتهى بخلع خورشيد وتولية محمد علـى) ذلك أن المشايخ هنا تخطوا حدود دورهم السياسى التقليدى الذي مارسوه في القرن الثامن عشر، وبدلوا من نمط علاقتهم السياسية بالسلطة. وهى ظاهرة قد يوجد تفسيراً لها فى طبيعة تحولات نمط التوازن داخل بنية المشترك الأعلى، إلا أنه من المؤكد أن الوعي الجديد كان له دوره الذي لا يمكن تجاهله. ومن الممكن البرهنة على صحة التحليل السابق، بمقارنة المباد الأساسية الواردة في البيان الأول لبونابرت، بالمبادئ الأساسية التي عبر عنها عمر مكرم في حواره التاريخى مع عمر بك. أن المبادئ الأساسية في بيان لبونابرت هى : حق الشعب في الثورة على الحاكم الظالم، وحق العلماء فى تولى السلطة. وهي نفس المبادئ التي نجدها في حوار عمر مكرم. يذكر الجبرتي «ومن جملة ما قاله (عمر بك) كيف تعزلون من ولاة السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى : أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فقال : (عمر مكرم) أولى الأمر العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل وهذا رجل ظالم، وجرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة، وهذا شئ من زمان حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم

بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه». إن التشابه واضح والتأثير بالتالى أوضح.

٣ - **«ما بعد ١٨٠٥ - التحولات»**. إن دور التحولات الفكرية لم يقتصر تأثيره على عملية تولية محمد على، بل امتد أيضًا ليؤثر فى حدود معينة على التحولات التى حدثت فى نفس الفترة. وهو التأثير الذى حدث من خلال الدور الذى قام به طلاب وعلماء الأزهر الذين اندمجوا فى مؤسسات محمد على، وبالتحديد البعثات ومؤسسات الترجمة والمطابع. ذلك أن كبار علماء الأزهر الذين استوعبوا المفاهيم الجديدة، قد وجهوا طلابهم نحو التفاعل مع حركة البناء الجديد المتوافقة مع وعيهم الوليد. والشيخ حسن العطار يمثل نموذجًا ساطعًا لعملية التأثير المشار إليها، فلقد تحدث على مبارك عن دعوة الشيخ الصريحة للتجديد، فكتب : «ويقول أن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها». وكان الشيخ يبث هذه الدعوة بين طلابه فى الأزهر وأيضًا فى كتبه الفقهية، التى كان يدعو فيها الأزهريين للتجاوب مع حركة التجديد العلمى. وعلى سبيل المثال لا الحصر، كتب فى حاشيته على «جمع الجوامع» : «وقد عربت كتب فى زماننا من كتب الفرنجة، وفيها أعمال كثيرة وأفعال دقيقة وأطلعنا على بعضها، وفى تلك الكتب تكلم القوم فى الصناعات الحربية والآلات النارية، ومهدوا فيها قواعدًا وأصولاً، حتى صار ذلك علمًا مستقلاً ذا فروع كثيرة، ومن سمت همته إلى الاطلاع على غرايب المؤلفات، ظهرت له حقايق كثيرة من دقايق العلوم، وتنزهت فكرته إن كانت سليمة فى رياض الفهوم. فلا تجعل سعيك لغير الحصول على الكماليات العرفانية مصروفًا، ولا تتخذ غير نفايس الكتب أليفًا ألوفًا». ولقد قدر لدعوة العطار أن تؤتى ثمارها، والنموذج الدال على ذلك هو رفاعة الطهطاوى. فلقد كان الطهطاوى فى مطلع حياته تلميذًا للعطار، والعطار هو الذى وضعه على طريق التجديد الفكرى قبل التحاقه بخدمة محمد على. والعطار هو الذى رشحه لبعثة باريس، وهو الذى طلب منه أن يكتب مذكراته عن رحلته، وهى الدعوة التى أثمرت كتاب الطهطاوى الهام «تخليص الأبريز». وفى إطار الحقائق السابقة يمكن الخروج بنتيجة صحيحة، مضمونها أن الوعى الجديد الذى جسده الطهطاوى، وما احتواه من تحولات أيديولوجية، ليس سوى امتداد لوعى العطار الوليد، إلا أنه وعى أكثر جذرية ومتكاملاً ونظامية، وذلك من واقع اختلاف التجربة الحياتية والسياسية والفكرية.

٢ - «الحملة الفرنسية - النتائج السياسية» :

(أ) «النتائج السياسية - تحليل» :

إذا كانت الحملة الفرنسية قد مارست تأثيرات فكرية تجاه المثقفين المصريين، فإنها أيضًا قد نتج عنها تحولات بالغة الأهمية على مستوى البنية السياسية. وهى التحولات السياسية التى يمكن تحديدها فى نمطين أساسيين، الأول يتعلق بخريطة القوى السياسية والثانى يتعلق بوزن القوى السياسية.

وفيما يتعلق بتحولات الخريطة. لقد كانت القوى السياسية الأساسية فى أواخر القرن الثامن عشر، هى المماليك والأرستقراطية القبلية وكبار رجال المؤسسة الدينية، ولكن فى أعقاب الحملة الفرنسية حدثت تغيرات أساسية. إن السلطة العثمانية ستعود مرة أخرى وبشكل قوى، وذلك تبعًا لدخول القوات العثمانية من جانب، وسعى الآستانة لإعادة سلطتها المباشرة من جانب آخر. والواقع أن العودة العثمانية قد زادت الخريطة السياسية تعقيدًا، وذلك تبعًا لانقسام القوات العثمانية على نفسها، وتوزع ولاءها بين الباشا ورؤساء الجند، كما أن زعماء الألبان اتجهوا للمنافسة على السلطة، محولين بذلك القوة العثمانية إلى عدة قوى ذات تناقضات جذرية. ويضاف إلى ذلك أن القوى السياسية الأوروبية التى تصارعت على أرض مصر إبان الحملة، لم ينته وجودها السياسى الفعال بعد انسحابها عسكريًا. فقد استمرت متواجدة سياسيًا وبشكل مؤثر وذلك من خلال نشاطها الديبلوماسى فى القاهرة والأستانة. وهو النشاط الذى استهدف التمهيد للسيطرة على مصر، وذلك من خلال تدعيم قوة سياسية محلية معينة، أو توجيه حركة الصراع وجهة معينة، أو خلق تحالفات سياسية محددة.

وفيما يتعلق بتحولات وزن القوى السياسية، حدثت ثلاثة تحولات أساسية : أولاً : تدهورت قوة البيوت المملوكية. وذلك نتيجة عوامل متعددة أهمها تناقص عدد المماليك نتيجة للحروب التى خاضوها ضد الفرنسيين والحظر الذى فرضته الآستانة على شراء المماليك فى أعقاب ١٨٠١، وتصاعد الانقسامات السياسية المملوكية والعودة السياسية للآستانة التى نتج عنها انتهاء الاحتكار المملوكى للسلطة.

ومن جانب ثان : تحللت قوة وسلطة الأرستقراطية القبلية فى الصعيد ذلك أن نجاح القوات الفرنسية فى السيطرة على الصعيد قد أنهكها سياسيًا وعسكريًا، بالإضافة إلى أن

الصراع السياسى فى أعقاب ١٨٠١، نتج عنه تمركز القوة المملوكية بشكل مكثف وشبه دائم فى الصعيد، الأمر الذى ساهم فى المزيد من إضعاف الأرستقراطية القبلية.

ومن جانب ثالث ازدادت قوة كبار رجال المؤسسة الدينية، وذلك من واقع تزايد وعيهم السياسى،وخبرتهم السياسية إبان سنوات الحملة الفرنسية. وأيضًا من واقع أن القوى السياسية الأخرى المتصارعة حول السلطة كانت فى حاجة إلى قوة أخرى ترجحها سياسيًا. وكان العلماء هم هذه القوة المطلوبة، وذلك تبعًا لثلاثة عوامل : قدرتهم على حشد الجماهير الحضرية لحظه احتدام الصراع، قدرتهم على ضمان ولاء سكان القاهرة السياسى فى أوقات الأزمات السياسية، قدرتهم على منح الشرعية لمغتصب السلطة.

(ب) «النتائج السياسية - علاقتها بتجربة محمد على» :

إن التحولات السياسية سابقة التحديد قد لعبت الدور الأساسى فى وصول محمد على إلى السلطة. فلقد وصل محمد على إلى مصر فى إطار القوات العثمانية، وكان على رأس إحدى الفرق الألبانية، ثم نجح فى الوصول إلى قيادة الفرق الألبانية، وإن لم يحتكر هذه القيادة. والحال أن الضعف المملوكى، وسيادة التجزؤ داخل القوى السياسية الأساسية أى العثمانيين والمماليك، والتناقض الكامل بين أهداف الفريقين، والصراع المستمر داخل كل قوة ثم فيما بينهما. كل ذلك قد شكل الإطار السياسى الذى مكن محمد على من الصعود إلى السلطة، وذلك من خلال عقد سلسلة من التحالفات السياسية المتتالية، مكنته من تأمين سلطته من جانب، وتنمية قوته السياسية من جانب ثان، وضرب قوة سياسية بأخرى من جانب ثالث.

رابعًا - الصراع السياسى فى مصر فيما بين ١٨٠١ - ١٨٠٥

لقد شكل الصراع السياسى فى مصر فيما بين ١٨٠١ - ١٨٠٥، إحدى المقدمات التاريخية الأساسية لتجربة محمد علي. ذلك أن تناقضات هذه الفترة والصراعات السياسية الناتجة عنها، هى التى شكلت الملامح الأساسية للموقف السياسي الذي قاد محمد علي إلى السلطة. ولقد وصل محمد على إلى حكم مصر من خلال حلف طبقي سياسي واسع، تكون من طبقات وأقسام طبقية شديدة التباين. فمن جانب هناك جزء ينتمي إلى الطبقة الحاكمة،

تمثل فى كبار رجال المؤسسة الدينية ورؤساء الفرق الألبانية ومن ورائهم جنودهم. ومن جانب آخر هناك الرأسمالية التجارية والحرفيون والجماهير الحضرية القاهرية عامة. ولقد تكون هذا الحلف الطبقى الواسع نتيجة تصاعد وتمفصل نمطين من الصراعات، الأول هو الصراعات داخل بنية المشترك الأعلى، والثانى هو الصراع الطبقى فى المدينة. وانطلاقًا مما سبق سيتم تحليل حركة الصراع السياسى، على المستويات الثلاثة التالية :

١ - «الصراع السياسى داخل المشترك الأعلى» :

(أ) «الصراع السياسى - الأهداف المتناقضة للقوى السياسية» :

إن القوى السياسية المتصارعة قد استهدف كل منها هدفًا متناقضًا تمامًا لأهداف الآخرين. فالآستانة استهدفت استعادة سلطتها المباشرة وإخراج المماليك من مصر. والمماليك استهدفوا إعادة الوضع على ما كان عليه قبل بونابرت. أما محمد على فقد استهدف الوصول إلى السلطة والقضاء على سلطة الآستانة والمماليك معًا. ومقابل ذلك استهدفت انجلترا إرساء حل وسط يجمع بين عودة سلطنة الآستانة وبقاء السلطة المملوكية، ولكن بعد ١٨٠٤ استهدفت إزالة سلطة الآستانة وتدعيم المماليك. أما فرنسا فقد استهدفت ذات أهداف الآستانة، ولكنها بعد ١٨٠٢ استهدفت إقامة سلطة متوازنة تجمع بين المماليك والعثمانيين. وانطلاقًا من تلك الأهداف المتعارضة والتفاعلات السياسية الناتجة عنها، تشكلت حركة الصراع السياسى داخل بنية المشترك الأعلى.

(ب) «الصراع السياسى - المراحل الأساسية» :

لقد مرت حركة الصراع في الفترة المذكورة بأربعة مراحل أساسية : المرحلة الأولى امتدت من نوفمبر ١٨٠١ إلى مايو ١٨٠٣، وهي تتوافق مع فترة ولاية خسرو باشا. وفيها دار الصراع بين خسرو والمماليك الذى انتهى بانسحاب المماليك إلى الصعيد، ثم بين خسرو والفرق الألبانية الذي انتهى بتمرد الألبان بقيادة طاهر باشا وعزل خسرو. والمرحلة الثانية هى مرحلة قائممقامية طاهر باشا الممتدة من ٢ مايو إلي ٢٦ مايو ١٨٠٣، وأهميتها ترجع إلى تمهيدها لتحالف محمد علي والمماليك. ولقد انهار حكم طاهر باشا سريعًا، نتيجة لسيطرة خسرو على الوجه البحري، وزحف مماليك الصعيد صوب القاهرة، وفي النهاية الأزمة المالية التي لم تمكنه من دفع مرتبات الجند الألبان والانكشارية المتواجدين داخل القاهرة. وانتهى حكم طاهر باشا بتمرد الانكشارية ضده في ٢٦ مايو ١٨٠٣، وهو التمرد الذي أدي إلي مصرعه.

إن المرحلة الثالثة الممتدة من ٢٧ مايو ١٨٠٣ إلى ١٢ مارس ١٨٠٤، هـي مرحلة تحالف محـمد علي ومن خلفه الألبـان مع المماليك، وهو الحلف الذى نجح فى السيطرة على السلطة ابتداء من ٢٧ مايو ١٨٠٣. وقد دخل هذا الحلف الحاكم في صراعات متتالية، فخاض صراعًا ضد خسرو باشا انتهى برحيله عن مصر، ثم ضد الوالى الجديد على باشا الطرابلسى انتهى بمصرعه، وفى النهاية ضد الألفي بك بعد عـودته من لندن. والحال أن هذه الصراعات المتوالية، قد نتج عنها ظهور تناقضات عديدة شكلت مقدمات انهيار الحلف الحاكم. فعودة الألفى من لندن صعدت من الصراعات المملوكية، ومصرع على باشا الطرابلسى أدخل المماليك فى تناقض حاد مع الآستانة، وتوالى الضرائب والسلف واعتداءات الجند صعد التناقض الطبقى فى المدينة.

وانطلاقًا من تلك المقدمات قرر محمد على إنهاء تحالفه مع المماليك، وقد قرر ذلك بناء على عدة عوامل : تزايد قوته من واقع تزايد قـوة الألبان، سعيه لعقد صلح مع الآستانة، سعيه لإحباط مخطط الآستانة الهادف إخراج الألبان من مصر. وقد بدأ محمد على انقلابه بدفع الجند الألبان للمطالبة بمرتباتهم، اضطر المماليك إلى فرض ضرائب على سكان القاهرة، الأمر الذى دفعهم إلى التمرد فى ٧ - ٨ مارس ١٨٠٤. وهنا يتدخل محمد على ليلعب دور الوسيط فاكتسب ثقة الطرفين، ثم قام بمنع الألبان من التعدى على الأهالى فاكتسب ثقتهم أكثر. وإلى هنا كانت الموازين قد انقلبت لصالحه، فأخذ المبادرة وهاجم المماليك فى ١٢ مارس ١٨٠٤، ودارت معركة انتهت بخروج البكوات من مصر.

إن المرحلة الرابعة والأخيرة تمتد من ١٣ مارس ١٨٠٤ إلى مايو ١٨٠٥. إن محمد على سيقرر تولية خورشيد باشا حاكم الإسكندرية، مستهدفًا الظهور أمام الآستانة بمظهر الساعى لتوطيد سلطتها، وألا يتيح لها فرصة تعيين والى قوى مزود بقوات خاصة، وفى النهاية اكتساب ثقة القاهريين. وفيما بين مارس ١٨٠٤ وإبريل ١٨٠٥ تصاعدت حركة التناقضات والصراعات السياسية بين القوى الأساسية للمشترك الأعلى. فقد تصاعدت الصراعات بين البيوت المملوكية مما أدى إلى انهيار كل محاولات الصلح والتوحيد. ثم تصاعدت التناقضات بين خورشيد من جانب والجماهير الحضرية وكبار التجار والعلماء من جانب آخر. وفى النهاية تصاعدت التناقضات بين خورشيد ومحمد علي، نتيجة للصعود المطرد لقوة محمد على العسكرية وسلطته بين الأهالي. وانطلاقًا من المقدمات السابقة أخذ خورشيد فى التحضير للجولة النهائية ضد محمد علي، وبالتالى تحرك على عدة محاور فسعى لدى الآستانة لتزويده

بفرقة عسكرية من الدلاه من جانب، ونقل محمد على إلى ولاية أخرى من جانب آخر. ثم سعى لإضعاف قوة محمد على بتشتيت القوات الألبانية الملتفة حوله، وذلك عن طريق ترحيلها أو إرسالها للحرب الوهابية. وهكذا انتهت هذه المرحلة، وكل من خوشيد ومحمد على يقف متحفزًا فى مواجهة الآخر.

٢ - «الصراع الطبقى فى المدينة»:

فى موازاة تصاعد التناقض والصراع السياسى داخل بنية المشترك الأعلى، أخذت التناقضات والصراعات الطبقية فى المدينة فى التصاعد، وعلى وجه التحديد فى القاهرة. وكانت أطراف هذه الصراعات الطبقية هى القوة السياسية المسيطرة على السلطة من جانب، وجماهير القاهرة المتضررة والطبقة الوسطى الحضرية وكبار رجال المؤسسة الدينية من جانب آخر. ولقد كانت درجة التناقض الطبقى، ومن ثم درجة تطور الصراع الطبقى تختلف من طبقة إلى أخرى، ومن قسم طبقى إلى آخر، ومن شريحة طبقية إلى أخرى، وذلك تبعًا للموقع الطبقى وما يفرضه من استغلال. ولقد شهدت الفترة المذكورة عدة معارك طبقية، وصلت إلى قمتها فى تمرد مارس ١٨٠٤، الذى لعب الدور الأساسى فى تصفية السلطة المملوكية. وفى مايو ١٨٠٥ جرت المواجهة الطبقية النهائية، التى أسفرت عن تولى محمد على للسلطة بالارتكاز على الحلف الطبقى سابق التحديد.

(أ) «التناقض الطبقى فى المدينة - عوامل التكثيف»:

لقد شهدت الفترة المذكورة مجموعة من العوامل نتج عنها تكثيف التناقض الطبقى فى المدينة، وكانت جميعها ترجع إلى تصاعد الصراعات السياسية داخل المشترك الأعلى، وما نتج عنها من أزمات مالية دائمة وفوضى سياسية. فهناك - أولاً - الضرائب الباهظة المتلاحقة، التى فرضت على مختلف الطبقات والشرائح على الحرفيين وكبار التجار والمعلمين الحرفيين والمصريين الأقباط، وفى النهاية على المشتركات الفلاحية، وهو ما أضر أبلغ الضرر بالملتزمين من المشايخ والوجاقلية. وهناك - ثانيًا - القروض الإجبارية الضخمة، التى فرضت على كبار التجار. وهناك - ثالثًا - الأزمات التموينية الحادة والمتكررة. فلقد عانت القاهرة من أزمات متكررة فى الغلال، تبعًا لحالة الفيضان وحصار المماليك لها، كما عانت من أزمات متقطعة فى الشعير والفواكه والبصل ومواد الوقود والتبن والسمن. وهناك - رابعًا - الارتفاع المطرد فى أسعار المواد الغذائية، وما رافقه من نقص فى الموازين. والجبرتى فى حوادث صفر ١٢١٩

يذكر قائمة طويلة بالسلع التى ارتفع سعرها مع اختفائها من الأسواق. وهناك - خامسًا - الأزمة النقدية، ولقد تحدث الجبرتى عنها في أواخر حوادث ١٢١٧ قائلاً «وفيها أن الفضة الأنصاف عديدية صاروا يأخذونها من دار الضرب أول بأول ويرسلونها إلى الروم والشام بزيادة الصرف، ولا ينزل إلى الصيارف منها إلا القليل، حتى شحت بأيدى الناس جدًا، ووقف حالهم فى شراء لوازم البيوت ومحقرات الأمور، ويدور الإنسان بالريال أو المحبوب أو المجر، وهو فى يده طوال النهار فلا يجد مصارفته»، وهناك - سادسًا - حالة الركود العامة التى حلت بوسائل المواصلات نتيجة لزيادة الفوضى السياسية، مما أضر أبلغ الضرر بحركة التجارة ومن ثم بمصالح التجار. وهناك - سابعًا - اعتداءات الجند المتكررة على أهالى القاهرة وضواحيها، وما رافق ذلك من نهب وإجلاء للأهالى عن مساكنهم وتوقف لحركة الحياة وبالتالى التجارة. ولقد كانت هذه الاعتداءات فى كثير من الأحيان، ذات طابع همجى يتخطى حدود المنطق والضرورة. وعلى سبيل المثال ذكر الجبرتى فى حوادث ١٢١٧ هـ أن أحد المنازل التى كان يسكنها الجند الألبان «وجدوا بالدار مكانًا خربا أخرجوا منه زيادة عن ستين امرأة مقتولة».

(ب) «الصراع الطبقى فى المدينة - عوامل التصعيد».

الصراع الطبقى تعبير عن التناقض الطبقى، إلا أن درجة الصراع الطبقى ليست انعكاسا مباشرًا لدرجة التناقض الطبقى. إذ أنه لابد من توافر شروط سياسية محددة، حتى يحدث التناسب المطلوب. هذه الشروط تتعلق بدرجة الوعى السياسى وطبيعة القيادات السياسية والخبرات السياسية للجماهير وأساليب النضال وأشكال التنظيم. والحال أن الفترة موضع الدراسة، قد شهدت تحولات هامة على المستوى السياسى نتج عنها تصعيد الصراع الطبقى، وهو التحولات التى يمكن رصدها على المستويات الأربع التالية :

١ - «ظهور أنماط جديدة من القيادات السياسية الجماهيرية» : لقد شهدت الفترة موضع التحليل ظهور أنماط جديدة من القيادات السياسية الجماهيرية. هذه القيادات الجديدة اتسمت بالسمات الثلاثة التالية : الأولى عدم انتمائها للمؤسسة الدينية على أى مستوى من مستوياتها، وبالتالى عدم استخدامها للمؤسسة الدينية كإطار لحركتها السياسية. والثانية انتماؤها إلى الحرفيين وصغار ومتوسطى التجار. والسمة الثالثة هى طابعها الجماهيرى العام، والمقصود بذلك أنها ليست محض قيادات طائفية أو مرتبطة بأحياء معينة. وهنا يجب ملاحظة أن ذلك لا يعنى انتهاء دور القيادات القديمة التى مثلها كبار رجال المؤسسة الدينية، فلقد استمرت

وساهمت مساهمات أساسية فى توجيه الصراع. ولكن وزنها السياسى كان قد تدهور ولم تعد تحتكر القيادة، ويتضح ذلك عند رصد التناقضات التى نشأت بين القيادة الجديدة والقديمة فى لحظات تأجج الصراع.

ويمكن القول بأن الحملة الفرنسية، قد ساهمت مساهمة أساسية، فى التمهيد لظهور وتطور القيادات الجديدة، وذلك تبعًا للعاملين التاليين. الأول هو الصراعات السياسية التى خاضتها الجماهير ضد الفرنسيين والتى مهدت لظهور هذه القيادات.. ففى ثورة القاهرة الأولى كانت القيادة للسيد بدر المقدسى وبعض صغار مشايخ الأزهر، وفى ثورة القاهرة الثانية كانت القيادة للسيد أحمد المحروقى والحاج مصطفى البشتيلى الذى قاد تمرد بولاق.

والعامل الثانى هو اهتزاز المكانة التقليدية لكبار علماء الأزهر، وذلك نتيجة لسلوكهم التهادنى تجاه السلطة الفرنسية وقد اتضح ذلك تمامًا فى موقف الجماهير منهم إبان ثورة القاهرة الثانية، فعندما طالبهم المشايخ بالتوقف كان رد فعلهم هو : «قاموا عليهم وسبوهم وشتموهم وضربوا الشرقاوى والسرسى ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين وأنهم أخذوا دراهم من الفرنسيس» ثم جاءت حوادث الصراعات الطبقية التى دارت فيما بين ١٨٠١ - ١٨٠٥، لكى تمهد أكثر لظهور تلك القيادات. حتى إذا وصلنا إلى مايو ١٨٠٥، نجدها على رأس الجماهير الحضرية تقودها سياسيًا قيادة مباشرة.

وقد جسد هذه القيادة الجديدة أفراد مثل : حجاج الخضرى شيخ الخضرية، وابن شمعة شيخ الجزارين، واسماعيل جودة من أهالى الرميلة الذى لا يذكر الجبرتى مهنته. ويعتبر حجاج الخضرى أهمها وأجدرها بالتناول.

خلال تمرد إبريل - مايو ١٨٠٥، قاد حجاج الخضرى قطاعًا جماهيريًا واسعًا ومسلحًا، وشارك مشاركة فعالة فى المعارك العسكرية، ومعه أهالى الرميلة. وخلال مجرى الصراع أضحى حجاج قائدًا جماهيرًا عامًا، وهو ما يوضحه بشكل قاطع وصف الجبرتى لموكب استقبال فرمان تولية محمد على، حيث كتب : «واستمر مرورهم نحو ثلاث ساعات، وخرج كتخدا محمد على وأكابر الأرنؤود وطايفة من العسكر كبيرة والوجا قليلة وكثير من الفقها العاملين روس العصب، وأهالى بولاق ومصر القديمة والنواحى والجهات مثل أهل باب الشعرية والحسنية والعطوف وخط الخليفه وكبيرهم حجاج الخضرى وبيده سيف مسلول» هذه

المكانة السياسية الجماهيرية التى أحرزها حجاج الخضرى هى التى أهلته فيما بعد لأن يترك القاهرة، ويذهب إلى محمد بك الألفى ليتحالف معه سياسيًا ويقيم فى معسكره. ثم يختلف معه لسبب ما لا يدريه أحد فيطرده من المعسكر، فيعود حجاج ويراسل عمر مكرم موسطًا إياه فى طلب الأمان من محمد على، الذى يمنحه الأمان فيعود إلى القاهرة. وغنى عن البيان أن سلوك حجاج كان ظاهرة جديدة تمامًا، فلقد كان يتصرف كقائد سياسى يمتلك قوة سياسية، ويفعل كما يفعل كبار البكوات ذوى السلطة والفرق العسكرية.

ولقد ترتب على ظهور القيادات الجماهيرية الجديدة نتائج هامة على مستوى الصراع الطبقى. فمن جانب أول ساهمت فى تجذير النضال الجماهيرى، وذلك سواء من حيث الأهداف أو الأساليب. فالجماهير تصر على خلع خورشيد، ثم تصر على القتال المسلح حتى تحقق أهدافها. ومن جانب ثان تحررت حركة الجماهير إلى حد كبير من سيطرة المؤسسة الدينية. فالجماهير تحركت خارج أطر المؤسسة الدينية، وذلك على عكس الوضع فى القرن الثامن عشر. وحركة الجماهير تمايزت جزئيًا عن حركة كبار العلماء، بل واتجهت أحيانًا وجهة مناقضة لها.

٢ - **«التحولات داخل كبار رجال المؤسسة الدينية»** : إن كبار رجال المؤسسة الدينية، كانوا أحد أقسام المشترك الأعلى من جانب، وقيادة جماهيرية ذات طبيعة دينية من جانب آخر. وخلال الفترة موضع الدراسة حدثت تحولات هامة داخل هذه الجماعة، تجسدت فى صعود سلطة السيد عمر مكرم فى مواجهة كبار علماء الأزهر وغيرهم. ولقد بدأ هذا التحول خلال الحملة الفرنسية، حيث يلاحظ الدور الرئيسى لعمر مكرم إبان ثورة القاهرة الثانية، بينما تبنى كبار العلماء توجهًا تهادنيًا. ومهما كانت المبررات فإن النتيجة النهائية، كانت دعم مكانة السيد عمر وتدهور مكانتهم الجماهيرية. وخلال تمرد مايو ١٨٠٥ اتضح تمامًا هذا التحول، فلقد كان عمر مكرم هو الموجه الرئيسى للأحداث، بينما لعب بقية المشايخ دورًا هامشيًا. ومن الخطأ النظر إلى هذا التحول على أنه تحول شكلى، أى أنه ليس محض تبدل فى علاقة التوازن داخل كبار رجال المؤسسة الدينية، نتج عنه ظهور رجل دين قوى ألغى واستوعب أدوار بقية العلماء. فلقد كان ظهور عمر مكرم يعني أمرًا آخر، يعنى تحولاً من نمط التفكير السياسى ونمط قيادة الجماهير. ولا يمكن فهم ذلك بوضوح إلا من خلال تحليل شخصية عمر مكرم، فالسيد النقيب ليس رجل دين تقليدى. فهو ليس من علماء الأزهر، وليس من أسرة البكرى أو السادات الأشراف، وليس من سدنة الأضرحة الذين يتوارثون وظائفهم أبًا عن جد. فلقد كان أصلاً ناظرًا للأوقاف وتاجرًا، ودخل إلى المؤسسة الدينية من مدخل سياسى مباشر، وذلك

فى أعقاب وساطته بين مراد بك وإبراهيم بك والباشا العثمانى فى نوفمبر ١٧٩٣. فعمر مكرم إذن دخيل على المؤسسة الدينية فى تكوينها التقليدى، وهو فى تكوينه أقرب إلى التجار منه إلى العلماء. ولقد كان عمر مكرم متمايزاً فى تفكيره السياسى عن بقية العلماء، حيث كان أكثر جذرية منهم وأنشط من حيث الفعالية السياسية، وأكثر إيمانًا بضرورة المشاركة المنظمة والقوية للعلماء فى مؤسسات السلطة، وبالتالى أكثر إيمانًا بضرورة كبح ورقابة سلطة الوالى. وتوجد أدلة ساطعة على هذا التمايز فى نمط مساهمته فى الصراع السياسى، وفى المبادئ التى عبر عنها فى حواره الشهير مع عمر بك الأرنؤودى، وفى معارضته لنزع سلاح الجماهير فى أعقاب وصول فرمان التولية بينما وافق كل المشايخ، وفى النهاية فى صراعه الأخير ضد محمد على مع وقوف بقية العلماء ضده. وانطلاقًا مما سبق ساهم صعود سلطة السيد عمر مكرم فى تجذير السلوك السياسى لكبار رجال المؤسسة الدينية، وهو ما نتج عنه بالضرورة المساهمة فى تصعيد الصراع الطبقى وذلك تبعًا لما يلى. من جانب أول أصبح كبار رجال المؤسسة الدينية بوصفهم قيادات شعبية دينية، أكثر قدرة على التعبير السياسى عن التناقض الطبقى، وبالتالى انتفت إلى درجة كبيرة تلك الهوة التى نجدها فى تمردات القرن الثامن عشر، بين الاندفاع السياسى للجماهير والتوجهات السياسية المهادنة لعلماء الأزهر. ومن جانب ثان حدث تقارب بين القيادات الدينية التقليدية والقيادات السياسية الجماهيرية الجديدة، وهو التقارب الذى يوجد دليل واضح عليه، فى تلك العلاقة الوثيقة بين عمر مكرم وحجاج الخضرى.

٣ - **«تطور أساليب النضال الجماهيرى»** : إن التحليل الدقيق لحوادث تمرد مايو ١٨٠٥ يدل دلالة قاطعة على حدوث تطور كبير، فى أساليب النضال الطبقى لجماهير القاهرة وذلك بالمقارنة بالوضع فى القرن الثامن عشر. ويبدو ذلك واضحًا فى لجوء الجماهير إلى العنف المسلح، وتطور أساليب تنظيم الحركة الجماهيرية، وهى جميعها ظواهر لا توجد فى تمردات القرن الثامن عشر. ومن المؤكد أن المصدر الأساسى لهذه التحولات هو خبرات الجماهير المكتسبة خلال نضالها ضد الفرنسيين. فالصراعات التى حدثت خلال هذه الفترة سجلت ظواهر عديدة، أهمها لجوء الجماهير لحمل السلاح وبناء المتاريس وتنظيم التمردات وتنظيم عملية التسليح وتنظيم عملية إعالة المحاربين وأسرهم. ومن السهل التدليل على هذا التطور فى أساليب النضال الجماهيرى، ومن خلال نموذج شديد الجزئية إلا أنه بالغ الدلالة. فالجبرتى وصف رد فعل الجماهير تجاه قصف المدفعية الفرنسية أثناء ثورة القاهرة الأولى، فى العبارة التالية «فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ولم يكونوا فى

عمرهم عاينوه، نادوا يا سلام من هذه الآلام ويا خفى الألطاف نجنا مما نخاف، وهرجوا من كل سوق ودخلوا فى الشقوق». ثم وصف ذات رد الفعل أثناء تمرد ١٨٠٥، قائلاً «فلما رأى من بالقلعة ذلك، فعندها رموا بالمدافع والقنابل بيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر.. فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما ألفوه أيام الفرنسيس وحروبهم السابقة».

٤ - **«التأثيرات الفكرية للحملة الفرنسية»** : لقد جاء فى الصفحات السابقة أن الحملة الفرنسية قد خلقت تحولات فكرية معينة فى العقل المصرى، وأيضًا أن هذه التحولات قد مارست تأثيراً فى عملية تولية محمد على، وفيما يلى عودة إلى ذات المسألة ولكن على نحو موجز. لقد عبر حوار عمر مكرم مع عمر بك بالإضافة إلى حوادث ومواثيق عملية التولية ذاتها، عن ظهور عدة مفاهيم أهمها : حق الشعب فى الثورة ضد وخلع الحاكم الظالم، حق العلماء فى المشاركة الفعلية فى الحكم، الولاية المشروطة. ولقد علق الدكتور فؤاد شكرى على حوار عمر مكرم مع عمر بك بقول «وكان ذلك قولاً جديدًا»، والواقع أن هذا صواب وخطأ فى آن واحد، فالمفاهيم التى عبر عنها عمر مكرم كانت جديدة فى حالة ردها إلى البنية الأيديولوجية المهيمنة، إلا أنها ليست كذلك في حالة ردها إلى مجمل التراث الفكرى الإسلامى. فإذا كان من المؤكد أن ظهور المفاهيم الجديدة قد تأثر بدرجة ما بتطور وضع العلماء السياسى، فهو قد تأثر أيضًا وبشكل رئيسى بالتأثيرات الفكرية للحملة.

٣ - « انطلاق الصراع السياسى وولاية محمد على » :

إن دخول فرقة الدلاه العسكرية إلى القاهرة في ٢٩ فبراير ١٨٠٥، كان إيذانًا بدخول الصراع السياسى مرحلته النهائية. ذلك أن دخولهم كان هو العامل الأساسى والمباشر، الذى أدى إلى تكثيف التناقضات بين قوى المشترك الأعلى من جانب، ثم أدى إلى تكثيف التناقض الطبقى فى المدينة من جانب آخر. وكان ذلك هو المدخل لانطلاق الصراع السياسى فى إبريل - مايو ١٨٠٥، وهو الصراع الذى انتهى بتولية محمد على.

(أ) « انطلاق الصراع السياسى داخل السلطة العليا » :

لقد دخل الجند الدلاة القاهرة فى ٢٩ فبرايد ١٨٠٥ . وعلى الفور بدأ خورشيد فى التجهيز لمعركته الأخيرة ضد محمد على ، فعمل على كسب ولاء الدلاة ، ثم سعى لكسب تأييد كبار علماء الأزهر . وبمجرد أن عرف محمد على بوصول الدلاة ، غادر الصعيد فوراً متجهًا إلى القاهرة . ثم أخذ فى التحرك ضد خورشيد على ثلاثة محاور : استمالة رؤساء

الجند الدلاة، كسب تأييد علماء الأزهر وجماهير القاهرة، إحكام السيطرة على الجند الألبان ومنعهم من التعدى على الأهالى. وتلا ذلك اتجاه محمد على نحو تصعيد الموقف، فأخذ يحرض الألبان على المطالبة بمرتباتهم، ثم أحكم الحصار حول خورشيد بتحديد مدى زمنى ضيق لدفع المرتبات من جانب، ثم بمعارضته لفرض أية ضرائب من جانب آخر. وفى مواجهة ذلك يوافق خورشيد على دفع نصف المرتبات، ثم واصل سعيه لنقل محمد على وبالفعل وصل فرمان بنقله إلى ولاية جدة فى ٦ مايو. ولقد واجه محمد على تحركات خورشيد بالتظاهر بقبول قرار النقل والاستعداد للرحيل، ولأن الألبان لم يحصلوا حتى الآن إلا على نصف رواتبهم، فقد كان رحيل محمد على مبعث ثورة عارمة اجتاحتهم. وهنا يحرضهم محمد على ضد خورشيد، فيهاجمونه مطالبين بمرتباتهم. وفى مواجهة التمرد الألبانى أصبح خورشيد محاصراً،والمخرج الوحيد أمامه هو دفع المرتبات ولكن الخزانة كانت خاوية، وليس هناك طريق سوى فرض الضرائب الجديدة على سكان القاهرة. وكان ذلك هو المدخل لانفجار الموقف السياسى.

(ب) «انطلاق الصراع الطبقى فى المدينة» :

إن وصول الجند الدلاة قد نتج عنه المزيد من تكثيف التناقض الطبقى فى المدينة. فقد قاموا باعتداءات متكررة على سكان القاهرة، نتج عنها توقف شبه كامل لحركة الحياة فيها. كما استولوا على مساكن أحياء بأكملها، وطردوا الأهالى منها واستولوا على ممتلكاتهم. وفى مواجهة هذه الاعتداءات شبه اليومية وقف خورشيد عاجزاً عن كبحهم وبالتالى أصبح الموقف على عتبة الانفجار. وفى ١١ مايو ١٨٠٥ انفجر الموقف السياسى فقد قام خورشيد بفرض ضريبة جديدة، فقرر على المحروقى وجرجس الجوهرى ألفى كيس، وقرر ضريبة عامة على منازل القاهرة. وكان رد الفعل هو الإضراب الجماهيرى العام وبداية ثورة القاهرة.

(جـ) تكوين الحلف الطبقى وولاية محمد على» :

فى ١١ مايو ١٨٠٥ انفجر الموقف السياسى، فالألبان كانوا في ثورة ضد خورشيد يطالبون برواتبهم، والقاهريون كانوا فى ثورة ضد خورشيد معارضين لاعتداءات الدلاة وفرض الضرائب الجديدة. وفى هذا اليوم حدث إضراب جماهيرى عام استمر إلى اليوم

التالى وهو اليوم الذى أرسل فيه المشايخ عريضة إلى خورشيد حددت مطالبهم : وذكروا فيها : ١ - تعدى طوائف العسكر والإيذاء منهم للناس وإخراجهم من مساكنهم، ٢ - المظالم، ٣ - والفرد، ٤ - وقبض مال الميرى المعجل، ٥ - وحق الطرق والمباشرين، ٦ - ومصادرة الناس بالدعاوى الكاذبة وغير ذلك. ولكن خورشيد رفض مطالب المشايخ والجماهير التى وقفت وراءها، وبالتالى اجتمع العلماء فى ١٣ مايو وذهبوا إلى منزل محمد على. وهناك دار ما يلى «وقولوا له إنا لا نريد هذا الباشا حاكمًا علينًا، ولا بد من عزله من الولاية، فقال ومن تريدون يكون واليًا ؟ قالوا له لا نرضى إلا بك وتكون واليًا علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير. فامتنع أولاً ثم رضى، وأحضروا له كركًا وعليه قفطانًا، وقام إليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فألبساه له». وكان ذلك إعلانًا بميلاد الحلف الطبقى، الذى شن نضالاً مسلحًا ضد خورشيد حتى أجبره على الهبوط من القلعة فى ١٩ أغسطس. ولقد تكون هذا الحلف الذى لم يستمر طويلاً من قوى طبقية شديدة التباين، فهناك من جانب محمد على ورؤساء الألبان وجنودهم وكبار رجال المؤسسة الدينية، وهى جميعها قوى تنتمى إلى المشترك الأعلى. وهناك من جانب آخر الرأسمالية التجارية وحرفيو القاهرة وصغار تجارها والجماهير الحضرية عامة. إن الجانب المصرى من الحلف الطبقى استهدف الأهداف التى حددها العلماء فى مذكرتهم، وكان محمد على هو المرشح الوحيد لتحقيقها وذلك من واقع ثقة الجميع فيه لسابق مواقفه المؤيدة لهم، ثم نجاحه فى السيطرة على الجند الألبان، وفى النهاية نجاحه فى حروبه ضد المماليك وفك حصار القاهرة. وبالنسبة لمحمد على فقد كانت أهدافه أبعد من ذلك بمراحل، ولكن الحلف الطبقى كان من شأنه تحقيق هدفه الأول وهو الوصول إلى السلطة. وذلك من واقع عاملين، الأول أنه وفر له جزءًا من القوة اللازمة للوصول إلى السلطة، حيث نظر للقاهريين كقوة سياسية يمكن تنظيمها وتسليحها عند الضرورة، وذلك لدعم وموازنة القوة الألبانية، التى كانت تتسم بالتجزؤ وتوزع الولاء. والعامل الثانى أنه وفر له أسلوبًا شرعيًا للوصول إلى السلطة، وبالتالى الحصول على موافقة الآستانة. وقد كان ذلك أمرًا ضروريًا، لأنه كان يعرف أن الآستانة ستسعى لإعادة سيطرتها على مصر، وبالتالى لم يرغب أن يظهر أمامها فى صورة المغامر العسكرى المتمرد، بل فى صورة الشخص الذى تولى حكم مصر بناء على رغبة أهلها.

وفيما يلى سنتعرض لطبيعة سلطة محمد على و توليد عملية الاستقلال:

«المشروع السياسى»

لقد مثل المشروع السياسى أول محركات الانتقال الأساسية، وانطلاقًا من ذلك سيتم تحليله على المستويين التاليين : ماهيته ومستوياته، انعكاساته على عملية الاستقلال والانتقال.

المشروع السياسى - ماهيته ومستوياته» :

وصل محمد على إلى الحكم مرتكزاً على حلف طبقى واسع، فالجانب المصرى استهدف فقط الأمن والاستقرار والعدالة، وأن رؤساء الألبان استهدفوا حصرا المشاركة فى السلطة والثروة. أن محمد على فقط، وقلة قليلة من حوله، هو الذي سعى نحو أهداف أبعد من ذلك، يمكن تحديدها ابتداء بـ : «تكوين دولة مستقلة ذات حكم وراثى». إن أهداف محمد على السياسية سرعان ما ستتبلور وتكتسب تمايزها الداخلى، لتصاغ فى مشروع سياسى متكامل يتواجد على أكثر من مستوى.

ولقد استمد هذا المشروع أصوله ومكوناته الأولى من التيارات السياسية داخل الإمبراطورية العثمانية. فقد سبق ذكر كيف وصلت الإمبراطورية فى نهاية القرن الثامن عشر إلى أوج تحللها، مما أدى إلى انتشار حركات الاستقلال الإقليمى، وتطور حركة الإصلاح العثمانى. ولقد تأثر محمد على بهذه التيارات، خصوصًا أنها كانت تعمل بقوة داخل ألبانيا. وعندما أتى إلى مصر اكتسبت هذه التأثيرات مزيداً من القوة، وذلك من واقع أن النزعة الاستقلالية كانت قوية فى مصر، كما أن النزعة الإصلاحية عرفت دفعة قوية فى أعقاب الحملة الفرنسية وما نتج عنها من تفاعل حضارى.

إلا أن ما سبق ليس سوى أصول ومكونات أولى، فسوف تتطور هذه المكونات الأولى وتكتمل عناصر المشروع وتتحدد علاقاتها الداخلية، ويكتسب المشروع صياغته النهائية، وذلك تحت تأثير التناقضات الخارجية والداخلية، فلقد واجه حكم الباشا دومًا، تهديدات خارجية مصدرها أوروبا والآستانة، استهدفت احتلال مصر، ومثلت تحديات مستمرة دفعته تحت ضغطها، وما يصاحبها من اكتشاف للغرب الناهض، وما يفرضه ذلك من جدل حضارى، نحو تطوير الأهداف الأولى، وتحديد أهداف جديدة، واستبدال الأدوات، وتطوير المؤسسات والجماعات التى يعتمد عليها. ومن جانب آخر ظهرت أثناء مسيرة التجربة تناقضات داخلية عديدة، انبثق بعضها من التناقض داخل الطبقة الحاكمة، وبعضها من

التناقض بين الحاكم والمحكوم، وبعضها من التفاوت بين المشروع السياسى وبنية التكوين الاجتماعى، والآخر من التناقضات داخل المشروع السياسى نفسه. والحال أن هذه التناقضات الداخلية، دفعت الباشا نحو تعديل وتطوير أهدافه، وتحديد أهداف جديدة، وتبنى أفكار جديدة، وتطوير المؤسسات، وإحداث تحولات فى التوازنات الطبقية. وبعبارة أخرى كان المشروع السياسى يتكامل ويكتسب صياغته النهائية بالتجربة والخطأ. ولقد كان المشروع السياسى يمثلا كلاً واحداً، سيتم تحليله هنا على المستويات التالية : بوصفه مشروع استقلال، بوصفه مشروع امبراطورية.

أ - «المشروع السياسى - الاستقلال» :

١ - «التوجهات الأساسية من أجل الاستقلال» : لقد سعى محمد على نحو بناء سلطة مستقلة ذات حكم وراثى، وبدأت مساعيه منذ بداية حكمه. ففى عام ١٨٠٧ بدأ فى التفاوض مع المندوبين البريطانيين بهدف الحصول على اعتراف بأستقلاله، فإذا فشل نراه يتجه إلى الفرنسيين، فإذا فشل مرة أخرى اتجه مباشرة للآستانة منتهزاً فرصة الحرب الوهابية، وتنتهي مفاوضاته بوعد قاطع بالإجابة لطلبة، فكتب إليه نجيب أفندى فى ٢٨ يناير ١٨١١ : «والله وحده هو العليم بما سيحدث من أجل رفع شأنه وإعلاء قدره، بالحظوظ الهمايونية والعنايات الملكية الأخرى، التى تتضمن جعل إيالة مصر منحصرة فى أولاده وسلالته الطاهرة مع توجيه رتبة الخان الرفيعة إليه». وليس الهدف تتبع المساعى الدبلوماسية الهادفة للحصول على الاستقلال، أو بعبارة أدق الاعتراف بالاستقلال، والتى ستنتهى بالنجاح فى عام ١٨٤١، ولكن الهدف هو رصد حركة البناء الفعلى للاستقلال.

إن الباشا سعيا نحو هدفه سيتحرك على ثلاثة محاور : بناء الدولة الحديثة القوية، اكتساب الدعم والاعتراف الخارجى بوضعه وتطلعاته الاستقلالية، الحروب الهادفة إلى دعم قوته أو فرضْ الأمر الواقع على القوى الأخرى. ولقد كان المحور الأول هو المحور الأساسى، والمحوران الآخران امتداداً للمحور الأول.

٢ - «بناء الجيش الحديث» : لقد كان بناء الجيش الحديث يعنى بناء مؤسسة عسكرية حديثة من النمط الأوروبى، وهو ما يعنى : تطبيق التجنيد الإجبارى، تبنى النظم العسكرية الأوروبية، إدخال الأسلحة الحديثة، تكوين المدارس العسكرية الحديثة.

فيما بين ١٨٠٥ - ١٨١٥ تركزت جهود محمد على نحو احتكار السلطة، والقضاء

على القوى السياسية المنافسة، وتطويع الفرق الألبانية. وشهد العام الأخير المحاولة الأولى لبناء الجيش الحديث، بتدريب الألبان على النظم الحديثة، إلا أن تمردهم سيحكم عليها بالفشل. وفيما بين ١٨١٦ - ١٨٢٠ مهد محمد على الطريق للتجربة الجديدة، وذلك بالقضاء التدريجى على القوات الألبانية، بارسالهم إلى الحجاز وتشتيتهم فى الثغر. وفى عام ١٨١٩ جرت محاولة لتدريب عدد من الرقيق السودانى على النظم العسكرية الحديثة، ولكنها فشلت لعوامل مختلفة.

إن الفترة الممتدة من ١٨٢٠ إلى ١٨٢٨ هى فترة التأسيس، وهى خارج رصد الجبرتى، فمع بدايتها طبق نظام التجنيد الإجبارى. وفى عام ١٨٢٣ انتهى تدريب الآلايات الستة الأولى، وفيما تكون كادر الضباط الحديث تبعًا لتأسيس مدرسة أسوان للضباط المشاه ١٨٢٠، ومدرسة أركان الحرب ١٨٢٥. كذلك أسست البحرية الحديثة التى وصلت قوتها فى عام ١٨٢٤ إلى ٥١ مركبًا حربيًا، ١٤٦ ناقلة تحمل ١٨,٠٠٠ جنديًا.

وفيما بين ١٨٢٨ - ١٨٤٠ جرت تطورات عديدة، يمكن رصدها على المستويات الأربع التالية :

أولها، تزايد عدد أفراد الجيش حتى وصل إلى أقصى حجمه، فيذكر أمين سامى أنه فى عام ١٨٣٧ وصل عدد القوات البرية إلى ٢٣٦٧٢١ جنديًا، وأنه فى عام ١٨٣٦ وصل عدد جنود البحرية إلى ١٤٩٨٠ والضباط إلى ٢٠٤. وثانيها، إعادة تنظيم بعض الفرق العسكرية ومثال ذلك الفرسان والمدفعية. وثالثها تأسيس الهيكل الأساسى للمدارس الحربية الحديثة، حيث أنشئت خمس مدارس فيما بين ١٨٣١ - ١٨٣٦. ورابعها تطوير الصناعات الحربية، فأسست الترسانة البحرية فى ١٨٣٠ - ١٨٣١ وطورت ترسانة القلعة، وهو ما نتج عنه مضاعفة قوة الأسطول المصرى، فأصبح فى عام ١٨٣٦ يتكون من ٧٠ مركبًا حربيًا تحمل ٩٨٣ مدفعًا.

٣ - **«بناء المؤسسات السياسية الحديثة»** : بالتوازى مع بناء الجيش الحديث تمت عملية بناء المؤسسات السياسية الحديثة. وذلك بهدف تنظيم عمل السلطة المركزية، بما يكفل رفع الكفاءة الوظيفية من جانب، وسيطرة المركز السياسى على مؤسسات الدولة من جانب آخر. ثم تنظيم عملية السيطرة السياسية على الطبقات المحكومة، بما يحقق التعبئة القصوى

للفائض الاقتصادى من جانب، والهيمنة الطبقية من جانب آخر. وقد جرى ذلك من خلال إعادة بناء السلطة الاستبدادية مع تطويرها داخليًا، بنقل بعض المؤسسات والنظم الأوروبية، إلا أن ذلك تم فى حدود معينة، لا تمثل خروجًا جذريًا عن طبيعة السلطة الاستبدادية، وبالتالى كانت السلطة الجديدة ذات بنية انتقالية، تماثل بنية الدولة المطلقة فى أوروبا. وسوف يتم تحليل بناء المؤسسات الحديثة، على المستويات الأربع التالية.

إن المستوى الأول هو بناء المجالس السياسية التنفيذية المركزية. وفى البداية يجب ملاحظة أن تمييزها عن مجالس المشورة هو أمر بالغ الأهمية، إلا أن الفروق بينهما ليست حاسمة تمامًا. ومجالس المشورة كانت مؤسسات وسطية، أى شبه تنفيذية وشبه نيابية. ولقد بدأ بناء المجالس التنفيذية، بتأسيس الديوان الخديوى عام ١٨٠٥، الذى سيتلوه تأسيس ديوان خديوى الإسكندرية، وفى عام ١٨١٣ أسس ديوان البحرية. وفيما بين ١٨١٣ - ١٨٣٧ أسست المجالس التالية : مجلس تجار الإسكندرية ١٨١٩، ديوان مالية الحكومة ومسائل الموازين والمكاييل ١٨٢١، ديوان الجهادية ١٨٢٢، ديوان الصحة والكورنتينات ١٨٢٦، ديوان الأبنية ١٨٢٩، ديوان شورى الجهادية ١٨٣٠، مجلس الإسكندرية للدعاوى ١٨٣٠، قلم المدارس ١٨٣٥. إن عام ١٨٣٧ هو عام حاسم ففيه صدر قانون السياستنامة لتنظيم عمل الدولة الحديثة. وسوف ينظم القانون عمل المجالس التنفيذية القائمة، وذلك من حيث اختصاصاتها وأقسامها وعلاقاتها بالمجالس الأخرى، كما سيؤسس مجالس تنفيذية جديدة. كذلك سيحدد القواعد القانونية الأساسية، الحاكمة لعمل كل هذه المجالس ولسلوك القائمين عليها. وقد نص القانون على وجود سبعة مجالس أساسية، الديوان الخديوى، ديوان الجهادية، ديوان البحرية، ديوان المدارس، ديوان الأمور الأفرنكية، ديوان التجارة المصرية، ديوان الفاوريقات، دواوين كافة الإيرادات. ثم نص على تقسيم كل ديوان إلى مجموعة من الإدارات الفرعية تسمى بالـ «ورش» وذلك تبعًا لنوعية وظائف الديوان. وفيما يلى عام ١٨٣٧ وحتى نهاية الفترة، لن تحدث تحولات أساسية، بالنسبة لعدد وتنظيم عمل المجالس التنفيذية.

أن المستوى الثانى هو تأسيس مجالس المشورة السياسية. ولقد أسس أول هذه المجالس فى ١٨١٨ لكنه كان مجلسًا محدود الأهمية، ولم يتمايز بشكل أساسى عن المجالس التنفيذية، ثم انتهى عمله فى ١٨٢٤. وفى نفس العام أسس المجلس العالى وهو أهم مجالس المشورة وأكثرها تطورًا، وكان الهدف من تأسيسه تكوين هيئة استشارية حكومية

تتولى بعض الاختصاصات التنفيذية وتبحث فى القضايا المطروحة، ومن أجل ترشيد عمل المجالس التنفيذية والمؤسسات التابعة لها، ثم استخدامه كمؤسسة للتنشئة السياسية لأعضاءالطبقة الجديدة. ومع استقرار المجلس تطورت وظائفه وتعددت. فأصبح يقوم بجزء من وظائف المجالس التنفيذية، كذلك أصبح سلطة تشريع، إلا أنه لم يحتكر السلطة التشريعية، كما تولى بعض وظائف السلطة القضائية. وفى النهاية مارس وظائف رقابية تجاه المجالس التنفيذية، وخصوصًا فيما يتعلق بالقضايا المالية. ومع استقراره تطور البعد النيابى فيه، ففى عام ١٨٢٤ اقتصرت عضويته على كبار رجال الدولة «الأغوات والأفندية مأمورى الأقاليم المعينين». وفى عام ١٨٢٩ أقرت قاعدة انتخاب مشايخ القرى كأعضاء فى المجلس، وإن كان حق الانتخاب اقتصر على أعضاء الجهاز الإدارى على مستوى القسم وذلك بواقع شيخ واحد لكل خط، كذلك اتسعت عضويته، فأصبح يتكون من إداريين ومشايخ قرى وتجار وعلماء. وفيما يتعلق بالتجار والعلماء كانت هيئة من كبار التجار والعلماء تقوم بانتخاب مشايخ القرى من قبل الأهالى، كما أقرت قاعدة إسقاط عضوية جزء من ممثلى التجار والعلماء مشايخ القرى كل عام، وإعادة انتخاب غيرهم. ومع صدور السياستنامة انتهى عمل المجلس العالى، وتكون بدلاً منه مجلسان للمشورة، مجلس شورى خاص دائم مكون من نظار الدواوين وبعض كبار رجال السلطة، ومجلس شورى عام يجتمع مرة واحدة سنويًا، ومكون من «مديرى الدواوين العمومية والذوات الذين يسمون من لدن المراحم العلية». وكان هذان المجلسان من حيث التكوين والاختصاصات، أقرب لطابع المجالس التنفيذية، وسجلا بالتالى تراجعًا عن التطورات النيابية التى حدثت فى إطار المجلس العالى.

إن المستوى الثالث هو إعادة تنظيم التقسيم الإدارى للدولة. ولقد تم ذلك سعيًا نحو تقوية قبضة السلطة المركزية، وتأسيس علاقات سياسية وإدارية مباشرة بينها وبين المشتركات الفلاحية ورفع كفاءة أجهزة الإدارة الإقليمية، وتحقيق رقابة فعالة للسلطة المركزية تجاه مؤسسات الإدارة الإقليمية وذلك على المستويين الإدارى والاقتصادى. إن المادة المتاحة لا تمكننا من تتبع محاولات إعادة تنظيم التقسيم الإدارى، ولكن يوجد لدى بورنج (انظر تقريره فى الملاحق) وصف كامل يرجع إلى عام ١٨٣٨. وتبعًا له كانت مصر مقسمة إداريًا إلى مديريات، وكل مديرية تنقسم إلى أقسام، والقسم ينقسم إلى مراكز، والمركز ينقسم إلى أخطاط، والخط يحتوى عددًا من المشتركات الفلاحية، والمشترك الفلاحى يحتوى

بدوره على أقسام إدارية تدعى بالحصص. وكان الوجه البحرى ينقسم إلى سبع مديريات : قليوب، الشرقية، المنصورة، دمياط، الغربية، منوف، البحيرة. بينما انقسم الوجه القبلى إلى ستة مديريات : أطفيح، بنى سويف، المنيا، أسيوط، جرجا، اسنا : وكل وحدة إدارية يرأسها إدارى، يساعده جهاز إدارى متكامل، ويمارس الرقابة على المستويات الإدارية الأدنى، ويكون مسئولاً أمام المستوى الإدارى الأعلى، وهؤلاء الإداريون هم : مدير المديرية، ناظر القسم، مأمور المركز، حاكم الخط، شيخ البلد، شيخ الحصة.

إن المستوى الرابع هو تأسيس المؤسسات القضائية الحديثة. ولقد ظل النظام القضائى فى الجزء الأساسى منه، امتداداً للنظام القضائى الإسلامى التقليدى، ولكن السلطة الجديدة ستؤسس بعض المؤسسات القضائية الحديثة ذات الأساس العلمانى. وأول هذه المؤسسات المحاكم التجارية التى أسست فى عام ١٨١٦ للفصل فى المنازعات التجارية بين الأهالى والتجار الأجانب. وثانيها المحاكم التجارية المختصة فى الفصل فى المنازعات التجارية بين الأهالى أنفسهم. وثالثها الجمعية الحقانية التى أسست عام ١٨٤٢ للقيام بالوظائف القضائية التالية : الفصل فى المنازعات بين الأهالى ومؤسسات الدولة، ومحاكمة الموظفين فى حالة خروجهم عن القوانين المنظمة لعمل مؤسسات الدولة، والفصل فى الخلافات حول نطاق اختصاصات مؤسسات الدولة، والعمل كمحكمة استئناف عليا تنظر تظلمات الأهالى ضد أحكام المحاكم الأخرى.

٤ - **«بناء مؤسسات إعداد الطبقات الجديدة»** : بالتوازى مع بناء الجيش الحديث والمؤسسات السياسية الحديثة والتحولات الاقتصادية، كان بناء مؤسسات إعداد أفراد الطبقات الجديدة، اللازمين لإدارة المؤسسات السياسية والاقتصادية الحديثة. وأول هذه المؤسسات المدارس الحديثة، التى بدأت حركة تأسيسها عام ١٨١١ ووصلت إلى ذروتها فى الثلاثينات، ثم أخذت فى التدهور فى أعقاب ١٨٤٠. ولقد تكون النظام التعليمى الحديث من أربع مستويات : الأول هو المدارس الابتدائية التى بدأت حركة بنائها عام ١٨٣٣، وفى عام ١٨٣٦ وصل عددها إلى ٦٧ مدرسة. والثانى المدارس التجهيزية المختصة فى تأهيل الطلاب للمدارس العالية، حيث أسست مدرستان : مدرسة القصر العينى ١٨٢٥، ومدرسة المارستان ١٨٢٧ وهى المدرسة التجهيزية لمدرسة الطب. أما المستوى الثالث فهو المدارس العالية والفنية، حيث أسست المدارس التالية : هندسة القلعة ١٨١٦، مهند سخانة بولاق ١٨٣٦، الترسخانة الملكية ١٨٣٠، الزراعة بشبرا الخيمة ١٨٣٣، الكيمياء بمصر القديمة

١٨٣١، المعادن ١٨٣٤، العمليات (فنية صناعية عامة) ١٨٣٩، الإدارة الملكية ١٨٣٤، المحاسبة ١٨٣٦، الألسن ١٨٣٥، الطب البشرى ١٨٢٧، الطب البيطرى ١٨٢٨، الصيدلية بالقلعة ١٨٣٠. أما المستوى الرابع والأخير فهو المدارس العسكرية العالية، فأسست المدارس التالية : مدرسة القلعة ١٨١١، أسوان الحربية ١٨١٦، أركان الحرب بجهاد أباد ١٨٢٥، الطوبجية بطرة ١٨٣١، السوارى ١٨٣١، البيادة بالخانكة ١٨٣٢، البحرية بالإسكندرية ١٨٣١ - ١٨٣٦، الموسيقا العسكرية ١٨٣٦. وثانى هذه المؤسسات هى البعثات العلمية. وقد بدأت سياسة البعثات عام ١٨٠٩، بإسال مجموعة طلاب إلى إيطاليا، وسيستمر إرسال الطلاب فى أعقاب هذا التاريخ. ولكنه سياسة البعثات لن تبدأ بدايتها القوية إلا فى ١٨٢٦، ثم تتصاعد فى أعقاب ذلك، حتى إذا وصلنا نهاية عصر محمد على، نجد أن إجمالى عدد طلاب البعوث قد وصل إلى ٣٣٩ طالبًا وذلك تبعًا لتقديرات الأمير عمر طوسون.

ب- «المشروع السياسى - الامبراطورية» :

١ - **«اتجاهات التوسع»** : لقد كان سعى محمد على نحو تكوين امبراطورية بمثابة امتداد مباشر لسعيه نحو تحقيق الاستقلال، وهي العلاقة التى يمكن رصدها على المستويات التالية : التوسع كأداة للدعم الاقتصادى للدولة الحديثة، والتوسع كأداة للحصول على اعتراف بالاستقلال أو فرض هذا الاعتراف، والتوسع كأداة لخلق الإطار الضرورى لتوطيد والدفاع عن الدولة المستقلة. إلا أن حركة التوسع أيضًا كانت بمثابة تعبير عن طموحات الباشا التجارية، التى كانت بدورها امتداد للثورة التجارية التى خاضتها مصر فى عهده من جانب، وبدايات العودة الأوربية إلى طريق الشرق الأوسط التجارية من جانب آخر.

ولقد بدأت حركة التوسع عام ١٨١١ بفتح الحجاز، وفى ١٨١٨ انتهت الحرب الوهابية بفتح الدرعية، وبذلك ألحق شبه جزيرة العرب بمصر. وفى يوليو ١٨٢٠ بدأت الحملة السودانية، التى انتهت بالسيطرة على السودان فى غضون عام ١٨٢٢. وفى يونيو ١٨٢٢ اتجهت الفتوح وجهة مغايرة، فتم فتح جزيرة كريت والسيطرة عليها. وفى يوليو ١٨٢٤ بدأت حرب الموره، وفى بحر عامين تمكن إبراهيم باشا من السيطرة على شبه جزيرة الموره، ولكن التدخل الأوروبى الجماعى، الذى وصل إلى ذروته فى معركة نافارين البحرية، انتهى بانسحاب القوات المصرية فى أكتوبر ١٨٢٨. وستتلو ذلك فترة هدوء قصيرة،

كانت فعليًـا فترة استعـداد وترقب. ذلك أن نتائج حرب الموره من جانب، ونجـاح الباشا فى إعادة بناء جـيشه من جانب ثان، والوضع السـياسى المتأزم داخل الآسـتـانة من جانب ثالث. ستـشجع محـمد على على التوجـه إلى الشام محـققًا تطلعـاته القديمة، التى أسفـر عنها فى أعوام ١٨١٠ - ١٨١١. وفى أكتوبر ١٨٣١ تحركت جيوش إبراهيم باشا واجتاحت الشام، وفى ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ هزم الأتـراك فى قونية، وأضحى الطريق إلى الآستانة مـفتوحًا. ثم تقـدم إبراهيم إلا أن أوامـر مـحمـد على، أرغـمـته أن يتـوقف عند كـوتاهيـة. إن التـدخل الأوروبى هو الذى منع سقوط الآستانة، وانتـهت الحرب بصلح كوتاهيه فى ٨ أبريل، الذى منع محمد على حكم سوريا وإقليم أدنة، مع استمرار حكمه لمصر والحجاز وكريت.

إن فترة الهـدوء التى أعقبت كوتـاهيه، سرعان ما تـلاها فترة من الترقب والاسـتعداد، فسوف يقرر البـاشا خوض حرب أخرى، مستـهدفًا الاعتراف التام والنهـائى باستقلاله. إن عوامل اتـخاذ الباشـا لهذا القـرار كانت توجـد فى أرض الواقع. فقـد نجحت مـساعـيه فى تأسيس الدولة الحديثة، كـما تكونت فى مصر طبقة حاكمة جـديدة على درجة من التضامن ويتجه ولاؤها أساسًا نحوه وليس نحو الآسـتانة. وهكذا بدأت حرب الشام الثانية فى إبريل ١٨٣٩. ولقـد توالت الانتصـارات المصـرية، ووصلت القوة المصـرية إلى ذروتهـا بانحيـاز القبطان باشا ومعـه الأسطول العثمانى إليها. ولكن التدخل الأوروبى للمـرة الثانية أجهض المشاريع المصرية، وانتـهى الصراع بمعاهدة لندن ١٥ مايو ١٨٤٠، التى أقرت استـقلال مصر لكنهـا ضيـقت من نطاق نفوذها، بإخـراج الشام والحـجاز منهـا مع الإبقاء على الـسودان. وهكذا فـيـمـا بين ١٨١١ - ١٨٣٣ خاض مـحـمـد على حـروبًا مـتـصلة، انتـهت بتكوين إمبراطورية واسعـة، تكونت من السودان وشبه الجزيرة العربيـة وكريت والشام، الأمر الذى فرض بحث العوامل المختلفة التى وجهت حركة التوسع.

٢ - **«التوسع - العوامل الاقتصادية»** : لقد وقفت الأهداف الاقتصادية وراء أغلب حروب محمد على، ويوجد تشابه واضح بين حركة التوسع المصرى، وحركة التوسع الأوروبى إبان فتـرة الانتقـال، والتى سبق تحـديد دورها فى عمليـة تراكم الثروة النـقدية. وفى البـداية اتجه محمد على صوب الحـجاز، ففى الفترة السابقة على التداخل كانت تجـارة مصر مع الحجاز قـد أضيـرت إلى حـد كبـير، بل توقـفت تمامًـا فى بعض السنوات، وذلك نتـيـجة لسـيطرة الوهابين على الحجاز. وعـلاوة على ذلك كان طريق السويس التجارى القـديم، قد أخذ فى

استعادة أهميته التجارية القديمة، وذلك تبعًا لبدايات تحول التجارة الأوربية عن طريق رأس الرجاء الصالح. وبالتالى كان من ضمن أهداف حملة الحجاز، استعادة تجارة مصر معها وتطويرها وذلك بالقضاء على الأسباب التى أدت إلى تراجعها، ثم فرض السيطرة السيابية المصرية على مداخل البحر الأحمر ومراكزه التجارية، حتى يمكن السيطرة على الطريق التجارى الآخذ فى الازدهار.

وفى أعقاب ذلك جاء فتح السودان، الذى تكاد تكون كل أهدافه أهدفًا اقتصادية. فلقد كانت هناك أهدافًا تجارية مختلفة، فالسيطرة على السودان كانت تعنى استكمال السيطرة السياسية على البحر الأحمر، وبالتالى استكمال السيطرة على تجارته، ومن ثم كانت الحملة امتدادًا مباشرًا للحملة الوهابية. كذلك كان إخضاع السودان يعنى تنمية تجارة مصر مع أفريقيا، وذلك بالقضاء على فوضى السودان السياسية وإعادة تنظيمها، بالإضافة إلى مضاعفة الربح المصرى، تبعًا للسيطرة المباشرة علي مراكز التجارة وإلغاء دور الوسطاء. كذلك استهدف فتح السودان استغلال ثروات السودان الطبيعية، كالذهب والمعادن الثمينة والحيوانات والصمغ والمحاصيل الزراعية. وعلاوة على ما سبق استجلاب العبيد، بهدف استخدامهم فى الجيش والصناعة والزراعة، وأيضًا للتجارة فيهم.

إن حملة المورة على عكس ما هو شائع، لا تخلو من الأهداف الاقتصادية. فقد كانت السيطرة على المورة تعنى السيطرة على جزء من الشاطئ الآخر للبحر المتوسط، وعلى سلسلة من الجزر التجارية الهامة الواقعة فيما بين مصر والمورة وهو ما يعني توطيد مكانة مصر فى تجارة البحر المتوسط، وتأسيس مراكز تجارية جديدة علي الشاطئ الآخر. أما فتح الشام فكان من ضمن أهدافه احتكار التجارة فى سلع الشام المربحة، وهى الحرير والصابون والزيتون والدخان، وجميعها كانت مصر تستورد منها كميات كبيرة. بالإضافة إلى السيطرة على طريق التجارة، المارة عبر الشام إلى آسيا، سواء عبر الطريق البرى أو الخليج العربى. وعلاوة على ما سبق استغلال موارد الشام الطبيعية وبالتحديد الخشب والفحم والمعادن، وجباية الضرائب من السكان واستخدامهم فى الجيش المصرى.

٣ - «التوسع - العوامل السياسية» : لقد وقفت العوامل السياسية بدورها، خلف أغلب فتوحات محمد على. فلقد كانت الحرب الوهابية وسيلة للحصول على اعتراف الآستانة بالاستقلال، فلم يحرك محمد على قواته إلا بعد تلقيه وعدًا سياسيًا قاطعًا بذلك.

كما كانت وسيلة لتدعيم وضعه السياسى داخليًا، حيث استخدمها للتخلص من أعداد كبيرة من الجند الألبان. وفيما يتعلق بحرب المورة فقد خاضها سعيًا نحو توطيد علاقته بالباب العالى سياسيًا، وتدعيم مكانته في وجه القوى المعارضة له فى الآستانة، تمهيدًا لحصوله على الاستقلال سلميًا. بالإضافة إلى توطيد مكانته داخل الإمبراطورية، وظهوره بمظهر المدافع والحامى لها ضد أوروبا. وعلاوة على ذلك حصوله على حكم سوريا، حيث وعدته الآستانة بذلك إذا ما وافق على التدخل عسكريًا فى المورة.

ولقد مثلت حرب الشام الأولى نقطة تحول فى نمط علاقة حركة التوسع بمشروع الاستقلال. فقبل ذلك كان التوسع بالاتفاق مع الآستانة وليس ضدها، كما أنه كان أداة للحصول على اعترافها بالاستقلال. أما حرب الشام فاتخذت وجهة مخالفة، فهى تتم ليس ضد رغبة الآستانة بل ضد الآستانة نفسها، كما كانت أداة لفرض الاستقلال عليها. إن الظروف السياسية السابقة على الحملة، هى التى شجعت على انتهاج هذه الوجهة. فقد فَقَدَ محمد على أسطوله فى المورة دونما أن يحظى بحكم سوريا كما وعده الباب العالى، ويقابل ذلك نجاحه فى إعادة بناء جيشه وتكوين أسطوله من جديد. وعلى الجانب الآخر كانت هناك أزمة عامة. فقد أهتزت مكانة السلطان نتيجة لهزيمة المورة ثم الحروب الروسية عام ١٨٢٨ . وكان الجيش العثمانى فى حالة ضعف وتفكك، فى أعقاب نجاح السلطان محمود الثانى فى القضاء على الإنكشارية سعيًا نحو تأسيس الجيش الحديث. وعلى الجانب الأوروبى كانت فرنسا تؤيد ضمنيًا مشاريع محمد على، بينما كانت بريطانيا تعارضها لكنها لم تكن راغبة أو قادرة على مقاومتها تبعًا لمصالحها النامية مع مصر. ولقد برر محمد على هجومه بموقف والى عكا من الفلاحين المصريين الهاربين، إلا أن الدلائل الفعلية كلها تشير إلى الاستقلال بوصفه هدفه الحقيقى. ويذكر أسد رستم أن مراسلات الباب العالى ووكلاءه إبان الحرب أشارت جميعها إلى ذلك، وفى مراسلات محمد على ــ إبراهيم توجد إشارات عديدة إلى ذلك، فقد جاء فى خطاب أرسله إبراهيم إلى محمد على : «ولا شك أن عبدكم المخلص هذا، قد وقف روحه وجسمه وجميع مواهبه العقلية وقواه البدنية، على إعلاء كلمتكم وكلمة مصر المستقلة». وفى خطاب آخر حدد أن هدفه «تأسيس سلطنة عائلية فى ذريته إلى ما شاء الله». وأثناء دورًا أساسيًا فى إعادة إنتاج النمط. ذلك لأن السلع الوافدة، قد أضحى يتم تبادلها داخل نطاق الطبقة الحاكمة (الكبار)، وذلك بوصفها سلع النخبة، بدلاً من تلك المواد والسلع المحلية، التى كانت تقوم بذات الدور سابقًا. وبالتالى لم

ينتج عن عـملية التبادل حـدوث تقدم، ولو لـ «بوصـة واحدة» وذلك على حـد تعبـير رى حرفيًا، نحو نمط الإنتاج الرأسـمالى. ولذلك كان لابد من حدوث تمزق ما arupture مـن أجل تحلل نمط الإنتاج الـقرابى، وبدايات تطور نمط الإنتاج الرأسـمالى بجـانب وضد النمط القرابى. وهنا كان لابد أن تتواجد أداة أخرى إلى جوار التبادل الاقتصادى، وهى الأداة التى لم يكن من الممكن أن تكون سـوى العنف، وذلك من خـلال السيـاسات الإدارية والإكـراه السياسى.

« دور العنف فى التجربة المصرية »

فى إطار تجربة مـحمد على، لعب العنف دورًا مـركزيًا فى عملية الانتـقال. هذا الدور يجد تفسيره فى عده عوامل، أهمها عـلاقة التفاوت التى وجدت بين المشروع السياسى وبنية التكوين الاجتماعى، ثم تناقضات فترة الانتقال، وفى النهاية الطابع الفوقى للتجربة. وتوجد دلائل قوية على مـركزية فكرة دور العنف فى فكر محـمد على، إلا أن الفكرة مصـوغة فى قالب إيديولوجى أسـاسًا. ففى عام ١٨٣٧ تحـدث محمد على مع البـرنس بوكلر موسكاو، فقال «ولقد أرغمت دومًا على استخدام العنف مع الشعب من أجل صالحه، ومن أجل دفعه نحو أن يعمل لصالحه». ويذكر "مادن" أن محـمد على قد ذكر لأحد أصدقائه من الأوربيين «إن هؤلاء الفـلاحين لا يمكن لهم أن يقومـوا برى أراضيـهم وأن يزرعوها دونما أن يـجرى إكراهـهم على ذلك ولقد جـعلت رجالى يتـشاورون مـعهم، وأعطيـتهم الـبذور والثيران، وأقطعتـهم الأرض ليزرعوها، ولطالما دعـوتهم أن يعملوا لصـالحهم ويقومـوا بحراثة ورى أراضيهم، ولكن عـبثًا فلم يجدي أى شيء، فوجـدت نفسى مرة أخرى مرغمًـا أن أجبرهم علي العمل من أجل صالحهم، ودونما وجود السوط فلن يؤدى هؤلاء الفلاحون أى شيء ». وفى حواره مع بوالكمت نجده يردد نفس المعانى السابقة تقريبًا، ويتلو ذلك أن يخرج بنتيجة محددة تمنح الشرعية الكـاملة للعنف كأداة أسـاسـية من أدوات تنفيذ المشروع الـسياسى، وهـكذا يذكر «يجب أن نقود هذا الشعب كما يقـاد الأطفال، لأننا إذا تركناه وشأنه فسيعود إلى حالة الفـوضى التى انتشلتـه منها، ولو كـففت لحظة عن قيـادته لتردى فى وهدتهـا مدة أخرى». ويجب التشديد مرة أخرى علي الطابع الإيديولوجى المـفرط لأقوال الباشا السابقة، الأمر الذي يعنى أن أهميـتها تكمن في عكسهـا لمركزية مفهوم العنف في فكره. وفـيما يلي

تحديد لأهم مستويات دور العنف فى تجربة الانتقال :

(أ) «دور العنف فى تتجير الزراعة» :

لقد تكونت عملية تتجير الزراعة من شقين : التوسع فى زراعة الحاصلات السلعية، ونظام الاحتكار التجارى، وكلا الشقين لعب العنف فيهما دوراً أساسيًا. فلقد كانت زراعة الحاصلات السلعية زراعة إكراهية، والجبرتى يصف بدايات هذه الزراعة الإكراهية، فيذكر «ومنها أنه توجه أمر إلى كشاف النواحى، عند انكشاف الماء عن الأرض، بأن يتقدموا إلى الفلاحين بأن من كان زارعًا فى العام الماضى، فدانى كتان أو حمص أو سمسم أو قطن، فليزرع هذه السنة أربعة أفدنة ضعف ما تقدم. لأن المزارعين عزموا علي عدم زراعة هذه الأشياء لما حصل لهم من أخذ ثمرات متاعهم وزراعتهم التى دفعوا خراجها الزائد بدون القيمة.. فلما وقع عليهم التحجير وحرموا من المكاسب التى كانوا يتوسعون بها فى معايشهم باقتناء المواشى والحلى للنساء، قالوا ما عدنا نزرع هذه الأشياء، وظنوا أن يتركوا على هواهم، ونسوا مكر أوليائهم، فنزل عليهم الأمر والالتزام بزرع الضعف».

كذلك كان العنف هو صلب نظام الاحتكار التجارى الزراعي، وتفسير ذلك ليس عجز آليات السوق بمفردها عن غزو الاقتصاد ما قبل الرأسمالى، بل إن التفسير السليم هو شروط التبادل المطلوب إرسائها، والهادفة جعل التراكم الناتج عن عملية التتجير، يتم أساسًا لصالح المشترك الأعلى وعلى حساب الفلاح. ولقد تحدث "بوالكمت" عن مركزية العنف فى نظام الاحتكار، فذكر «وقد كان محمد على، حين أوجد هذا الفارق الكبير بين أثمان البيع وأثمان الشراء، مدفوعًا بشعور طبيعي يمتلك كل ذى بأس يحس أن أحدًا لا يسيطر عليه، أو يحد من نفوذه، ولهذا لم يستطع أن يقاوم رغبته فى الوصول بأرباحه إلى أقصى حد مستطاع ويخيل إلى أن هذه الرغبة فى الحصول على ربح فاحش، من أهم ما فى نظامه من عيوب..».

(ب) «دور العنف فى تراكم الثورة النقدية» :

لقد فرضت عملية الانتقال، ضرورة القيام بتراكم مكثف للثورة النقدية، وقد تم ذلك عبر ثلاثة أساليب، وهى التجارة والفتوح وضريبة الأرض. ولقد تناول العنصر السابق دور العنف فى عملية تتجير الزراعة، أما الفتوح فهى فى حد ذاتها عنف خالص لا يحتاج إلى

توضيح، وبالتالى سيقتصر التحليل هنا على توضيح دور العنف بالنسبة لضريبة الأرض. لقد كانت ضريبة الأرض هى الأداة الأساسية فى عملية التراكم، وقد نتج عنها اعتصار الفلاحين بشكل بالغ القسوة لا يقارن بحكم المماليك. ورافق عملية تصعيد ضريبة الأرض، استخدام أكثر الأساليب عنفًا ووحشية، وهو ما كان موضعًا للملاحظة واستنكار كل المعاصرين. ولقد أورد "سانت جون" وصفًا للعنف البالغ، الذى كان يستخدم فى جباية الضرائب. وكتب هامون «وإذا مررت بإحدى القرى ووجدت بعض النسوة يبكين وينحن، وسألت عن السبب قيل لك الضرائب، وإذا تابعت سيرك ووجدت شخصًا موثوق اليدين وملقى على الأرض والجنود يضربونه بالكرباج، وسألت عن السبب قيل لك الضرائب. والحق أنى لأعجب وأتساءل من أين للفلاحين الإتيان بكل ما يطلبه الباشا من ضرائب وهم لا يملكون باردة واحدة؟ وماذا محمد على فاعل بالقرى بعد خرابها وهروب الفلاحسن منها ؟». وتذكر "هـ. ريفلين" نقلاً عن الوثائق البريطانية، إنه فى عام ١٨٣٧ قام عبد الرحمن بك بقتل ٣٧ فلاحًا ضربًا بالنبوت أثناء جباية ضرائب الشرقية. ويذكر أحد الباحثين نقلاً عن الوثائق المصرية، أن الباشا من أجل نجاح عملية جباية الضرائب، كان كثيراً ما يأمر بقتل بعض الأهالى والمشايخ، وصلب البعض الآخر، وإلقاء البعض الآخر فى النهر أحياء.

(جـ) «دور العنف فى تقديم قوى الإنتاج» :

لقد لعب العنف دورًا أساسيًا فى تقديم قوى الإنتاج. فلقد تم إنجاز هذا التقدم من خلال الدور المركزى للدولة، واتباعها لأسلوب التعبئة العامة، ودمجها إكراهيًا مختلف الطبقات فى إطار المشروع السياسى. وبالتالى كان لابد للعنف أن يحتل مكانة مركزية، وهو ما سيجرى تحليله فيما يلى : فلقد لعب العنف دورًا مركزيًا فى تطوير جهاز الرى، فيذكر الجبرتى حول حفر ترعة المحمودية «وأمر حكام الجهات بالأرياف بجمع الفلاحين للعمل، فأخذوا فى جمعهم، فكانوا يربطونهم قطارات وينزلون بهم المراكب.. ومات الكثير منهم من البرد والتعب، وكل من سقط أهالوا عليه تراب الحفر ولو فيه الروح». وأيضًا يذكر «انقضى أمر حفر ترعة الإسكندرية.. ورجع المهندسون والفلاحون إلى بلادهم بعد ما هلك معظمهم» وقد قدر الباروت بوالكمت عدد الفلاحين الذين ماتوا فى حفر ترعة المحمودية باثنى عشر ألفًا. وقد نصت اللوائح المنظمة لعمل جهاز الرى على عقوبات متعددة، ضد الفلاحين المتهربين من أداء أعمالهم فى جهاز الرى، ونموذج ذلك ما نصت عليه لائحة زاعة الفلاح، وما ورد فى لائحة الجسور، التى نصت على أن أهالى كل قرية يجبرون علي معاونة

أهالى القرى المجاورة، وذلك فى حالات الانهيارات الفجائية للجسور النيلية. وفى حالة إحجامهم عن ذلك «فمن بعد التحقيق يرسل من فعل ذلك كائنًا من كان إلى الليمان».
ويضاف إلى ما سبق، إن العنف لعب دورًا فعالاً فى تقدم أدوات العمل. فلقد حدث تطور كبير فى إعداد السواقى والماشى، وهو ما ارتبط بالتوسع فى زراعة الحاصلات الصيفية، التى كانت فى الأساس زراعات إكراهية. وكانت الدولة تقدر سنويًا احتياجات إنتاج هذه الحاصلات من السواقى والمواشى، ثم توفرها فورًا للفلاحين على أن تخصم أثمانها عند جباية الضريبة. ومن الطبيعى تمامًا أن ذلك كان يحدث إكراهيًا وضد إرادة الفلاح، في الجزء الأساسى منه. لأنه لا يوجد ما يجعله يبادر حرًا فى هذا الاتجاه، طالما أن ريع هذه الحاصلات يذهب معظمه إلى الدولة، وطالما أنه كان يسعى دائمًا للتهرب من هذه الزراعات. وفى النهاية كان للعنف دور أساس فى تأسيس النظام التعليمى فى مراحله الأولى، وبالتالى فى تقدم المعرفة النظرية. ففى المراحل الأولى، كانت هناك معارضة شديدة ضد الاندماج فى المدارس الحديثة. وحول ذلك كتب كلوت بك «المصريون لم يقبلوا على تعليم أبنائهم طائعين مختارين، بل قاوموا التعليم وأقاموا فى طريقه العقبات وألقوا المعاسر، كما فعلوا لتعطيل حركة التجنيد. وقد بلغ من كراهيتهم للتعليم أن بعض الآباء اعتادوا التمثيل والتنكيل بأبنائهم بترًا للأصابع وسملاً للعيون، منعًا لقبولهم بالمدارس».

وينبغى ملاحظة أن هذه المعارضة قد تركزت أو انحصرت فى المرحلة الأولى من تأسيس النظام التعليمى، وفي المرحلة الثانية تراجعت تمامًا أو اختفت. كما ينبغى فهم عوامل المعارضة، من خلال العودة إلى طبيعة المرحلة والنظام السياسى. بحيث يمكن تحديد أهم العوامل فيما يلى : تصاعد الاستغلال الطبقى وهو التصاعد الذى جعل عملية رفض التعليم أحد أشكال المقاومة السلبية، وأيضًا الطابع العسكرى المفرط لمدارس محمد على. ثم الارتباط العضوى بين المدارس الحديثة والجيش الحديث، وهو الارتباط الذى كان يعن فى الذهنية الشعبية، أن دخول المدارس وهو شكل من أشكال التجنيد العسكرى، أو على الأقل مقدمة للتجنيد نفسه بما ينطوى عليه من مخاطر.

تحولات البناء الاجتماعى فى ظل سلطة محمد على

يختص هذا القسم بتحليل تحولات البناء الطبقى، وذلك على المستويات التالية : تكوين الطبقة الحاكمة الجديدة، تكوين البرجوازية التجارية ذات الأصول الأوروبية، تكوين الطبقة الوسطى الجديدة، تكوين الطبقة العاملة.

١ - «تكوين الطبقة الحاكمة الجديدة» :

(أ) «عملية هدم الطبقة القديمة» :

١ - «تمهيد وتحفظات»: فى أعقاب نجاح محمد على فى الوصول إلى الحكم، اتجه إلى هدم وتفكيك الطبقة الحاكمة القديمة، وفى نفس الوقت أخذت طبقة حاكمة جديدة فى التكون من حول السلطة السياسية الجديدة. إلا أنه ينبغي فى البداية إيراد تحفظين : أولهما أن عملية ضرب القسم المملوكى، قد جرت بوصفه قوة سياسية مهيمنة من جانب، وذات تنظيم اجتماعى وسياسى وعسكري متمايز ومستقل من جانب آخر. وهو ما ترتب عليه استمرار جزء من القسم المملوكى في إطار الطبقة الجديدة، ولكن من خلال معايير وتوازنات مختلفة تمامًا عما سبق، أو بعبارة أدق من خلال فصل المماليك عن بنية البيت المملوكى بالكامل. وثانيهما أنه لا يمكن الحديث عن «هدم» بالنسبة لكبار أفندية الروزنامة وكبار المعلمين الأقباط، بل فقط يمكن الحديث عن «تحلل بطيء وتدريجى»، كان نصيب الأفندية منه أكبر من نصيب القبط.

٢ - «البيوت المملوكية» : لقد تمت عملية القضاء على البيوت المملوكية فيما بين ١٨٠٥ - ١٨١٥، وقد استخدم محمد على فى ذلك أساليب متعددة فقد لجأ إلى إشاعة الانقسام والصراع بينهم، فى الوقت الذى عقد تحالفات جزئية مع فريق ضد آخر، وبمقتضاها كان هذا الفريق ينتقل ويقيم فى القاهرة، بينما يستمر الباشا فى صراعه ضد الفريق الآخر. كما لجأ أيضًا إلى عقد صلح عام مع بكوات الصعيد.

وفيما بين مايو ١٨٠٨ ونوفمبر ١٨٠٩ عقد معهم ثلاث هدنات، وبالرغم أنها كانت جميعًا هدنات هشة، وكان البكوات فى كل مرة سرعان ما ينقضونها، إلا أنها ساهمت فى صراعه ضدهم، حيث منحته مدى زمنيًا لتوطيد سلطته والاستعداد العسكرى، كما مكنته من القضاء على خصومه بالقاهرة. إن الأسلوب الأكثر فعالية وحسمًا، والذى توج الأساليب السابقة هو أسلوب العنف. ففى مايو ١٨١٠ أرسلت حملة إلى الصعيد، نجحت

فى هزيمة المماليك والسيطرة على الصعيد حتى إسنا، وذلك فى أواسط يوليو ١٨١٠. وفى أعقاب ذلك يقوم محمد على بنفسه حملة جديدة، استهدفت بقايا البيوت المملوكية فى الفيوم، وهناك نجح فى هزيمتهم نهائيًا فى معركتى اللاهون والبهنسا. وبهزيمة المماليك فى الصعيد والفيوم، أصبح الطريق ممهدًا لمذبحة القلعة. وفى أوائل ١٨١١ كان قد استقر عزمه على تنفيذها، وفى أول مارس جرى تنفيذ المذبحة، ولقد ذكر الجبرتى أنه قد قتل فيها ألف إنسان أمراء وأجناد وكشاف ومماليك».

٣ - **«الأرستقراطية القبلية»** : لقد تم القضاء على الأرستقراطية القبلية فيما بين ١٨١٠ - ١٨١٤. فلقد نتج عن حملة ١٨١٠ تصفية الأرستقراطية القبلية سياسيًا، بنفس الدرجة التى نتج عنها تصفية البيوت المملوكية. وفي أعقاب ذلك قام إبراهيم باشا بفرض سيطرة سياسية قوية ومباشرة على مناطق الصعيد، مستخدمًا أكثر الأساليب عنفًا ضد قبائل المنطقة. ومع تغيير نظام الحيازة كانت الخطوة الثانية، التي استكملت عملية استبعاد الأرستقراطية القبلية فى بنية المشترك الأعلى. وحول ذلك يذكر الجبرتى «فخربت دور الجميع وتشتتوا وماتوا غرباء، ومن عسر عليه مغادرة وطنه جرى عليه ما جرى لغيره، وصار فى عداد المزارعين... وهكذا تخفض العالى وتعلى من سفل، اللهم إنا نعوذ بك من زوال النعم ونزول النقم».

٤ - **«كبار رجال المؤسسة الدينية»** : إن مصير رجال المؤسسة الدينية، لن يختلف عن مصير المماليك وأرستقراطية الصعيد. ولقد كانت الخطوة الأولى هى القضاء على نفوذهم السياسى. ففى أعقاب ١٨٠٥ أخذ نفوذهم فى التحلل، تبعًا لتحلل نفوذهم وسط الجماهير الحضرية، وتبعًا لتصاعد الصراع والتنافس داخلهم. وفى أعقاب ١٨٠٧ تسارعت وتيرة تحلل نفوذهم. ولقد أدرك محمد على عمق التنافس فيما بينهم، ونجح بالاعتماد على ذلك فى عزل السيد عمر مكرم عن نقابة الأشراف، وذلك إبان الصراع الذى دار بينه وبين المشايخ فى يونيو - أغسطس ١٨٠٩، حول إجراءات فائض الالتزام وأرض الرزق الأحباسية. وبعزله عمر مكرم يمكن القول بانتهاء نفوذ المشايخ السياسى، وحول ذلك يذكر الجبرتى «والحاصل على ذلك كله الحظوظ النفسانية والحسد، مع أن السيد عمر مكرم كان ظلاً ظليلاً عليهم، وعلى أهل البلدة ويدافع ويرافع عنهم وعن غيرهم، ولم تقم لهم بعد خروجه من مصر راية، ولم يزالوا بعده فى انحطاط وانخفاض». ثم كانت الخطوة الثانية هى تغيير نظام الحيازة، وهى الخطوة التى مهدت لاستبعادهم من بنية المشترك الأعلى، والتى نتج

عنها فقدانهم لامتيازاتهم الاقتصادية. وحول ذلك يذكر كلوت بك «كان لهم فى عهد سابق تأثير عظيم فى نفوس هذه الأمة.. غير أن الوالى قلب صرح هذا النفوذ فجعل عاليه سافله إذ أنتزع من أيديهم الأملاك الواسعة التى أبتزوها من الأمة.. فأصبحوا لهذه الأسباب ولا شئ بأيديهم من السلطة وقوة التأثير لا على الأمة ولا على الحكومة». ولكن ينبغى ملاحظة أن الخطوات السابقة، لم يكن من الحتمى أن ينتج عنها استبعاد العلماء من بنية المشترك الأعلى، فلقد كان من الممكن أن يندمجوا فى بنية الطبقة الجديدة، ولكن من خلال توازن جديد للقوى ونمط جديد للاستحواذ على الفائض. والعامل الأساسى الذى سيحسم عملية الاستبعاد، وسيمنح الإجراءات السابقة دلالتها الفعلية، هو تحولات البنى الفوقية وبالتحديد القانون والعلم والأيديولوجيا.

إن البنى الفوقية القديمة ستتحلل، وستتطور بدلاً منها بنى فوقية جديدة، وسيظل هذا التطور فى مرحلة انتقالية. إلا أن هذه البنى الجديدة ستفرض تكوين قسم طبقى جديد، يقوم بعملية إنتاج القانون والعلم والأيديولوچيا. وكان ذلك يعنى أن جزء أساسيًا من الوظيفة الطبقية لرجال المؤسسة الدينية، قد انتزع منهم لصالح عناصر طبقية جديدة، تتولى أمر المؤسسات الجديدة المستقلة تمامًا عن المؤسسة الدينية، وهو ما كان يعنى تحلل العامل الذى كان يحدد الموقع الطبقى لكبار رجال المؤسسة الدينية.

٥ - **«كبار الأفندية، كبار المعلمين الأقباط»**: إن أفراد هاتين الفئتين لن يعرفوا مثل هذه التصفية السياسية العنيفة والسريعة، التى تعرض لها المماليك وأرستقراطية الصعيد وكبار علماء الأزهر، بل سيدخلون فى صيرورة تحلل بطىء وتدريجى، بوصفهم أقسامًا طبقية متمايزة، الأمر الذى يعنى استمراريتهم فى إطار بنية المشترك الأعلى بعد إعادة تكوينه. إلا أن تواجدهم داخل الطبقة الجديدة هو تواجد من نمط جديد، وهى الاختلافات التى يمكن رصدها على عدة محاور. أولها اختفاء تنظيماتهم الطائفية الداخلية، المنظمة لنمط آدائهم لوظائفهم وأساليب التدريب والتوظيف، وأيضًا المنظمة لنمط علاقتهم بالسلطة المركزية. وثانيها تحلل درجة احتكارهم لوظائفهم التقليدية، وهى الوظائف التى كانت تقع فى إطار نمط شبه ثابت لتقسيم العمل. وثالثها تبدل نمط استحواذهم على الفائض، سواء من حيث شكل الاستحواذ، أو من حيث حجم الفائض المستحوذ. وهنا يثار سؤال جديد مضمونه ما هى العوامل التى حددت هذه الاستمرارية ذات النمط الجديد ؟. العامل الأول مرتبط بوضعهما فى القرن الثامن عشر، فأفراد هذين القسمين كانوا فى حالة خمود سياسى،

ولم يندمجوا فى نظام الحيازة القديمة، وهو ما جنبهم التصفية السياسية والاقتصادية التى عرفتها الأقسام الأخرى. والعامل الثانى هو التحولات على مستوى نمط الإنتاج. فلقد شددت هذه التحولات على وظائف هذين القسمين، إلا أنها شددت أيضًا على ضرورة اتباع نمط جديد لأداء هذه الوظائف. وهو ما سيتم التشديد عليه أكثر وأكثر، تبعًا للتطورات الجارية على مستوى البنية السياسية، والتى استهدفت بناء مؤسسات سياسية حديثة، وتطوير نمط تقسيم العمل فيما بين المؤسسات، وتحديد إطار تنظيمى عام يحكم علاقات المؤسسات، وفى النهاية نفى الطابع الشخصى عن المؤسسة السياسية.

(ب) «الطبقة الجديدة - جدلية التكوين» :

لقد تكونت الطبقة الجديدة من عناصر متعددة، جاء الجزء الأعظم منها من المناطق الآسيوية والأوروبية المكونة للأمبراطورية العثمانية. إن السلطة الجديدة المكونة من الباشا وأسرته وأقاربه والجماعات الألبانية المحيطة بهم، ستتجه إلى جذب هذه العناصر البشرية إلى مصر، وذلك بالاعتماد على علاقات القرابة أو توفير فرص العمل والثراء. وطوال حكم محمد على لن ينقطع توافد هذه العناصر إلى مصر، وستشكل انتصارات الباشا المتتالية وصعود نجمه السياسى، عامل جذب جديد يقوى من حركة التوافد. والحال أن هذه الموجات البشرية الصغيرة والمتتالية، سوف تشكل نوعًا من الغزو الهادئ والسلمى التدريجى لمصر، يتم تحت حماية وتنظيم الدولة ذاتها. وهكذا يمكن القول أن الطبقة الجديدة تتكون عبر جدل مزدوج. الأول تمارسه السلطة تجاه بعض أقسام الطبقة القديمة، حيث يتم الاحتفاظ بكتلة من أفراد هذه الأقسام، ثم يتم دمجهم فى بنية الطبقة الجديدة، ولكن من خلال نمط جديد للتنظيم الاجتماعى الداخلى، وأيضًا نمط جديد لتقسيم العمل، وفي النهاية نمط جديد للعلاقة بين الطبقة ككل من جانب والسلطة المركزية من جانب آخر. والجدل الثاني تمارسه السلطة المركزية تجاه تكوينات اجتماعية أخرى، حيث يجرى اجتذاب عناصر بشرية من هذه التكوينات، يجمعها إطار حضارى عام واحد. ثم يجرى دمجها فى بنية الطبقة الآخذه فى التكوين، وذلك من خلال إرساء نمط تكاملى للعلاقات الاجتماعية الداخلية، وأيضًا من خلال خلق علاقة ولاء سياسى تربط بينهم وبين الحاكم، ثم من خلال عملية التنشئة الاجتماعية والسياسية عبر أدوات التنشئة المختلفة، وفى النهاية من خلال إضفاء الطابع الوراثى على بنية الطبقة الجديدة.

(جـ) «الطبقة الجديدة - العناصر الأساسية» :

١ - **«الأتـراك»**: لقد شكل الأتراك العنصر الأساسى من عناصـر الطبقة الجديدة. ففى عام ١٨٣٤ لاحظ بوالكمت «الوظـائف والسلطان من نصيب شعـبين غريبين عن مصـر هما الترك والمماليك.. ومحمد علي نفسه حـريص على أن يحتفظ لحكومته بالطابع التركى، فهو لا يتكلم غيـر التركية، ولا يفـهم لغة البلاد أو يتظاهر بعـدم فهمها». وفى عـام ١٨٣٧ كتب دوهاميل «وأمـا الأتراك فيؤلفون الطبـقة الممتـازة، أو بعبارة أخرى الطبـقة الأرستقـراطية فى البـلاد». وفى عـام ١٨٣٨ دون بورنج «ولكن الأتراك مـازالت تتـألف منهم الأرستقـراطيـة الحاكـمة فى البلاد، مع أن نسـبتهم إلى سكان البـلاد الأصليين ضئيلة جـداً، حتى أن السلطة لتـبدو فى كل مكان وقـفًا على الأقليـة من هذا الشعب الأجنبـى، أما الخضـوع فمن نصـيب الأكثرية وهم أهل البلاد الأصليين».

ولكن من هم الأتراك على وجه الدقة ؟. يقصـد بهم تلك العناصر التى أتت إلى مصر من المناطق الآسيـوية والأوروبية المكونة للأمـبراطورية العثـمانية، وهى العناصـر التى كانت تنعت عامة بالــ «أتراك». وقد أورد أحد الباحثين رأيًا صـائبًا بشأن تعريفـهم. حيث حدد أنه من الخطأ اعتبـارهم جنسًا واحداً لأنهم انتموا إلى أجناس عدة، ثم حـدد أن التعريف السليم يجب أن يرتكز على مسـتوى الثقـافة culture، فلقد كـانوا يتكلمون لغة واحـدة ويحملون أنماط ثقـافـيـة واحدة تجـعل منهـم جمـاعـة ذات هوية واحـدة، وهى أنماط ارتبطت بالحـيـاة الاقتصادية والاجتماعية المشتركة، واكتسبت المزيد من القوة بتفاعلها مع التضامن الاجتماعى داخل كل جـماعـة جزئيـة تربطها عـلاقة عـرق واحـد. وانطلاقًا مما سبق يمكن التحـديد أن الأتراك هم جماعات متـعددة، متباينة الأصول العرقـية، ولكنها متحدة علي مستـوى الثقافة، وهو الاتحاد أو التـماثل الناتج عن وحدة اللغـة والدين والحضارة الإسلامـية العثمـانية، وهى الوحْدة التى ترسخـت أكثر من خلال خضـوع تكويناتهم الاجتماعيـة، لسلطة سياسيـة عامة واحدة فى إطار الأمبـراطورية العثمانيـة. وفيما يتعلق بالجـماعات الأساسيـة داخلهم، فهناك عدة تحديـدات مختلفة جـزئيًا. ولقد ذكر صـمويل جراتب ثلاثة تقـسيمات لثلاثة مصادر : تقسـيم باركر سنة ١٨٢٩ (ألبان - كـريتيون - موريون - الأسـتنبوليون)، وتقسـيم كلوت بك ١٨٤٠ (ألبـان - مماليـك - قسطنطينيون)، وتقسيم هامـون ١٨٤٣ (ألبان - مماليك - إغريق عثمانيون - قرمانيون). وبتحليل هذه التـقسيمات وبمراجعة التراجم المتاحة عن أفراد

الطبقة الجديدة، يمكن القول بوجود ثلاثة جماعات كونت الجزء الرئيسى من «الأتراك»، هم الألبان، والأناضوليون، والإغريق العثمانيين.

ولقد كون الألبان قلب الطبقة الجديدة، فلقد جاء الباشا من ألبانيا، ومع استقرار حكمه سيتوافد على مصر عدد كبير من الألبان مشكلين غزواً سلميًا، وحول ذلك يذكر الجبرتى «وفيه وصل الخبر بحضور زوجة الباشا أم أولاده وأبنه الصغير وإسمه إسماعيل، وابن بونابرته الخازندار وكثير من أقاربهم وأهاليهم، حضر الجميع من بلدهم قوله إلى الإسكندرية، فإنهم لما طابت لهم مصر واستوطنوها وسكنوها وتنعموا فيها أرسلوا إلى أهاليهم وأولادهم وأقاربهم بالحضور فكانوا فى كل وقت يأتون أفواجًا أفواجًا نساء ورجالاً وأطفالاً». وفيما يتعلق بالأغريق العثمانيين فالمقصود بهم أتراك اليونان والجزر الملحقة والمحيطة بها، ويذكر "جرانت" أنهم كانوا إحدى الجماعات الأساسية المكونة للأتراك، وهو ما جاء أيضًا لدى الطهطاوى فى معرض تحليله لآثار حرب الموره، حيث يذكر «ولم ينتج عن هذه الحرب نتيجة تعود على مصر بالمنفعة، إلا أن اكتسبت عدة من أرباب الامتياز الوافر من أعيان الأعيان الأكابر، ومن أهالى تلك البلاد الرومية، فمن هاجر إلى الديار المصرية وبها أقام، وأدى بها الخدمة الصادقة ونال بها علو المرتبة والمقام، ومن هذا الجنس الرومى من تناسل بالقطر وعد من أبناء الوطن العظام». وكنماذج للإغريق العثمانيين، هناك عثمان باشا نور الدين، وسامى بك، وباقى بك، وخير الله بك، وكلهم كما حددت تقارير مراقبى هذه الفترة ودارسيها، من كبار رجال الدولة ومن أركان تجربة محمد على. وفيما يخص الأناضوليين، فهم تلك الجماعات التركية التى أتت من منطقة الأناضول، ومثال ذلك إسماعيل حقى باشا أبو جبل الذى تولى فى عام ١٨٤٥ نظارة شئون تعيينات الجيش، وفى عام ١٨٤٩ حصل على رتبة لواء، وأيضًا حسن باشا الإسكندرانى الذى تولى عام ١٨٣٧ نظارة البحرية المصرية، وفى النهاية عبده شكرى أفندى مدير ديوان المدارس عام ١٨٥٠.

٢ - **«المماليك»**: ولقد كان المماليك الجماعة الثانية المركزية، في إطار الجماعات التى كونت الطبقة الجديدة. ففى أعقاب القضاء على البيوت المملوكية ستتبقى كتلة من المماليك، وكان عليهم أن يختاروا بين اللحاق برفاقهم الهاربين بأقصى الصعيد، أو التصفية السياسية، أو الدخول فى خدمة الباشا وفقًا للشروط التى يحددها، وبالفعل قبل عدد منهم هذا الحل الأخير. ولقد قامت السلطة الجديدة بدمج هذه الجماعات المملوكية فى بنية الطبقة الجديدة، من خلال فصلها جذريًا عن تقاليد البيوت المملوكية، وعبر أدوات الدمج التى سبق

الحـديث عنهـا، وبالتـالى فإن صفة «المـاليك» هنا لا تنطبق عليهم إلا من حيث أصولهم، وليس من حيث تكوينهم السـياسى والاجتماعى. وبمرور الوقت قـام الباشا بتدعيم مـوقعهم الطبـقى فى مواجهـة الأتراك، وحول ذلك يذكـر البارون بوالكمـت «فقد توقع أن صـراعًا سـوف ينشب فى يوم من الأيام بينه وبين الباب العـالى، ولا جدال أن هذا الصـراع سوف يضع إخلاص الضبـاط الأتراك له موضع الاختبـار الدقيق. ولذلك لم يشأ أن يعتـمد عليهم، أكثـر من اعتـماده على أبناء العـرب، فدعـا المماليك إلى مـشاطرتهم السلـطة التى عهـد بها إليهم، سواء كان ذلك فى شئون الجيش أم فى شئون الإدارة.. وهكذا أصبح الترك والمماليك موزعين توزيعًا يحفظ التوازن فيما بينهم».

٣ - **«الأرمـن»**: لقد كان الأرمن إحدى الجماعات الآسـاسية المكونة للطبقة الجديدة. وحول ذلك يـذكر "بورنج": «الأرمن مع قلة عـددهم من ذوى النفوذ، ويشـغلون كثـيراً من أرفع مناصب الحكومـة، فـ"بوغوص" بك رئيس الوزراء أرمنى مـسيـحى»، ونفس الملاحظة أوردها عدد آخـر من المعاصرين مـثل مادن وباتون وبوالكمت. وهناك عامـلان دفعا محـمد على نحـو الاستعـانة بهم ودمجـهم فى بنية الطبـقة الجـديدة. الأول أنهم عناصر تجـارية فى الأساس، وهو ما كان يتـفق مع طبيعة المرحلة. والثانى كونهم عناصر تجيد عددًا من اللغات الأوروبية، وذات خـبرة كبـيرة فى التـعامل مع المجتـمعات الأوروبيـة، وهو ما كـان يتفق مع احتـياجات الدولة الجـديدة، نظرًا لانفتاحـها على الغـرب والتوسع فى علاقـاتها الخارجـية. وكنماذج للأرمن هناك بـوغوص بك كبيـر الأرمن ووزير خارجيـة مصر حـتى عام ١٨٤٤، وخلفه فى منصـبه أرمنى آخر هو أرتين سكياسى، واسطفـان أفندى وزير خارجية مـصر عام ١٨٥٠، وخـروسكياس سـكرتير أول ومـتـرجم محـمـد على، وباولو بك صـيـدلى الباشـا الخاص، وغيطانى بك طبيب الباشا الخاص.

٤ - **«كبار البيروقـراطية القبطية»**. تخصص جزء من الجماعـة المصرية القبطية فى أداء بعض الوظائف الإدارية المرتبطة بعـملية إدارة الإنتـاج، وفى عهـد محمـد على استمر نفس الوضع ولكن فى إطار مـختلف من حـيث درجة احتكار الوظـيفة، ثم من حـيث تنظيم أداء الوظيفة، وهو أمر توجد إشارات متعددة إليه فى كتابات المعاصرين من أمثال بورنج وباتون. وبالتالى استمر كبار القبط كأعضاء فى بنية الطبقة الجديدة، ولكن مع تغيرات أساسية فى نمط أدائهم للوظيفـة، ودرجة احتكارهم لهـا، وحجم الفائض المسـتحوذ عليه، ونمط الاسـتحواذ على هذا الفائض. وتبعًا لذلك امتلكوا مساحات كبيرة من الأرض، وعلى سبيل المثال بلغت

ممتلكات باسيليوس بك وأخوته طوبيا بك ودوس بك، حوالى ٣٢٢٦ فدانًا من الأبعادية والمعمور وذلك عند نهاية عهد محمد على، وامتلك حنا بحرى وهو من كبا موظفى الروزنامة حوالى ٥٠٠ فدان.

٥ - **«فئات أخرى»** : وعلاوة على ما سبق وجدت فئات أخرى، قليلة العدد إلا أن بعض أفرادها شغلوا وظائف هامة. فهناك بعض كبار الخبراء الأوروبيين، الذين استقروا بشكل شبه نهائى فى مصر، واندمجوا فى بنية الطبقة والتكوين الاجتماعى، ونموذج ذلك سليمان باشا الفرنساوى رئيس أركان حرب الجيش، الذى بلغت ملكياته ١٥١٤ فدانًا. كذلك وجدت فئة صغيرة من المصريين الذين تعلموا فى المدارس الحديثة، وصعدوا طبقيًا واندمجوا فى بنية الطبقة الجديدة. ومثال ذلك بهجت بك الذى تولى عام ١٨٣٩ نظارة ديوان المدارس، وبلغت مساحة عهدته ١٨٠٠ فدان، وإبراهيم بك النبراوى طبيب الباشا الخاص، الذى خلف عند وفاته ١٧٠٠ فدان. وفى النهاية بعض رؤساء القبائل، ونموذج ذلك السيد باشا أباظة الذى احتوت عهدته على عشرين قرية تقريبًا، وفى عام ١٨٧٦ بلغت ملكياته ٦٠٠٠ فدانًا.

(د) «الطبقة الجديدة - التركيب الداخلى» :

لقد مرت الطبقة الجديدة بمرحلتين، الأولى من بداية تكوينها وحتى نهاية الثلاثينات، والثانية من أواخر الثلاثينات وحتى نهاية محمد على. وبالنسبة للفترة الأولى، كانت الطبقة طبقة بيروقراطية ذات طابع انتقالى، ويقصد بذلك أنها كوحدة واحدة كانت تمارس أكثر من دور طبقى. ففى مواجهة المشتركات الفلاحية، كانت تقف موقف المالك الآسيوى، وفى مواجهة المشتركات والمنتجين السلعيين الصغار فى المدن والمشتركات، كانت تقف موقف التاجر، وفى مواجهة الطبقة العاملة وقفت موقف المنتج الرأسمالى. هذا التعدد فى الأدوار لم ينتج عنه انقسام طبقى داخلى يعبر عنه، وأقصى ما نتج عنه هو ظهور نوع من تقسيم العمل الداخلى. وهنا ينبغى ملاحظة أن هذا التقسيم، لا يمكن اعتباره تعبيرًا خاصًا عن انقسام طبقى داخلى، أو على الأقل بدايات انقسام لا يزال فى طور التكوين. وتفسير ذلك أن هذا التقسيم، لم يتطابق بالكامل، مع التعدد الوظيفى السابق الإشارة إليه. إن التطابق هنا جزئى تمامًا، فلقد كان هناك تداخل عضوى، بين مؤسسات الدولة المرتبطة بكل وظيفة، ثم فيما بين هذه المؤسسات والمؤسسة المركزية، التى كانت تهيمن على هذه المؤسسات من جانب، وتمارس الأدوار الطبقية الثلاث على قدم المساواة من جانب آخر. وفى حيز هذا

التحليل والتحفظ السابق إيراده، يمكن تقسيم الطبقة الجديدة تبعًا للمعيار الوظيفى الضيق، كما يلى : رجال المؤسسات العسكرية، البيروقراطية المتولية أمر إدارة الإنتاج داخل بنية النمط الآسيوى، بيروقراطية المؤسسات التجارية، بيروقراطية المؤسسات الصناعية، بيروقراطية الدولة بالمعنى الضيق لمفهوم البيروقراطية، بيروقراطية المؤسسات التعليمية والثقافية الحديثة.

وفيما يتعلق بالفترة الثانية أى تلك الممتدة من أواخر الثلاثينات حتى نهاية محمد على، يظل التحليل السابق سليمًا وذلك طالما استمرت الأدوار السابق الحديث عنها إلا أنه سيظهر انقسام طبقى فى طور التكوين، وذلك تبعًا لتطور الزراعة الرأسمالية فى أشكالها الثلاثة، وهو ما نتج عنه ظهور المنتج الزراعى الرأسمالى فى مواجهة البيروقراطى. ولكن ينبغى التشديد على أن الانقسام الطبقى كان لا يزال فى طور التكوين، وذلك تبعًا لما سبق ذكره بشأن اندماج شخص البيروقراطى مع شخص الرأسمالى، وبالتالى ممارسة المنتج الرأسمالى لنمطين متناقضين لعلاقات الإنتاج فى لحظة واحدة. ثم تبعًا لما سبق ذكره بشأن تلك القيود، التى فرضت على النشاط الاقتصادى، للبيروقراطى بوصفه منتجًا رأسماليًا، وهى القيود التى دعمت اندماجه في بنية المشترك الأعلى الآخذ فى التحليل، وعملت على تدعيم البعد البيروقراطى فيه.

(هـ) «الطبقة الجديدة - السمات الأساسية» :

إن السمة الأولى التى ميزت الطبقة الجديدة عن القديمة، هى كونها على درجة عالية من التكامل قياسًا على الوضع فى القرن الثامن عشر. والسمة الثانية هى كونها على درجة أعلى من العلمنة، قياسًا على الوضع السابق فى القرن الثامن عشر. والسمة الثالثة هى كونها طبقة متمايزة نسبيًا عن بنية مؤسسات الدولة، وهو عكس ما كان سائدًا فى القرن الثامن عشر، وعكس ما هو مفترض وحادث فى إطار بنية النمط الآسيوى للإنتاج. ولقد بدأت عملية التمايز فى أواخر الثلاثينات، أى مع تطور الزراعة الرأسمالية واكتمال حق الملكية الفردية للأرض. أى أنها ارتبطت بعملية تحول البيروقراطى إلى منتج رأسمالى، وهو ما يعنى أنها كسمة اجتماعية تظل محدودة بحدين، أولهما وزن كتلة المنتجين الرأسماليين فى إطار الطبقة الجديدة ككل، وثانيهما حدود عملية تحول البيروقراطى إلى منتج رأسمالى، والمقصود درجة اكتمال عملية التحول، قياسًا على عملية تحول وسطية أو نموذجية تنتمى إلى واقع آخر.

٢ - « تكوين البرجوازية التجارية ذات الأصول الأوروبية » :

(أ) البرجوازية التجارية الأوروبية - عوامل التكوين » :

١ - «تراجع البرجوازية التجارية الوطنية». إن تراجع البرجوازية التجارية الوطنية القديمة، وتكون صعود البرجوازية التجارية الأوروبية، هما وجهان لعملة واحدة، إلا أن كلا منهما يمتلك بعض العوالم الخاصة به. ولقد تدهور الوضع الطبقى للبرجوازية التجارية الوطنية القديمة تبعًا لعدة عوامل. أولها تأسيس نظام الاحتكار، حيث نتج عنه منع التجار من التعامل المباشر مع الأسواق الخارجية، كما عزلهم عن التعامل التجارى مع الفلاحين، وجعل الدولة وسيطًا تجاريًا إجباريًا يفرض الأسعار التى يريدها. وهو ما ترتب عليه تضييق مجال النشاط التجارى، وانخفاض مستوى الربح، وبالتالى ضعف تراكم رأس المال وتدهور الوضع الطبقى للتجار الوطنيين. وفى عام ١٨١٨ كتب القنصل البريطانى كامبل ، أن سياسة محمد على الاحتكارية قد نتج عنها «أن توقف كل التجارة التى كان يقوم بها التجار الوطنيون، ولم يكد يبقى لهم أية وسيلة يستطيعون بها أن يتوصلوا إلى حياة شريفة». إن العامل الثانى هو تطور نمط الإنتاج الرأسمالى فى الصناعة عبر نظام السيطرة التجارية ثم عبر التجميع الرأسمالى لبعض الصناعات القديمة فلقد أضحت الدولة بمثابة وسيط تجارى إجبارى يبيع بالسعر الذى يحقق له أعلى ربح، وفى نفس اللحظة كانت تمارس دورها التقليدى فى الرقابة على الأسواق، وبالتالى كانت هى التى تحدد أيضًا سعر بيع السلعة فى الأسواق، ويضاف إلى ذلك أنها أضحت تبيع جزء كبير من هذه المنتجات مباشرة دون توسط التجار، وهو ما كان يعنى فى نهاية الأمر ضعف تراكم رأس المال وبالتالى تدهور الوضع الطبقى للتجار. والعامل الثالث هو السياسة الجمركية. فلقد كانت الجمارك على التجارة الداخلية شديدة الارتفاع، وكانت الجمارك على واردات التجار الوطنيين مرتفعة بالقياس إلى جمارك واردات التجار الأجانب. والعامل الرابع هو احتكار الدولة لعملية تمويل المشتركات الفلاحية بالاحتياجات الآساسية لعملية الإنتاج، وهو ما نتج عنه عزل التجار عن ممارسة النشاط المالى المرتبط بالتجارة في الحاصلات الزراعية فى الوجه البحرى، والأرباح المتولدة عنه، وبالتالى المزيد من تدهور وضعهم الطبقى.

٢ - «صعود البرجوازية التجارية ذات الأصول الأوروبية». وفى موازاة تراجع البرجوازية التجارية الوطنية، أخذت البرجوازية التجارية ذات الأصول الأوروبية فى التكون والصعود، وهو ما يمكن تفسيره من خلال أكثر من عامل. العامل الأول هو تصاعد الطلب

الأوروبى على الحاصلات الزراعية المصرية، الأمر الذى نتج عنه ضرورة تواجد جماعة تجارية أوروبية، تربط تجاريًا بين التكوين الاجتماعى المصرى والتكوينات الرأسمالية الأوروبية. وهو ما يفسر ارتفاع عدد التجار الأوروبيين فى أعقاب التوسع فى زراعة القطن. ولقد ذكر القنصل الفرنسى أنه فى عام ١٨٢١، لم يوجد بالإسكندرية سوى تاجر أنجليزى واحد، وفى عام ١٨٢٤ ارتفع العدد إلى خمسة تجار، ثم أشار أن هناك أعداداً أخرى فى الطريق. والعامل الثانى هو بناء الدولة الحديثة، حيث قاموا بتزويدها بالجزء الأساسى من احتياجاتها من المصنوعات الأوروبية، معتمدين فى ذلك على صلاتهم الوثيقة بالأسواق الأوروبية وخبرتهم بها، مما أدى إلى تدعيم مواقعهم الطبقية. ويضاف إلى ذلك قيامهم بدور الهيئة الاستشارية لمحمد على، وفى هذا الإطار مارسوا تأثيراً على سياساته، بل تعدوا ذلك وساهموا فعلياً فى إدارة بعض مؤسسات الدولة، ومن المؤكد أن ذلك قد أدى إلى تدعيم موقعهم الطبقى الجديد. والعامل الثالث والأخير هو قيامهم بدعم وضع الباشا المالى، ومساعدته على تجاوز أزماته المالية، سواء عن طريق تقديم القروض المالية، أو دفع أسعار المحاصيل مقدماً، وهو ما انعكس بالضرورة على موقعهم الطبقى.

(أ) البرجوازية التجارية الأوروبية - العلاقة بالتكوين الاجتماعى» :

لقد أخذت البرجوازية الجديدة، فى الاندماج فى بنية التكوين الاجتماعى ومع هذا الاندماج بدأت عملية دمج التكوين الاجتماعى، فى بنية السوق الرأسمالى العالمى. إلا أن هذا الاندماج فى بنية التكوين الاجتماعى قد تم فى حدود معينة. ويرجع ذلك إلى حداثة تكوين الطبقة، وتواجد المشترك الأعلى كوسيط تجارى يقف بين البرجوازية التجارية والمشتركات الفلاحية، وفى النهاية تطور نمط الإنتاج الرأسمالى فى الصناعة فيما بين الإنتاج الرأسمالى فى الصناعة فيما بين ١٨١٦ - ١٨٤٠.

على المستوى الاقتصادى كان من الطبيعى أن يتركز نشاطهم الاقتصادى الأساسى، فى مجال التجارة وعلى وجه التحديد التجارة الخارجية. فلقد شكلوا القناة التجارية بين مصر والسوق الأوروبية، وذلك بالنسبة للجزء الأعظم من تجارة الصادرات الزراعية، وجزء كبير من تجارة الواردات. وعلاوة على ذلك امتلك عدد منهم مساحات كبيرة من أرض الأبعادية، وقاموا بزراعاتها باستخدام الفلاحين، كما شاركوا أيضًا فى نظام العهد.

وعلى المستوى السياسى كان هناك قدر من الاندماج فى البنية السياسية. فمن جانب أول استحوذوا على قدر كبير من الفائض الاقتصادى نتيجة لتعاملهم التجارى مع الباشا،

وبالتالى ارتبطت مصالحهم بمصالحه، مما أولد شعوراً بالولاء السياسى تجاهه، وحول ذلك يذكر كاميرون «ولقد نجح محمد على فى اكتساب ولائهم وتأييدهم، تمامًا كما لو كان أحد ملوك الأسر المالكة المسيحية العريقة التى وجدت قديمًا بالإسكندرية، وأنها الحقيقة أنه بفضل محمد على وفى ظل قوته، ازدهرت هذه الجالية الأوربية المميزة، وبالتالى كانت تخشاه وفجعت لسقوطه على يد بالمرستون، واعتبروا ذلك السقوط كارثة حلت بهم». ونفس المعنى نجده لدى المؤرخ جون مارلو، حيث يذكر «وعندما كان محمد على فى ذروه سلطانه، وقبل هزيمته وتقلص نفوذه فى ١٨٤٠ - ١٨٤١، كان التجار والموظفون الأوروبيون فى خدمة الوالى يعتبرون مصر بوجه عام وطنهم الثانى، ولا يفرقون بين مصالحهم ومصالح الباشا».
ومن جانب ثان شاركوا فى حدود معينة، فى مؤسسات الدولة. فلقد قاموا بدور هام فى توجيه حركة التجربة، وذلك انطلاقًا من وضعهم كمستشارين لمحمد على، وحول ذلك ذكر القنصل البريطاني كامبل «لم يكد زمام الأمور فى مصر يؤول إلى محمد على، حتى أدخل على نواحى الإدارة ضروبًا من التبديل والتعديل خطرت له من اختلاطه بالأوربيين كل يوم. فلقد بُصربمناح كانت إلى ذلك الحين خافية عليه، ذلك لأن القنصل السويدى بوكتى تحدث إليه في مشروعات تهدف إلى تخليص مصر من الاعتماد على الصناعة الأجنبية، فعهد إلى تنفيذها فوراً». كذلك ساهموا فى إدارة بعض المؤسسات الصناعية الحديثة، وشاركوا فى أعمال المجلس الصحى بالإسكندرية، وهو المجلس المكلف بتنظيم عملية مكافحة الأوبئة وإجراءات العزل الصحى. وفى النهاية شاركوا فى إدارة القضاء التجارى الحديث وذلك ابتداء من عام ١٨٢٦، وهى المشاركة التى قننتها لائحة «ترتيب مجالس التجار» الصادرة ١٨٤٥، والتى نصت على ضرورة عضوية ثلاثة منهم فى هيئة المحكمة.

وفيما يتعلق بالمستوى الاجتماعى، أخذت البرجوازية التجارية فى الاندماج فى البنية الاجتماعية. ولقد أورد الأستاذ جون مارلو تحليلاً جيداً لهذا الجانب، حيث يذكر أنهم تخلوا تدريجيًا عن عادات أسلافهم من التجار فى سكنى الأحياء الخاصة والمنعزلة واندمجوا فى الأحياء الوطنية. وعلاوة على ذلك اندماجهم المتزايد فى نمط الحياة الاجتماعية للطبقة الحاكمة الجديدة. وفى النهاية تبدل نمط تنظيمهم الداخلى حيث تخلوا عن طابع المجموعة التجارية المغلقة، والمنظمة فى إطار شركة تجارية وطنية أو تحت إشراف القناصل، وأوضحوا جماعية مفتوحة تمارس نشاطها التجارى بشكل حر ودونما وجود تنظيمات تجارية - اجتماعية ذات طابع إكراهى تنظم نشاطهم وعلاقاتهم.

٣ - «تكوين الطبقة الوسطى الجديدة» :

إن المستوى الثالث لتحولات البناء الطبقى، هو تكوين الطبقة الوسطى الجديدة. أخذت الطبقة الوسطى الحضرية القديمة أخذت فى التدهور، وذلك تبعًا للتحولات السياسية والاقتصادية، التى ألحقت أبلغ الأضرار بالتجار والمعلمين الحرفيين، والصف الأوسط من رجال المؤسسة الدينية. وبالتوازى مع ذلك نتج عن ذات التحولات، تكوين طبقة وسطى جديدة. ولقد تكونت الطبقة الوسطى الجديدة من عنصرين، الأتراك والمماليك من جانب. والمصريون من جانب آخر. وفيما بين هذين العنصرين وجد قدر من التناقص، انبثق من الاختلاف فى الثقافة والأصول العرقية والاجتماعية، وتدعم أكثر تبعًا لسياسة تفضيل الأتراك والمماليك التى أتبعها الباشا فى المرحلة الأولى من حكمه، والتى نتج عنها ترجيح وضعهم الطبقى من حيث العدد ودرجة الثراء. ولكن ابتداء من أواخر العشرينات بدأ هذا الوضع يتغير، وأخذ العنصر المصرى فى الهيمنة، ومقابل ذلك أخذ العنصر التركى - المملوكى فى التراجع، وكلما أو علنا فيما يلى ذلك التاريخ كلما اردادت هيمنة العنصر المصرى. ولقد كان ذلك موضعًا للاحظات المراقبين، فكتب أحد المهندسين الإنجليز «أما الغيرة والحسد فإنهما يوجدان بين التركى وابن العرب، وخاصة عندما عمد جنابه العالى ملء الوظائف الحكومية الصغرى بأفراد من العرب، ويخيل إلى أن محمد على لو ظل حاكمًا على مصر عشر سنوات أخرى، لشغل الوطنيون من أهل هذه البلاد أغلب المناصب المدنية». ولاحظ بورنج «وهكذا شرع العنصر المصرى يحل محل العنصر التركى رويدًا رويدًا.. وعهد إلى أبناء العرب وظائف ما كانوا يتطلعون إليها منذ جيل مضى. وسوف يقتصر التحليل القادم على العنصر المصرى، دونما العنصر التركى - المملوكى، وذلك تبعًا لما سبق ذكره بشأن هيمنته على بنية الطبقة الوسطى، ثم تبعًا لطبيعة المادة التاريخية المتوفرة. وفى إطار هذا التحديد تكونت الطبقة الوسطى الجديدة من قسمين، قسم بيروقراطى وآخر فلاحى.

(أ) «القسم البيروقراطى» :

١ - **«طبيعة البعد البيروقراطى»**. لقد نشأ القسم البيروقراطى بالارتباط بمؤسسات الدولة الحديثة المدنية والعسكرية، إلا أن ارتباطه بالمؤسسات المدنية كان هو الأغلب، وتبعًا لذلك تكون هذا القسم من جزئين بيروقراطية حضرية، وبيروقراطية عسكرية. وكانت الهيمنة للبيروقراطية الحضرية، وذلك تبعًا للتوازن الخاص بين عنصرى الطبقة الوسطى داخل

المؤسسة العسكرية، وهو توازن يختلف عن مثيله داخل المؤسسات المدنية، وهو ما سيتم توضيحه إبان التحليل. يجب أن تفهم بيروقراطية هذا القسم بعيدًا عن المعنى الحديث والضيق لمفهوم البيروقراطية، أي فى إطار المعنى الواسع المرتبط بخصوصية نمط الإنتاج الآسيوى من جانب، وخصوصية منهج الانتقال من جانب آخر. فلقد سبق القول إن الطبقة الحاكمة داخل بنية التكوين المصرى تاريخيًا كانت طبقة بيروقراطية، وذلك بمعنى تمفصل تكوينها جذريًا مع بنية جهاز الدولة، وبالتالى فإن البعد البيروقراطى لهذا القسم هو امتداد طبيعى للبعد البيروقراطى فى بنية الطبقة الجديدة. كذلك سبق القول أن عملية الانتقال جرت عبر توسط دور الدولة، وعبر التوسع المطرد فى وظائف ومؤسسات الدولة، وهو ما كان يعنى أن التحولات الناتجة عن عملية الانتقال، وذلك على مستوى البناء الاجتماعى، كان من الحتمى أن تتسم ببعد بيروقراطى مهيمن. وانطلاقًا مما سبق يمكن التحديد أن هذا القسم كان ذا طبيعة طبقية انتقالية، تمامًا كما أن الطبقة الجديدة كانت ذات طبيعة طبقية انتقالية، وبالتالى كان يمتلك وجهين، وجه آسيوى وآخر رأسمالى. وأن هذه السمة الانتقالية هى فى جوهرها بمثابة امتداد للسمة الانتقالية للطبقة الجديدة. إلا أنه يجب ملاحظة أن البعد البرجوازى داخل هذا القسم، كانت تتفاوت درجته من فئة إلى أخرى، وذلك تبعًا لعدة عوامل. أهمها مساهمة الربح بشكلية التجارى والرأسمالى، فى تكوين دخله وذلك بالمقارنة بمساهمة الريع العقارى، ودرجة الاندماج فى بنية نمط الإنتاج الرأسمالى وعلى الأخص فى الزراعة، وفى النهاية نمط توزيع الوظائف فى إطار تعدد الوظائف الطبقية للطبقة الجديدة.

٢ - **«القسم البيروقراطى - الجزء الحضرى»**. لقد سبق التحديد أنه بالنسبة لوزن العنصر المصرى فى تكوين القسم البيروقراطى، كان الجزء الحضرى هو الأساسى. وسوف نتعرض هنا للجزء الحضرى، وذلك من حيث عوامل تكوينه من جانب، والتكوين الداخلى من جانب آخر.

فيما يتعلق بعوامل التكوين والتطور، كان هناك أكثر من عامل، مع وجود تفاوت فى وزن كل عامل. إن العامل الأول والأساسى هو المشروع السياسى والتحولات التى نتجت عنه. فلكى يتم بناء الجيش الحديث ومؤسسات الدولة الحديثة، ولكى تتم التحولات الاقتصادية المستهدفة، كان لابد من تكوين جماعات من المهندسين، والأطباء، والصيادلة، والمدرسين، والإداريين، والمترجمين، والفنيين المتخصصين في العلوم الطبيعية، وغير ذلك من التخصصات. جماعات جديدة يتم تنشئتها على أساس المعارف والخبرات الأوربية الحديثة،

ومن خلال مؤسسات الدولة المعدة لهذا الغرض، ولقد مثلت هذه الجماعات صلب الجزء البيروقراطى الحضرى.

العامل الثاني هو تناقص عدد الوافدين إلى مصر من الأتراك كلما أوغلنا فى عصر محمد على، وهو ما نتج عنه ضعف قدرة العنصر التركى على إحلال عناصر تركية جديدة، محل العناصر التى تختفى لأى سبب من الأسباب، وبالتالى كان العنصر المصرى يشغل فى الأغلب المناصب الشاغرة من الأتراك، وقوى من ذلك اتجاه الباشا نحو تصعيد المصريين فى مناصب الجهاز الإدارى. وفى عام ١٨٣٨ لاحظ بورنج هذه الظاهرة، وخرج بنتيجة مضمونها «إذا ظلت الأمور تجرى على هذه السنن، فستنقطع هجرة الترك بعد سنوات قليلة انقطاعًا يكاد يكون تامًا، وتؤل مقاليد السلطة إلى الوطنيين وحدهم، مسلمين كانوا أو مسيحيين ».

العامل الثالث هو الاضمحلال التدريجى لدور الخبراء الأوربيين. فلقد سبق تحديد كيف يتم استجلاب مئات منهم إلى مصر، وكيف كانوا بمثابة جزء مؤقت من الطبقة الوسطى الجديدة، ولكن فى الثلاثينات سيضمحل دورهم إلى حد كبير وستقل أعدادهم تبعًا لذلك، وجاء ذلك تبعًا لسياسة الباشا الهادفة إلى إحلال، العناصر المصرية والتركية محل العناصر الأوربية، بمجرد تمكنهم من أداء وظائفهم بدرجة من الكفاية، ثم تصاعد هذا الاتجاه تبعًا لسياسة ضغط المصروفات الحكومية ابتداء من عام ١٨٣٧، التى أدت إلى الاستغناء عن خدمات عدد كبير من الأوروبيين، ونموذج ذلك ما حدث في عام ١٨٤١. ولقد كان ذلك يعنى أن تحل العناصر المصرية محل العناصر الأوروبية فورًا، خصوصًا أن ذلك توافق مع تطور سياسة تصعيد المصريين من جانب، وتناقص عدد الوافدين من الترك من جانب آخر.

العامل الرابع والأخير هو التحول فى نمط علاقة المصريين بمؤسسات الدولة التعليمية، أى المؤسسات التى مثلت أدوات تكوين البيروقراطية الجديدة. ففى السنوات الأولي كانت العلاقة علاقة عدائية، وكان الفلاحون يرفضون إرسال أبنائهم إلى المدارس مثلما يرفضون التجنيد، ولكن فى أعقاب ذلك حدث تحول جذرى، وأضحوا يقبلون على إرسال أبنائهم إلى المدارس، تدفع بعضهم الرغبة فى اندماج أبنائهم فى بنية الطبقة الجديدة. إنه إذن نوع من التطلع الطبقى نتج عن تصاعد التناقض الطبقى، وإفقار المشتركات الفلاحية من جانب، والامتيازات التى تمتعت بها البيروقراطية الجديدة من جانب آخر. إن سيرة على مبارك تقدم الدليل الساطع على ذلك، فلقد ولد لأسرة من أغنياء الفلاحين تدهور وضعها تبعًا لسياسات الباشا فى الفترة الأولى من حكمه، ثم التحق وهو صبى بخدمة أحد الكتبة، ولكنه يقرر تغير

مسار حياته والالتحاق بالمدارس الحديثة ضد رغبة أسرته، وكان ذلك في أعقاب رؤيته لشخص حبشي يعمل مأموراً لزراعة القطن بنواحي أبي كبير. إن الصبي على مبارك سيندهش لإمكانية أن يتولى شخص حبشي منصب مأمور، وبالتالي يذهب ليناقش والده «ولما سهرت مع والدي ليلاً جعلت كلامي معه في هذا المأمور فقلت له هذا المأمور ليس من الأتراك لأنه أسود، فأجابني بأنه يمكن أن يكون عبداً عتيقًا، فقلت هل يكون العبد حاكمًا مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكامًا فضلاً عن العبيد، فجعل هو يجيبني بأجوبة لا تقنعني، فيقول لعل السبب في ذلك مكارم أخلاقه ومعرفته فأقول وما معرفته، فيقول لعله جاور الأزهر فأقول وهل التعلم بالأزهر يؤدي إلى أن يكون الإنسان حاكمًا؟ ومتى خرج من الأزهر حاكم؟، فقال يا ولدي كلنا عبيد الله والله تعالى يرفع من يشاء، فأقول مسلم ولكن الأسباب لا بد منها، وجعل يعظني ويذكر لي حكم وأشعار لم أقنع بها.. وفي أثناء ذلك أصطحبت بفراش له فجعلت اتفحص منه أخبار سيده وأسباب ترقية وكنت أسترق منه ذلك استراقًا بحيث أحلل هذا الكلام بغيره، فأخبرني بأن سيده مشترى ست من الستات الكبار مرعيات الخواطر، أدخلته سيدته مدرسة القصر العيني لما فتح العزيز المدارس وأدخل فيها الولدان، وأخبرني أنهم يتعلمون فيها الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك، وأن الحكام إنما يؤخذون من المدارس، فحينئذ حاك بصدري أن أدخل المدارس وسألته هل يدخلها أحد من الفلاحين ؟».

ولقد تكون الجزء الحضري من القسم البيروقراطي من فئات متعددة، سنعرض فيما يلي لأهمها، مع عرض لبعض النماذج التاريخية. هناك - أولاً - المهندسون في مختلف المجالات، الري والزراعة والصناعة والتعدين والعمارة والمساحة والجيولوجيا والهندسة الحربية، ونموذج ذلك إبراهيم أفندي سالم الذي ولد بقرية البرادعة مركز قليوب، وفي ١٨٣٣ دخل مدرسة قليوب الابتدائية، ثم إلى القصر العيني التجهيزية، ثم دخل المهندسخانة عام ١٨٣٨، ثم تخرج منها؛ وفي ١٨٤٩ أصبح باش مهندس مديرية القليوبية برتبة يوزباشي، وعندما نصل إلى عهد إسماعيل كان قد أصبح عضواً في ديوان الأشغال. وهناك - ثانيًا - المدرسون في مدارس الباشا التجهيزية والعالية. ونموذج ذلك الدكتور محمد الشافعي، الذي تخرج من طب القصر العيني، وسافر في بعثة ١٨٣٢، وعاد ١٨٣٨ ليعمل مدرسًا بمدرسة الطب، وفي ١٨٤٥ أصبح وكيلا لها، ثم أصبح بمثابة مديرها الفعلي بعد استقالة مديرها الدكتور برون. وهناك - ثالثًا - رجال الإدارة أي - البيروقراطية بالمعنى الحديث. ونموذج ذلك حافظ باشا الذي ولد بقرية

بصـراط دقهليـة، وتخـرج ١٨٣٥ - ١٨٣٦ من مـدرسة المحاسبـة، ليـعمل كـاتبًـا فى بعض الدواوين، ثم عـمل بإدارة معـيـة إبراهيم باشـا بالـشام، ثـم ناظرًا لزراعـة أبنهس غـربيـة، ثم باشكاتب الخزينة السـر عسكرية، ثم مأمـور المصالح السنية بـالإسكندرية، وفي ١٨٥٧ يصبح وكيلاً للدائرة الإسماعيلية، وفى ١٨٦٥ - ١٨٦٦ يصبح ناظرًا للمالية برتبة روم ايللى. وهناك - رابعًا - المترجمون فى المدارس والمؤسسات الإدارية والسياسـية والثقافية، وعلى سبيل المثال محـمد عـثمـان جلال، الذى ولد بقـرية ونسا من بلاد البـهنسا، وفى ١٨٣٣ - ١٨٣٤ الـتحق بمدرسة القصـر العينى، ثم بالألسن، وفى ١٨٤٦ انتدب مـترجمًا بديوان الكورنتـينا، وفى عهد سعـيد عـمل مترجـمًا بمدرسة الـطب، وفى عهد اسـماعيل مارس ترجمـة الكتب على نطاق واسع. بالإضافـة إلى آخرين تخرجوا من الألسن، وتركـز نشاطهم فى الترجمـة داخل المدرسة وقلم التـرجمة، ونمـوذج ذلك محمـد مصطفى البياع، خـليفة أفـندى محمـود، عبـد الله أبو السعود، أحـمد بك عبيد، حسن أفندى الجبيلى، السيد عمـارة أفندى، منصور عزمى أفندى، حسن أفندى قاسم. وهنا - خـامسًا - الأطباء البشريون والبـيطـريون والصيادلة. ونموذج ذلك إبراهيم بك النبراوى الذى ولد بقـرية نبـروه، وقـدم إلى القاهرة والتحق بالأزهر، ومن الأزهر إلى مدرسـة الطب، ثم إلى فرنسـا، وعندما عـاد عين مدرسًـا بمدرسة الطب، ثم يصبـح طبيب البـاشـا الشخصى، وفـى النهاية - سادسًـا - الفنيون، ونموذج ذلك أحمـد أفندى يوسف الذى ولد بالقاهرة، ثم ساف ١٨٢٦ إلى فرنسا، وعاد ١٨٣٢ ليعين بمصلحة الضربخانة، وظل يترقى حتى أضحى مديرًا لها.

٣ - **«الجزء العسكرى من القسم البيروقراطى»**. لقد تكون هذا الجزء من المصريين الذين اندمجـوا في المدارس العسـكرية، وتخرجوا منهـا ضباطًا ثم ترقـوا فى سلك الرتب العسكرية. وهناك رأى شائع مضمونه أن المصريين لم يتخطوا صفوف الجند، وأن الضباط حصرا كانوا من الأتراك، وهذا خطأ والأصح الـقول أن الجـزء الأعـظم من الضـبـاط كـانوا من الأتراك، وإلى جوارهم وجـدت فئة صغـيرة من المصريين. ولقد وجـدت أهم قطاعات الضبـاط المصريين فى البحرية. فلقد أورد أمين سامى نصًا لأمر أصدره البـاشا عام ١٨٣٥ يقر فيه إمكانية ترقى جنود البحـرية إلى ضبـاط. ولقد ذكر جـابريل باير بالاعتـماد على الوثائق البريطـانية أنه فى ١٨٤٠ استبـدل عددًا من ضباط البحـرية الأتراك بعدد من ضباط البحـرية المصريين. كذلك أورد على مبـارك عدة تراجم لضـباط بحرية مـصريين. ويلى البـحرية سلاح الفـرسان. ففـى بداية إنشاء مـدرسـة الفـرسـان لم يكن يلتـحق بهـا سوى التـرك والممـاليك، ولكن ابتـداء من ١٨٣٣ بدأ

الطلاب المصريون فى الالتحاق بها، وتخرجوا منها ضباطًا فى سلاح الفرسان. وفى الأربعينات تواجد الضباط المصريون فى الأسلحة الأخرى، وهناك نماذج عديدة فى بعثة ١٨٤٤ التى درس طلابها فى مدارس فرنسا العسكرية العالية، وعادوا فى أواخر الأربعينات أى الفترة التى سيطر فيها إبراهيم باشا على السلطة. ونموذج ذلك حنفى هند الذى تخرج من مدرسة الطوبجية، وسافر فى بعثة ١٨٤٤، وهناك التحق بالمدرسة الحربية المصريين بباريس، وتخرج منها عام ١٨٤٦، ثم درس لمدة عامين فى مدرسة أركان الحرب الفرنسية، ثم درس لمدة عام فى الجيش الفرنسى، ثم عاد إلى مصر عام ١٨٤٩ حيث عين ضابطًا فى أركان حرب الجيش المصرى.

(ب) «القسم الفلاحى»:

١ - **«تكوين وانتقالية القسم الفلاحى»**. لقد تكون القسم الفلاحى من الطبقة الوسطى الجديدة، تبعًا لأطراد عملية تمايز الفلاحين من جانب وصعود مشايخ البلد فى مناصب الجهاز الإدارى الإقليمى من جانب آخر. و على ضوء طبيعة المادة التاريخية المتوفرة. يمكن القول أن القسم الفلاحى، قد تكون من صفوة أو كبار الفلاحين الأغنياء، الذين شغلوا وظائف الإدارة ومن بينها وظيفة شيخ البلد، وعلي وجه التحديد الذين شغلوا مناصب الإدارة الإقليمية وما يلى تلك الوظيفة.

ولقد كان القسم الفلاحى، تمامًا فى ذلك مثله مثل القسم البيروقراطى، وفي وضع تاريخى انتقالى. ويقصد بذلك أنه امتلك بعدين، بعد بيروقراطى وآخر رأسمالى، إلا أن البعد الرأسمالى وذلك فى الحيز الذى تطور فيه، كان هو البعد الأساسى. ولقد تواجد البعد أو الوجه الرأسمالى، فى طبيعة النشاط الاقتصادى لأغنياء الفلاحين، حيث أنهم قد استغلوا أراضيهم، أما من خلال استخدام العمل المأجور، أو من خلال الأشكال الرأسمالية الانتقالية. أما الوجه البيروقراطى فلقد تواجد، فى اندماجهم فى مؤسسات الدولة، سواء على مستوى الجهاز الإدارى للمشترك أو على مستوى الجهاز الإقليمى، وما ترتب على ذلك من امتيازات اقتصادية قانونية. ثم تواجد أيضًا فى توظيفهم لسلطاتهم الإدارية، من أجل دعم وضعهم الطبقى، وذلك من خلال عمليات نهب الفلاحين وتسخيرهم وسلبهم لأراضيهم، وأيضًا من خلال نهب الضرائب المستحقة للدولة ذاتها. والحال أن هذا الوضع الانتقالى نتج عنه وجود صلة عضوية وثيقة، بين القسم الفلاحى والآخر البيروقراطى. وهى الصلة التى

انبثقت من موقع كلاهمـا داخل مؤسسـات الدولة، ثم تدعمت مع ظهـور اتجاهين متـقابلين، ظهرا بكل وضوح فى الفتـرة التالية لحكم محمد على. الأول هو صـعود أبناء أغنياء الفلاحين فى مناصب الجـهاز الإدارى، وبالتالي اندمـاجهم فى بنيـة القسم البيـروقراطى. وبالتـالى اتجاه أعضـاء القسم البـيروقـراطى نحو تملك الأراض، وبالتـالى اندماجهـم الجزئى فى بنيـة أغنياء الفلاحين.

٢ - **«صعـود مشايخ البلد فى الجـهاز الإدارى»**. يستهـدف هذا العنصر معالجـة، عملية صعود مشـايخ البلد فى مؤسسات الإدارة الإقليمية، وذلك علـى أساس أن تلك الفئة هى التى شكلت قلب (أو الجـزء الرئيسى مـن) القسم الفـلاحى. وسيكون الـتحليل على مـستويين، الأول خـاص بمراحل وحدود عـملية الصعـود، والثانـى خاص ببـعض السـمات التـاريخيـة والاجتماعية لهم وذلك على ضوء البيانات التاريخية التى أوردها على مبارك.

قبل عام ١٨٣٣ شغلت العـناصر التركية والمملوكية، المناصب الإداريـة الإقليمية الأعلى من وظيفـة شيخ البلد. ولكن ابتداء من هذا الـعام، وتحت ضغط الرغبـة في رفع كفاءة الجـهاز الإدارى الإقليـمى، والقضـاد على الانحرافـات المالية للعناصـر التركـية، بدأت عـملية تعـيين مشايخ البلد فى وظيفة ناظر القسم، وإذا مـا وصلنا إلى نهاية الثلاثينات، نجد سانت جون وهو آحد المعاصرين، يذكر ان وظيفة ناظر القسم كان معظم شاغليها من المصريين. وفى عام ١٨٣٥ بدأت عـملية شـغل المصريين لوظيفة مـأمور المركز. إلا أن الأستاذ جابـريل باير، قد ذكر أن قلة منهم هى التى شغلت هذه الوظيفة، وذلك تبعًا لمراجعة البيانات التى أوردها على مبارك، حيث لاحظ أن معظم التراجم التى أوردها كانت لنظار أقسام، والقلة القليلة كانت لمآمير مركز.

وبالنظر إلى التراجـم التى أوردها على باشـا مبارك، يمكن تحديد بعض سمـات هذه الفئة الاجـتمـاعيـة، وأهم السمـات التى تبرزها هذه الـتراجم، وأيضًـا أكثـرها دلالة تاريخيـة، هى السمات الثلاثة التالية.

السمـة الأولى أنهم كانوا على درجة كبـيرة من الثراء. فعلى سـبيل المثال يذكر عـن عبد الرحمن أبو دومة من قرية أم دومة بقسم طهطها، والذى تولى منصب ناظر قسم لفترة : «وكان ذا ثروة زائدة، ويقتني الكثـير من أصناف الأنعام والخيل والعـبيد، حتى قـيل أنه كان إذا ركب يركـب خلفه نحـو ثلاثين عبدًا أكـثرهم متـعمم بالشـال الكشمـير وعليهم ثياب الجـوخ الثمين واسعـة الأكمام متـقلدين بالسيوف المحلاة علـى خيول جيـاد بسروج محلاة وركـابات مطلية

بالذهب».

والثانية أن جزء منهم مثل امتداد الشريحة أغنياء الفلاحين فى أواخر القرن الثامن عشر. وعلى سبيل المثال ذكر عن معوض أغا من قرية الجرنوس بالمنيا، والذى تولى منصب ناظر قسم : «وفى سنة ١٢٤٧ لما نزل المهندسون لمسح الأراضى وجدوا بحائط داره طول القصبة محزوزً بخط أفقى (...) وأخبرهم معوض أغا أنها من زمن أجداده جعلت لضبط المساحة وعدم خروج المساحين عن الحد الواجب بالزيادة أو النقص وذلك فى مدة الملتزمين».

والثالثة أن عدداً منهم سيستمر أولاذهم من بعدهم، فى الصعود فى مناصب الجهاز الإدارى. وعلى سبيل المثال ذكر عن أحمد أغا من قرية أشنواى بقسم الجعفرية بالغربية، والذى تولى منصب ناظر قسم طندتا [طنطا] : «ومن بعده ترقى من أولاده محمد بيك المنشاوى سنة ١٢٧٥ هـ بوظيفة ناظر قسم الجعفرية ثم إلى رتبة ميرآلاى وجعل وكيل مديرية الدقهلية ثم مديراً لتلك المديرية ثم بمديرية الشرقية، ثم صار من أعضاء مجلس الأحكام بمصر، وكذا ترقى أخوه بسيونى بك برتبة قائمقام ثم مفتش زراعات أيضًا».

٤ - « تكوين الطبقة العاملة » :

(أ) « الطبقة العاملة - التكوين » :

«التكوين والتحولات». إن المستوى الرابع لتحولات البناء الطبقى، هو تكوين الطبقة العاملة. ولقد تكونت الطبقة العاملة، تبعًا لتطور نمط الإنتاج الرأسمالى فى الزراعة والصناعة، فالطبقة العاملة، قد تكونت من قسمين الأول القسم الزراعى والثاني القسم الصناعى. ولقد تكون القسم الصناعى، بالارتباط مع تطور المشروع الصناعى بمختلف مستوياته، وكان من الطبيعى أن يتحلل تبعًا لتحلل المشروع. بينما تكون القسم الزراعى، بالارتباط بعملية تطور الزراعة الرأسمالية، التى بدأت بشكل عام وقوى فى أعقاب ١٨٣٧ . وهكذا ففى الوقت الذى كان القسم الصناعى فيه أخذاً فى التحلل، كان القسم الزراعى أخذاً فى التكون والتوسع، مشكلاً على عكس الأول بعداً ثابتًا لتحولات البناء الطبقى.

(ب) « القسم الصناعى من الطبقة العاملة » :

١ - **«القسم الصناعى - التكوين»**. لقد تكون القسم الصناعى من فئتين، وجدت بينهما اختلافات جوهرية. الفئة الأولى هى البروليتاريا الصناعية العاملة فى الصناعات التقليدية

الخاضعة لنظـام الاحتكار الصناعى، والفئة الثانية هى البروليتاريا الصناعية العاملة فى المصانع اليدوية والآلية الحـديثة. ولقد استمـرت الفئة الأولى تعمل، فى إطار ذات الوحدات الإنتـاجية القديمة، مستـخدمة ذات طرائق الإنتاج، وذلك بالرغم من اندماجها فى عـلاقات إنتاج جديدة. كمـا أن علاقـاتها بوسـائل الإنتاج، لم يتم فـصلها بالـكامل. فالحرفـى - البروليـتارى لا يزال حقوقيًا يمتلك أدوات الإنتاج، دغم أن ملكيته قـد أضحت محض حق مفترض، لا تترتب عليه أية نتائج فـعلية، على مـستوى عملية الإنتـاج. ونتج عن ذلك أنه على المستـوى الاجتـماعى، اتسمت هذه الفئـة بطابع التفتت والتبـعثر، أي لم تشكل كتلة طبقـية واحدة ومتجـانسـة، فلقد كانت عناصرها لا تزال مندمجـة في ذات البنية الاجتماعية القديمة، سـواء من حيث العلاقات أو من حيث أشكال الـتنظيم. ولكن بالنسبـة للفئة الثـانية كان الوضع علي عـكس ذلك، فلقد شكلت كـتلة طبقـية واحـدة متـجانسـة. وكان من الطبـيعى أن تنفـصل عن أشكال العـلاقات والتنظـيم القـديمـة، إلا أن تلك العمليـة لم تكتمـل أو كانت لا تزال فى بداياتهـا، وذلك تبعًـا لقصر الفترة الزمنية، والطابع الإكراهى لعلاقات الإنتاج، وتأثير التناقضات الطبقية.

٢ - **«القسم الصناعي - تقديرات عـدد العمال»**. إن التقديرات المتوفـرة بشأن عدد أفراد القسم الصناعى، لا تتسم بالتكامل ومتباينة، وكـلها ذات مصادر أوروبية، ولقد ذكر بورنج أنه فى عام ١٨٢٩ وجـد فى المصانع ٣١٠٠٠ عامل، بينما كان يعـمل ٤١٠٠٠ عامل فى تشيـيد المصانع الجـديدة. وأورد الدكتور على الجـريتلى بالاعتمـاد على كامبل، تقـديراً مقاربًا لتـقدير بورنج، حيث ذكر أنه فيما بين ١٨٣٠ - ١٨٣٥، عـمل فى المصانع حوالى ٣٠٠٠٠، بينما كان يعمل ٤٠٠٠٠ فى بناء المصانع الحديثة. وذكـر كروتشلى أنه فيما بين ١٨٣٠ - ١٨٤٠ تخطى عدد العـمال رقم الـ ٣٠٠٠٠، علاوة على ٥٠٠٠ بالترسـانة البحرية. وبالنظر إلى التـقديرات السابقة، يمكن الاستنتاج أنه فى الفتـرة التى وصل فيها المشروع الصناعى إلى أوج ازدهاره، لم يقل عـدد العـمال عن ٣٠٠٠٠ عـامل، وأنه فـعليًا قـد تراوح بين ٣٠٠٠٠ و ٣٥٠٠٠ عـامل. وذلك بافتراض أن عمال البناء، لا يشكلون جزءاً من الطبـقة العاملة الصناعية الحـديثة، وذلك لعـدم توافر أى معلومات بشأنهم. ولكن يجب ملاحظة أن التـقديرات السابقة، تعرضت فقط لعدد من عمال المصانع الحديثة، ولم تتعرض لعدد عمال الصناعات المحتكرة. وفى هذا الصدد لا توجد تقـديرات متكاملة، وإن الدكتـور مصصطفى فـهمى قد قـدر عدد عمـال غزل ونسج الكتان داخل المشتركات الفلاحيـة فقط، بحوالى ٦٠٠٠٠ عامل منهم ٣٠٠٠٠ امرأة تعمل فى غزل الكتان و ٣٠٠٠٠ رجل يعملون فى عملية النسج والتبييض.

٣ - «القسم الصناعى - مصادر التكوين». لقد جاء الأفراد المكونون للطبقة العاملة داخل المصانع الحديثة، من مصادر اجتماعية مختلفة. ولقد كان المصدر الأول هو الفلاحون، فمنهم جاء عدد كبير من أفراد الطبقة، ويدل على ذلك ملاحظات المراقبين المعاصرين، من أمثال بورنج وبيتسى وكامبل وصانع الجليزى. وبمراجعة ملاحظاتهم يمكن الاستنتاج، أنه كلما توغلنا بعيداً عن المراكز الحضرية الكبرى، وبالتحديد في الدلتا، كلما ازدادت نسبة العمال ذوى الأصول الفلاحية، وكان المصدر الثانى هو الحرفيون الممارسون ذات صناعات الدولة، وعمال الورش الحرفية الرأسمالية الصغيرة. وكمثال لذلك الأمر الذى أصدره محمد على، فى ١٠ يوليو ١٨٢٩ إلى خليل بك محافظ دمياط. وجاء فيه «أنه سابق تاريخه توجه إليكم أمر بخصوص الأنفار القلافطة المقتضى حضورهم من طرفكم احتياج أشغال السفاين بالإسكندرية فالآن عرض لسامعنا علم من علـى أفندى برهان ناظر تشغيل السفاين عن أصل الأنفار المطلوبين ومنها الوارد والباقى، أنه إلى الآن باقى بطرفكم أربعين نفر لم وردوا». والمصدر الثالث هو الصبية الصغار، الذين لم يندمجوا بعد أو بشكل نهائى فى مهن معينة. وهناك نماذج لدى الجبرتى، فلقد ذكر فى أواخر عام ١٨١٧ «جمعوا مشايخ الحارات والزموهم بجمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ليشتغلوا تحت أيدى الصناع ويتعلموا ويأخذوا أجرة ويرجعوا لأهاليهم أواخر النهار.. وربما أحتيج إلى نحو العشرة إلاف غلام بعد اتمامها، والمحتاج إليه فى الوقت الحاضر هذا القدر المذكور، وهى كرخانة عظيمة». والمصدر الرابع هو الأفراد العاملون فى المهن غير الصناعية وبالتحديد الخدمات، فقامت الدولة بفصلهم عنها ودمجهم فى المصانع. وكنموذج تاريخى أصدر الباشا أمراً إلى محافظ دمياط بـ «جمع مائة نفر من صبيان القهوجية والدخاخنية وتعليمهم فن النجارة في ترسانة دمياط كطلب شاكر أفندى ناظر الترسانة». والمصدر الخامس هو المتسولون والعبيد والمساجين. فجرى دمج المتسولين أكراهيا فى المصانع، ونفس الشئ بالنسبة للمساجين، ولاحظ بورنج وجود أطفال عبيد يعملون فى مصنع إبراهيم باشا للسكر. وكان المصدر السادس والأخير هو النساء. فلقد عملن فى مصنع الطرابيشى بفوه، وأورد بوالكمت «رأينا منهن نحو خمسين ومائة فى كل من مصانع دمياط والمنصورة».

التناقضات الداخلية وانعكاساتها على تجربة محمد على

لقد تناول القسم الأول من الدراسة دور التناقضات الخارجية التى أدت إلى تحلل السلطنة العثمانية وما تلاها من ظهور التراجعات التاريخية موضع التحليل. ويتناول هذا القسم دور التناقضات وسينقسم التحليل هنا إلى الجزئين الأساسيين التاليين :

١ - « تمهيد - مستويات التناقضات الداخلية » :

إن التناقضات الداخلية هى تلك التى انبثقت، من داخل بنية التكوين الاجتماعى والاقتصادى، وفى هذا الجزء المختصر ستحدد الدراسة، أهم هذه التناقضات ودورها فى خلق الظاهرة موضع التناول، لكى تخلص فى النهاية إلى المستوى الأكثر أهمية، والتى ستعرض له بالتحليل المفصل فى الجزى الثانى.

إن المستوى الأول للتناقضات الداخلية، هو التناقض بين الطبقة الحاكمة والطبقات المحكومة. فتصاعد عملية تعبئة الفائض الاقتصادى، والطابع الفوقى للتجربة، وسيادة العنف كأداة لتنفيذ برامج الدولة. كل ذلك قد نتج عنه تصعيد التناقضات الطبقية، وهذا بدوره نتج عنه ظهور أنماط متباينة من المقاومة الجماهيرية، تفاوتت درجاتها كما تفاوتت أشكالها. وهى المقاومة التى أثرت بدرجة ما، على درجة اندماج الطبقات الشعبية، فى مؤسسات المشروع السياسى.

إن المستوى الثانى للتناقضات الداخلية، هو التناقض داخل الطبقة الحاكمة بشأن الموقف من المشروع السياسى التحديثى. وتبعًا لهذا التناقض تواجدت فئة تركية محافظة، أو مجازًا «حزب تركى محافظ»، كان على رأسه عباس باشا. وكان هذا الحزب أو تلك الفئة، تتخذ موقفًا معارضًا لسياسات محمد على التحديثية، إلا أن وزنها المحدود وقوة السلطة المركزية، قد حد من تأثيرها إلى حد كبير وقصره على نوع من المقاومة السلبية والمقنعة.

والمستوى الثالث للتناقضات الداخلية، ه التناقض فيما بين مستويات المشروع السياسى. ويقصد بذلك أن حركة مستوى معين، تؤثر بالسلب على تطور مستوى آخر. ونموذج ذلك تأثير تصاعد عملية التجنيد، على قوة العمل الزراعى ومن ثم على حركة الإنتاج الزراعى. وأيضًا تأثير التوسع الخارجى، بما ترتب عليه من تصاعد هائل فى الاتفاق العسكرى، على برامج تطوير الزراعة والصناعة، وعلى سبيل المقال لا الحصر تنفيذ مشروع القناطر الخيرية.

إن المستوى الرابع والأخير، هو وجود تفـاوت في درجة التطور التاريخي، وذلك فيما بين بعض مستويات المشروع السياسى من جهـة، وبنية التكوين الاجتماعى والاقتصادى من جهة أخرى. إن المستويات الثلاثة الأولى، لم يترتب عـليها سوى تأثيرات هامشية أو ثانوية، تجاه التراجـعات التاريخية موضـع التحليل، وكانت حركة التـجربة قادرة فى الأغلب، على استيـعـاب وضبط تلك التـأثيرات. وعندمـا تصاعـدت درجة هذه التأثيـرات، ونموذج ذلك تأثيرات المسـتوى الثالث فـيما بين ١٨٣٠ - ١٨٤٠، كـانت النتيـجة من خلال التـفاعل مع عوامل أساسية أخرى، ليست هى ظهور تراجـعات تاريخية بل الانتقال إلى اشكال تاريخية أعلى، ونموذج ذلك حالة تطور الزراعة الرأسـمالية، ولكن الوضع بالنسبة للمـستوى الرابع يختلف، فلقد مـارس دورًا جـوهريًا فى تراجع البـرنامج الصناعى الحـديث. وتبعًـا لذلك سيقتصر التحليل علي المستوى الرابع، وهو ما سيتم فى الجزء التالى.

٢ - «المشروع السياسى - التكوين الاجتماعي : تفاوت التطور» :

(أ) «تفاوت التطور - تحليل» :

١ - **«تحديد التفاوت»** : لقد اتجه المشترك الأعلى صوب تنفيذ مشروع سياسى محدد، يتضمن إنشـاء مؤسسات دولة حديثـة، وتأسيس شبكة كاملة من الصناعات الحـديثة. ولقد ارتكز هذا التـوجـه، على عـملية الاسـتـعـارة والنقل المنظم، من التكوينات الاجـتـمـاعيـة الرأسمالية فى أوروبا. وهناك إذن سلطة سياسيـة داخل تكوين اجتماعى فى مرحلة تاريخية أدنى تقوم بتنفيذ مشروع سياسى بالارتكاز على، المنجزات التاريخية لتكوين اجتماعى أعلى من حيث درجة التطور التاريخي. والفارق هو الفـارق بين نمط الإنتاج الآسيوى، بما يحتويه من درجـة لتقـدم قوى الإنتـاج، ونمط معين لعـلاقات الإنتـاج يفرض نتـائج محـددة، ونمط الإنتاج الرأسـمالى بما يحتـويه من درجة لتـقدم قوى الإنتـاج، ونمط معين لعلاقـات الإنتاج يفـرض نتائج مـحددة، وتبعًـا لذلك ظهر تفـاوت تباينـت درجتـه من مسـتويات المشـروع السياسى من جهة، ومستويات تطور التكوين الاجتماعى من جهة أخرى.

والحـال أن هذا الوضع يناقض تمامًـا، منطق التطور والانتـقال في المناطق الأخـرى من العالم. ففى روسـيا بدأت عملية التـفاعل مع الغرب فى القرن الخـامس عشر، وتحت حكم

بطرس الأكبر انفتحت الأبواب تمامًا أمام المؤثرات الغربية. وفى منتصف القرن الثامن عشر، كانت الجامعات الروسية الجديدة، قد ظهرت فى سان بطر سبرج وموسكو، ورافق ذلك طور علمى ضخم. وفى اليابان حدث شيء مشابه، وذلك على عكس ما هو شائع عن عزلة اليابان، قبل مجيء القومندان بيرى فى ١٨٥٣. فعلى مدى القرنان السابقان على ذلك، كانت اليابان قد قطعت أشواطًا طويلة فى مجالات عديدة، وذلك تبعًا لمنطق تطورها الداخلى ذاته، ثم تبعًا لتفاعلها مع التطورات الأوروبية وعلى الأخص العلمية، من خلال المستعمرة الألمانية فى ديشيما.

٢ - **«مستويات التفاوت»** : من الضرورى الانتقال من التحليل العام السابق، إلى تحليل أكثر تحديدًا. من جانب أول لم تعرف مصر قبل محمد على، تلك التطورات الاقتصادية فى الصناعة والزراعة، والتى سبقت ومهدت لعملية الانتقال إلى الصناعة الرأسمالية الحديثة. والمقصود بذلك : الازدهار التجارى وما رافقه من تراكم رأسمالى، وتطور الصناعة اليدوية، وتحلل الاقتصادات ما قبل الرأسمالية. ومن جانب ثان لم تعرف مصر تلك التطورات العلمية والثقافية، التي سبقت ومهدت للثورة الصناعية فى أوروبا. بل على العكس كان الوضع فى القرن الثامن عشر، يعانى من حالة تدهور ثقافى وعلمي عام. ومن جانب ثالث لم تعرف مصر أيضًا، تلك التطورات الاجتماعية التى رافقت وعبرت عن التطورات الاقتصادية السابقة، أي تكوين وظهور الطبقات الجديدة، المعبرة عن نمط الإنتاج الرأسمالى، علاوة على المؤسسات الاجتماعية المرتبطة والمعبرة عن هذه التحولات الطبقية.

(ب) «تفاوت التطور - النتائج» :

١ - **«تمهيد»** : من المؤكد أن علاقة التفات السابقة التحديد، كان لابد لها أن تنعكس بدرجة متفاوته، على مجمل المشروع السياسى، ولكن ما يهمنا هنا هو تأثيرها على مجمل البرنامج الصناعى الحديث. ولقد سبق القول أن البرنامج الصناعى قد انهار، بعد ١٨٤٠ ومع انهيار المؤسسة العسكرية والحال أن هذا الحكم ينبغى أن ندخل عليه تحفظين : الأول أنه يتعلق بالصناعات المرتبطة بالجيش، على نحو مباشر أو على نحو غير مباشر ولكن قوى. والثانى أنه فى إطار تلك الصناعات الحربية ذاتها، كان أغلبها يعانى من حالة ضعف أو تعثر

عملية تحليل البرنامج الصناعى الحديث(1). وهو ما ستعرض الدراسة له بالتحليل فى العنصر التالى.

٢ - «التدهور الصناعى - تحديد» : فى إطار التحديد السابق ستتناول الدراسة، التدهور الصناعى المرتبط بعامل تفاوت التطور، فى العنصرين التاليين :

(أ) «تعثر الصناعة الحديثة» : يقصد بتعثر الصناعة الحديثة، تلك الأزمة العامة أو التدهور العام، الذى كان يسود داخل الكثير من المصانع قبل ١٨٣٧، والذى شكل مقدمات الإغلاق أو التنازل الإدارى عن المصانع من جانب السلطة. وذلك فى أعقاب ١٨٣٧. ولقد تحدث عن ذلك أغلب المراقبين المعاصرين، وعدد القنصل البريطانى كامبل مظاهر هذا التعثر، فذكر تعرض الآلات الدائم للتلف، إدارة غير كفئة وكثيرة العدد، نفقات طائلة ليس هناك ما يبررها، تخلف واضح فى الأساليب المحاسبية، سوء عمليات التخزين، سوء عملية التنظيم الإدارى عامة، الإسراف الشديد فى استخدام المواد الخام.

ولقد انتهى أغلب المراقبين أيضًا، إن ذلك قد نتج عنه فى النهاية ارتفاع مطرد فى تكلفة السلعة، بما يؤدى في النهاية إلى تحقيق خسائر، ويجعل عملية استيراد ذات المنتجات من الخارج أكثر ربحًا. وهو ما أشارت إليه الكثير من أوامر محمد على، حيث طالب فى بعضها بضرورة العمل من أجل أن «تدر المصانع على الميرى أرباحًا توجب بقاءها»، وإلا فإن القائمين عليها «يتسببون فى إلغاء هذه المصانع التى هى مصدر رزقهم وعيشهم».

(ب) «إغلاق والتخلى عن المصانع الحديثة» : إن حالة التعثر السابقة التحديد، وما نتج عنها من ارتفاع مطرد فى التكلفة، ومن خلال تفاعلها مع الأزمة المالية فيما بين ١٨٣٧ - ١٨٤٠، قد قادت فى النهاية إلى بدايات سياسة إغلاق والتخلى عن المصانع الحديثة. وسوف يتركز التحليل على مصانع غزل ونسج القطن، لإنهاء القطاع الصناعى الذى تتوفر بشأنه بيانات موثقة وكاملة. فيما بين ١٨٣٧ - ١٨٤٠ وتبعًا للعوامل السابق تحديدها، تخلت الدولة عن ملكية وإدارة ١٥ مصنعًا لغزل ونسج القطن. وذلك على أساس أن يقوم

---

(١) إن التحليل يتناول أساسًا الصناعات الحديثة ، ولكن ماذا عن مصير الصناعات التى خضعت لنظام الاحتكار التجارى؟ إن الصورة هنا غامضة قياسًا على وضع الصناعات الحديثة ، حتى عام ١٨٣٣ كان النظام كما هو ، وفى عام ١٨٣٥ أخذ فى الانهيار ، وفى عام ١٨٣٦ ألغى احتكار نسج الحرير ، وفى العام التالى ألغيت كافة احتكارات صناعات الغزل والنسج ، أى أن ١٨٣٧ هو العام الحاسم فى انهيار نظام السيطرة التجارية .

البعض بإدارتها، مقابل تسليم الإنتاج بسعر معين. وبعد ١٨٤٠ استمر محمد على فى ذات الاتجاه، وإن كان حتى ١٨٤٣ - ١٨٤٤ لا يزال يأمل ويحاول. إيجاد الحلول لمشاكل البقية من مصانع غزل ونسج القطن. ولكن فى إبريل ١٨٤٥ كانت ذات المشاكل القديمة قد تراكمت عليه، مما دفعه إلى التسليم بفشل برنامجه الصناعى نهائيًا، ومن ثم تخلى عن بعض المصانع وأغلق الآخر، حتى إذا كان عام ١٨٤٩، نجد أن ما تبقى من مصانع غزل ونسج القطن، هو مصنعان فقط لا غير، كان متوسط استهلاكهما ٥٠٠٠ - ٦٠٠٠ قنطار من القطن.

٣ - «دور تفاوت التطور» : ما هو على وجه التحديد دور تفاوت التطور، فى خلق حالة التدهور الصناعى كما سبق تحديد أبعادها ؟.. من المؤكد أن مختلف مستويات عملية التفاوت قد ساهمت فى ذلك، ولكن سيتم التركيز هنا على العاملين التاليين :

(أ) «ضعف كفاءة إدارة المصانع» : إن أغلب ملاحظات المراقبين المعاصرين، شددت على دور ضعف كفاءة إدارة المصانع الحديثة. أى بعبارة أخرى ضعف كفاءة المنظمين الصناعيين. أو الفئات الآسيوية البديلة للطبقة البرجوازية. والحال أن هذه الظاهرة ليست سوى، إحدى نتائج عملية تفاوت التطور موضع التناول. ذلك أن إدارة المصنع الآلى أو اليدوى الحديث، تفرض درجة مسبقة من التطور الاقتصادى، ومن ثم تبلور فئات طبقية معينة ذات ثقافة ومهارات معينة، وهو ما لم يكن موجودًا فى مصر فى تلك الفترة.

ولقد كان محمد على دائم الشكوى، من ضعف كفاءة إدارة المصانع، وها هو فى أحد أوامره يتحدث عن سبب تدهور المصانع، فيقول «والعلة فى ذلك رجالنا فإنهم لم يوفقوا إلى إنهاض المصانع، كما لم يوفقوا فى شىء ما حتى الآن». ولقد تجلى ذلك الضعف فى ظواهر عديدة، كلها تشير إلى أن مأزق مصانع الباشا، كان هو وجود مؤسسة رأسمالية بدون طبقة وإدارةرأسمالية متطورة. وأهم تلك الظواهر : ضعف عملية التنظيم والإدارة عامة، السلبية الشديدة من جانب المديرين، سوء توزيع العمل بين العمال، عدم الإلمام بالأساليب المحاسبية الدقيقة الخاصة بالمنشأة الرأسمالية، الإسراف الشديد فى استخدام المواد الخام، خفض التكلفة على حساب الجودة، وفى النهاية عدم التنسيق مع الإدارة المركزية للمصانع.

(ب) «ضعف تطور الطبقة العاملة» : فى مقابل ضعف الإدارة الرأسمالية، كانت الطبقة العاملة الجديدة بدورها ضعيفة التطور. ولقد سبق تحديد مصادر تكوين الطبقة العاملة، وكيف

ساهم الفلاحون فى تكوينها، علاوة على مصادر أخرى ليست ذات خبرة سابقة بالعمل الصناعى. ولقد قام المشترك الأعلى بدمج هذه الفئات داخل مؤسسات صناعية، تحتوى على أدوات عمل بالغة التقدم، ودونما أن يمر هؤلاء بالمراحل التمهيدية السابقة على ذلك، بما كان سيترتب على ذلك من تراكم منظم فى المعارف والمهارات. وبالتأكيد كان فى المدن المصرية، طبقة عاملة على درجة محدودة من المهارة، وطبقة أخرى من الحرفيين المهرة، إلا أنها المهارة التى تتفق ومستوى أقل تطوراً لأدوات العمل وبالتالى تظل هذه الفئات بدورها قاصرة عن التعامل الكفء مع الآلة الحديثة، رغم أنها بالتأكيد كانت أقدر من الفئات الأخرى على التعامل مع الآله. وحاصل ذلك ظهور قدر من التفاوت، بين الطبقة العاملة بما تمتلكه من خبرات ومهارات ومعارف متراكمة، وأدوات العمل الحديثة بما تفترضه بدورها من خبرات ومهارات متراكمة لدى العامل الذى يتعامل معها.

إن مراجعة وثائق هذه الفترة وتقارير المراقبين، توضح بجلاء الحقيقة السابق تحديدها. فلقد كان هناك نقص فى العمال اللازمين لتركيب الآلات الحديثة. ونقص فى العمال اللازمين لإدارة آلات - معينة، ونموذج ذلك آلات نسج الحرير. وكانت بعض المصانع يتأخر بدء العمل فيها سنوات، بسبب وجود هذا النقص فى الكادر الفنى. وعلاوة على ذلك كانت هناك ظاهرة عدم كفاءة العمال العاملين على الآلات الحديثة. وحول ذلك كتب بورنج «والعمال ليس لهم بالعمل أى دراية، وليس للرؤساء من المعرفة ما يعوض جهل المرؤوسين». وأضاف فى مكان آخر : «أنه لعبث أن نتوقع أن تلقى آلات أبدعتها صناعة راقية متقدمة، أفراداً من الفلاحين المصريين يصلحون لإدارتها والإشراف عليها». وفى النهاية كان هناك نقص فادح فى عدد العمال اللازمين لإصلاح الآلات*.

---

* هذا التقديم مستمد من رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة القاهرة - كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ١٩٨٤ تحت عنوان « مصر فى عهد محمد على ١٨٠٥ - ١٨٤٩ للباحث محمد صلاح السعيد أبو نار » . وهو دليل موجز ـ للغاية، لا يغنى عن قراءة الرسالة ذاتها التى تصف تطورات مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى ظل فترة حكم محمد على، والتى تتجاوز هذا الجزء الأخير من حولية الجبرتى التى توقفت عند عام ١٢٣٦ هـ = ١٨٢١ م؛ أى قبل تدهور سلطة محمد على عام ١٨٤٠م. بمقتضى معاهدة لندن.


حروب الوهابية بين نجد والحجاز

محرم الحرام ابتدا سنة ألف ومايتين وسبعة عشر هجرية [١٨٠٢م]

استهل بيوم الاتنين، فيه تواترت الأخبار بحصول الصلح العمومى بين القرانات جميعا ورفع الحروب فيما بينهم.

وفيه ترادفت الأخبار بأمر عبد الوهاب* وظهور شأنه من مدة تلات سنوات من ناحية نجد، ودخل فى عقيدته قبايل من العرب كثيرة وبث دعاته فى أقاليم الأرض ويزعم أنه يدعو إلى كتاب الله سبحانه

١٢١٧ هـ
١٥١٨ ق
١٨٠٢ م

□ فى ١٦ محرم/ ٢٠ مايو. تأسيس النيشان الفرنساوى المسمى ليجوندونور.

□ فى ٢٣ صفر/ ٢٦ يونيو. معاهدة صلح باريس بين الباب العالى وفرانسا.

□ فى ٢ ربيع ثان/ ٣ اغسطس. ترقية بونابرطة إلى درجة قنصل اول مدة حياته.

□ وفاء النيل كان فى ١١ اغسطس/ ٦ مسرى.

□ ١ توت ١٥١٩ = ١٠ سبتمبر ١٢ جماد أول سنة ١٢١٧.

□ فى رجب/ اكتوبر صدرت اوامر بعمل تسعيرة للمبيوعات وأن يكون الرطل ١٢ أوقية فى جميع الأوزان، وابطلوا الريال الزياتى الذى كان ١٤ أوقية.

□ ١ يناير سنة ١٨٠٣ = ٢٤ كهيك ١٥١٩ = السبت ٧ رمضان سنة ١٢١٧.

□ فى ٧ ذى القعدة/ ٢ فبراير. رفضت الإنكليز رد جزيرة مالطة إلى كافليترة بيت المقدس.

* اخبار الدعوة الوهابية، هذه أول إشارة لها عند الجبرتى، وقد كان الموهب سعود بن عبد العزيز كبير الوهابيين: هو الزعيم السياسى للوهابية،

وتعالى وسنة رسوله ويأمر بترك البدع التى ارتكبها الناس ومشوا عليها إلى غير ذلك.

وفيه سافر عثمان كتخدا الدولة إلى الديار الرومية [الاستانة]، ونزل إلى بولاق، وضربوا له عدة مدافع وأخذ صحبته الخزينة، وسافر معه مختار أفندى ابن شريف أفندى دفتر دار مصر.

وفى هذه الأيام حصلت أمطار متتابعه وغيام ورعود وبروق عنده أيام وذلك فى أواسط نيسان الرومى [ابريل].

وفى ذلك اليوم نبهوا على الوجاقات والعسكر بالحضور من الغد إلى الديوان لقبض الجامكية فلما كان فى صبحها يوم التلات نصبوا صيوان كبير ببركة الأزبكيه وحضر العساكر والوجاقلية بترتيبهم، ونزل الباشا [محمد] بموكبه إلى ذلك الصيوان وهو لابس على رأسه الطلخان والقفطان الأطلس وهو شعاير الوزاره ورصوا الأكياس وخطفوها على العاده القديمه فكان وقتا مشهودا.

وفى يوم التلات تاسعه حضر كبير الانكليز من السكندريه ونصبوا وطاقهم ببر إنبابه فلما كان يوم الأربع يوم عاشورا عَدَّى [النيل] كبير الإنكليز ومعه عدة من أكابرهم فتهيا لملاقاته الباشا واصطفت العساكر عند بيت الباشا.

كانت الجزيرة العربية [وقلبها على وجه الخصوص حيث ظهرت الدعوة الوهابية] اكثر اقسام المنطقة تأخرا فقد ظلت على علاقاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية السابقة للبعثة المحمدية، فبقيت تربية الإبل والماشية لدى القبائل البدوية وزراعة الشعير والذرة قرب الواحات النادرة، والمحدودة المساحة، القاعدة الاقتصادية لهذه القبائل، وهكذا لم تتمكن الجزيرة العربية رغم اتساعها الشديد من تأمين المتطلبات المعيشية لسكانها فى معظم الأحيان، بل وتعرضت لما يسمى "ازمات الرعى" الناتجة عن تذبذب كمية المطر النادرة فى سقوطها والتى نادراً ما تسقط، وبالتالى حدوث المجاعات التى كانت تنشأ فى مواسم الجفاف وهجرة القبائل بأعداد وفيرة إلى أطراف الجزيرة والبلدان المحيطة بها فى شكل عمليات سلب ونهب من أجل سد غائلة الجوع.

ولقد كان فى وصول قافلة الغلال المصرية السنوية التى كانت تصل إلى الحجاز تحت اسم (غلال الحرمين) منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب تأميناً لبعضها من غائلة

ووصل الانكليز إلى الازبكية وطلعوا إلى عند الباشا وقابلوه، فاخلع عليهم وقدم لهم خيلا وهدية ثم نزلوا وركبوا ورجعوا إلى وطاقهم، وعند ركوبهم ضربوا لهم عدة مدافع فلم يعجب الباشا ضربها فأمر بحبس الطبجية لكونهم لم يضربوها على نسق واحد.

الجبرتي/ سنة ١٢١٧

الجوع فى هذه المناطق ولكن عدم السماح بوصولها إلى باقى القبائل البدوية بل والمتاجرة فيها جعل هذه القبائل تنظر إلى أهل الحرمين والحجاز نظرة الكره، ولعل أوضح مثال على ذلك أن الوهابيين عندما استولوا على الحجاز منعوا الحجاج المصريين من الوصول إلى الكعبة ولكن لم يمتنعوا عن أخذ الغلال الواردة معهم، فقد كانت هذه الغلال أحد أسباب سعى الوهابية للاستيلاء على الحجاز.

وفى أوائل القرن الثامن عشر، لم يكن فى الجزيرة العربيةتنظيم دولة موحدة، وكان سكانها مازالوا يعيشون الحياة القبلية، ويشنون بعضهم على بعض حروبا دموية طاحنة متواصلة بسبب المراعى وقطعان الماشية والمياه، وكذلك للحصول على العبيد. ولقد ساعدت هذه الحروب الطاحنة بين القبائل البدوية فى الجزيرة العربية على إضعافها، وسيطرة القوى الأجنبية عليها، فدخلها الأتراك فى القرن السادس عشر بدون مقاومة تذكر وإنشاء الإنجليز والهولنديون والبرتغاليون قواعد لهم على السواحل الشرقية للجزيرة العربية، وفى القرن الثامن عشر استولى الفرس "إيران



بدو الجزيرة العربية

▲ خاتم الموهب مسعود

◀ الموهب مسعود

الحالية" على الاحساء وعمان وجزر البحرين.
في هذه الظروف ظهرت الدعوة الوهابية، أولا بشكل ديني بحت على يد مؤسسها محمد بن عبد الوهاب (وهو من قبيلة تميم النجدية ولد بها في عام ١٧٠٣م بناحية العينية) داعياً إلى الإسلام ونبذ بقايا الحياة الدينية السابقة للإسلام، فقد كانت هناك أشكالا دينية متنوعة وكثيرة باقية في الجزيرة العربية سابقة للإسلام فرضها المستوى البدائي للتطور الاجتماعي، وتفتت قبائل الجزيرة، وكان كل هذا يمثل عائقا هاما في طريق الوحدة السياسية يذكرنا بالعوائق التي واجهتها الدعوة المحمدية عند قيامها بتوحيد قبائل الجزيرة في ظل الإسلام، وهكذا واجه محمد بن عبد الوهاب تعدد الأشكال الدينية بمذهب وحيد هو التوحيد. وفي الظاهر أنه لم يستنبط عقائد جديدة، إلا أنه كان يسعى فقط إلى بعث الدين الإسلامي.
ولقد تسلم الدعوة منه سعود بن عبد العزيز حاكم الدرعية.

وفيه وردت الأخبار بأن الانكليز أخلوا القلاع باسكندريه وسلموها لأحمد بك خورشيد، وذلك يوم الاتنين تامنه، وأبطلوا الكرنتيلة أيضا، وحصل الفرج للناس وانطلق سبيل المسافرين برا وبحرا، وأخذ الباشا في الاهتمام بتشهيل الانكليز المسافرين إلى السويس والقصير وفيما يحتاجون إليه من الجمال والأدوات والطلب والجمال والعليق وجميع ما يلزم، ولما حضر الانكليز إلى عند الباشا فدعوه إلى الحضور عندهم فوعدهم على يوم الجمعه.

فلما كان يوم الجمعه تالت عشره ركب الباشا [محمد] وصحبته طاهر باشا في نحو الخمسين، وعدى إلى الجيزه بعد الظهر، فلما طلع إلى البر وقفت عساكر الانكليز صفوفا رجالا وركبانا وبأيديهم البنادق والسيوف، وأظهروا زينتهم وأبهتهم، وذلك عندهم من التعظيم للقادم، فنزل الباشا ودخل القصر فوجدهم كذلك صفوفاً بدهليز القصر ومحل الجلوس، فجلس عندهم ساعه زمانيه وأهدوا له هدايا وتقادم.

وعند قيامه ورجوعه ضربوا له عدة مدافع على قدر ما ضرب لهم هو عند حضورهم إليه، فلقد أخبرني بعض خواصهم أن الباشا ضرب لهم سبعة عشر مدفعا، ولقد عددت ما ضربه الانكليز للباشا فكان كذلك.

وأخبرني حسين بك وكيل قبطان باشا وكان بصحبة الباشا عند ذهابه إلى الانكليز قال: كنا في نحو

الجبرتي/ سنة ١٢١٧

الخمسين، والإنكليز فى نحو الخمسة آلاف، فلو قبضوا علينا فى ذلك الوقت لملكوا الإقليم من غير ممانع، فسبحان المنجى من المهالك.

وإذا تأمل العاقل فى هذه القضيه يرى فيها أعظم الاعتبارات والكرامه لدين الإسلام* حيث سخر الطايفه الذين هم أعدا للملة هذه [أى الإنجليز] لدفع تلك الطايفة[أى الفرنساوية] ومساعدة المسلمين عليهم، وذلك مصداق الحديث الشريف وقوله صلى الله عليه وسلم "إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر" فسبحان القادر الفعال.

* رؤية الجبرتى الدينية للتاريخ.

واستمرت طايفه كبيره باسكندرية من الانكليز حتى يريد الله.

وفى ذلك اليوم سافرت [الملاقاه]* لملاقاة الحجاج بالوش.

* الملاقاه: عدد من الجنود يرسل لاستقبال الحجاج ويصحبهم حتى دخول القاهرة.

وفيه وصلت مكاتبات من أهل القدس ويافا والخليل يشكون ظلم محمد باشا أبى مرق، وأنه أحدث عليهم مظالم وتفاريد* ويستغيثون برجال الدولة، وكذلك أعرضوا أمرهم لأحمد باشا الجزار، وحضر الكثير من أهل غزه ويافا والخليل والرمله هروباً من المذكور.

* تفاريد جمع فردة. وهو مال يجمع بدون وجه حق.

وفى ضمن المكاتبات أنه حفر قبور المسلمين والأشراف والشهدا بيافا ثم رمى عظامهم وشرع يبنى فى تلك الجبانه سورا يتحصن به، وأذن للنصارى ببنا دير

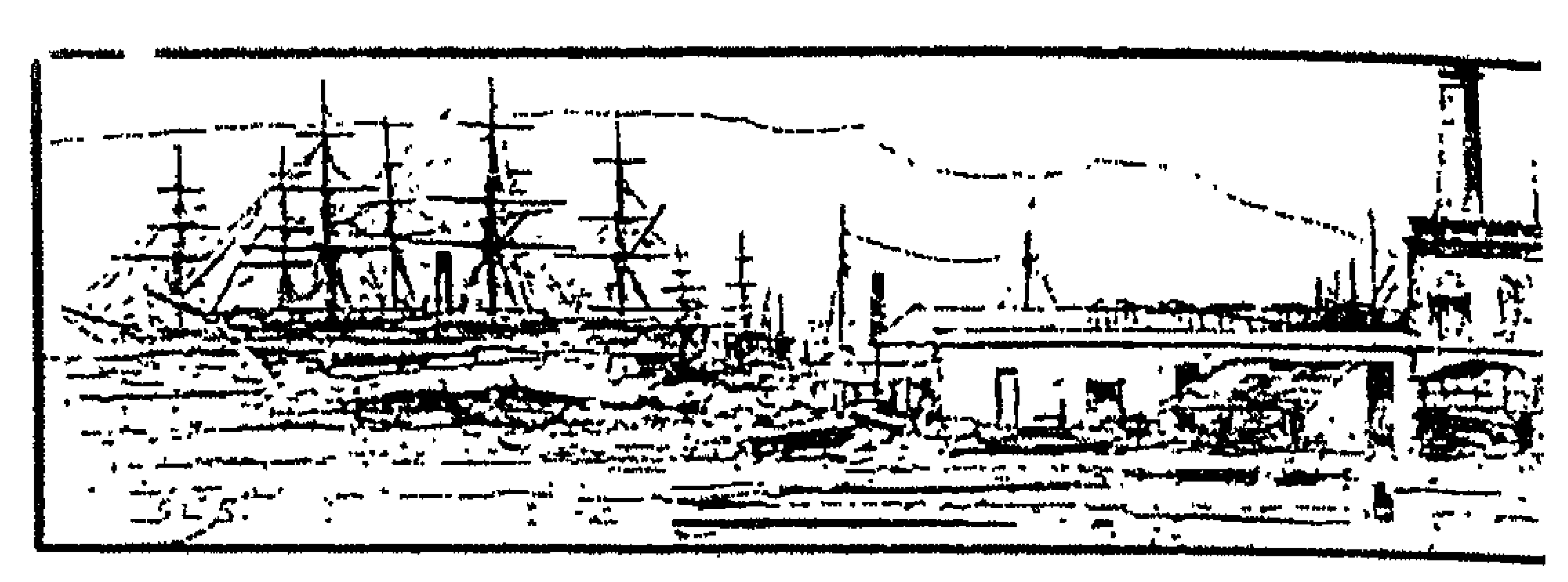
عظيم لهم ومكنهم أيضا من مغارة السيدة مريم بالقدس، وأخذ منهم مالا عظيما على ذلك، وفعل من أمثال هذه الفعال أشيا كثيرة.

وفيه حضر جماعة من العسكر القبالى وصحبتهم أربعة روس من المصرليه، وفيهم راس على كاشف أبى دياب، وتواترت الأخبار بوقوع معركة بين العثمانيه والمصرليه وكانت الغلبه على العثمانيه وقتل منهم الكثير وذلك عند أرمنت. ورأس عصبة المصرليه الألفى وصحبته طايفة من الفرنسيس*، وتجمع عليهم عدة من عكسر الفرنساويه والعثمانيه طمعاً فى بذلهم، وأن عثمان بك الحسنى انفرد عنهم، وأرسل يطلب أمانا ليحضر فأرسلوا له أمانا فحضر عند حسن باشا والى دجرجا واخلع عليه فروة سمور وقدم له خيلا وهديه.

وفيه ورد الخبر بموت محمد باشا توسون [والى] جده، وكذلك خازندارد.

وفى يوم السبت رابع عشره شرع الانكليز المتوجهون إلى جهة السويس فى التعديه البر الشرقى [من النيل] ونصبوا وطاقهم عند جزيرة بدران وبعضهم جهة العادليه، وذهبت طايفة منهم إلى جهة البر الغربى متوجهين إلى القصير، واستمروا يعدون عدة أيام ويحضر أكابرهم عند الباشا، فيضربون لهم مدافع حال ركوبهم إلى أماكنهم اكراما لهم.

* مرتزقة فرنساوية وعثمانية فى القوات المملوكية، انظر جـ ٤ ص ٨٥٠. الهامش الذى يذكر الجنود الفرنساوية الفارين من الحملة الفرنسية خاصة الكابتن "كومب" الذى عمل بعد ذلك مع محمد على باشا وعُرف باسم اليوزباشى "سليم" وذلك عن طريق زميل آخر اسمه "دورو" المعروف باسم "عبد الله الدورى". ومنذ هذه الأحداث الواردة فى المتن سوف يغلب على الصراعات السياسية لفترة من الزمن تزيد عن الست سنوات تنافس القوات المملوكية مع القوات العثمانية واشتداد تضرر الأهالى من الطرفين دون أن يجدوا لهم مفر، ذلك أن الجماهير المصرية (الأهالى) التى لم تكن قد اكتمل نموها كطبقة مستقلة، كانت عرضة لفوضى الميول والأهواء التى كانت تحفل بها تقاليد العصر ورواسبه ونزواته. والتى يحتل فيها التصور الدينى مكان



ميناء السويس

وفى يوم الاتنين تانى عشرينه عدا حسين بك وكيل القبطان إلى الجيزه وتسلمها من الانكليز وأقام بها وسكن بالقصر.

وفى خامس عشرينه وصل إلى ساحل بولاق أغا، وعلى يده مثالات وأوامر. وحضر أيضاً عساكر روميه فأرسلوا عدة منهم إلى الجيزه، فركب ذلك الأغا فى موكب من بولاق إلى بيت الباشا فاخلع عليه وقدم له تقدمه وضربوا له عدة مدافع.

وفيه حضر ططرى من ناحية قبلى بالأخبار بما حصل بين العثمانيه والمصرليه وطلب جبخانه ولوازم.

وفيه وصلت الأخبار بأن أحمد* باشا [الجزار] أرسل عسكرا إلى أبو مرق من البر والبحر فأحاطوا بيافا وقطعوا عنها الجالب واستمروا على حصاره.

وفيه اتخذ الباشا [محمد] عسكراً من طايفة التكرور* الذين يأتون إلى مصر بقصد الحج فاعرضهم واختار منهم جملة وطلبوا الخياطين ففصلوا لهم قناطيش* قصار من جوخ أحمر وألبسه فى

الصدارة، ولذا كان الشعار الدينى هو الشعار الآخذ بعفوية الجماهير المعطلة عن التفكير، وقبولها ورفضها يستندان إلى الطاعة الإيحائية التى تستولى على مجمل كيانها المفرغ من الإدراك العقلانى المنظم، وهى لا تجد تناقضاً فى انتقالها من إيحاء إلى إيحاء مضاد، وهى بذلك تمثل عاملاً هاماً من عوامل المحافظة والركود. وهكذا فإنه يكون من المستحيل أن يندفع جمهوراً فاقداً لأى تكوين بنائى إلى أن يلتمس لنفسه شكلاً من اشكال التنظيم، ولذا كانت الظاهرة البارزة فى هذه الفترة تشوق غالبية الجماهير إلى أن يقودها زعيم وتلهفها إلى طاعة السلطة الموروثة القائمة.

* محاصرة الجزار لأبو مرق فى يافا.

* الباشا يكون فرقة عسكرية من التكرور.

* قناطيش: مفردها قنطش وهى الصديرية الضيقة.

الجبرتى/ سنة ١٢١٧

وسطهم من جوخ أزرق وصدريات وجميعها ضيقة مقمطة مثل ملابس الفرنسيس، وعلى روسهم طراطير حمر وأعطوهم سلاحا وبنادق وأسكنوهم بقلعة الجامع الظاهرى خارج الحسينيه، وجعلوا عليهم كبيرا يركب فرساً ويلبس فروة سمور.



جندى مشاة من النظام الجديد

وجمع الباشا أيضاً العبيد والسود، وأخذهم من أسيادهم بالقهر وجعلهم طايفه مستقله، وألبسهم شبه ما تقدم، وأركبهم خيلا وجعلهم فرقتين صغارا وكبارا واختارهم للركوب إذا خرج إلى الخلا وعليهم كبير يعلمهم هيئة اصطفاف الفرنسيس، وكيفية أوضاعهم والإشارات بمرش واردبوش.

وكذلك طلب المماليك وغصب ما وجده منهم من أسيادهم واختص بهم، وألبسهم شبه لبس المماليك المصرليه وعمايم شبه عمايم البحرية الاروام ويلكات وشراويل وأدخل فيهم ما وجده من مرادن الفرنسيس، وجعل لهم كبيراً أيضاً من الفرنسيس* يعلمهم الكر والفر والرمى بالبنادق؛ وفى بعض الأحيان يلبسون زرديات وخوذ وبأيديهم السيوف المسلولة وسموا ذلك كله "النظام الجديد".

* هو الكابتن كومب الذى عرف باسم الكابتن سليم. الهارب من الحملة الفرنسية. انظر جـ ٤ ص ٨٥٠.

واستهل شهر صفر الخير بيوم الأربع [سنة ١٢١٧]

فى ثانيه وصل سعيد أغا وكيل دار السعاده، وهو

فحل أسمر فحضر عند الباشا فقابله وخلع عليه وقدم له تقدمه، وضربوا له عدة مدافع أيضاً.

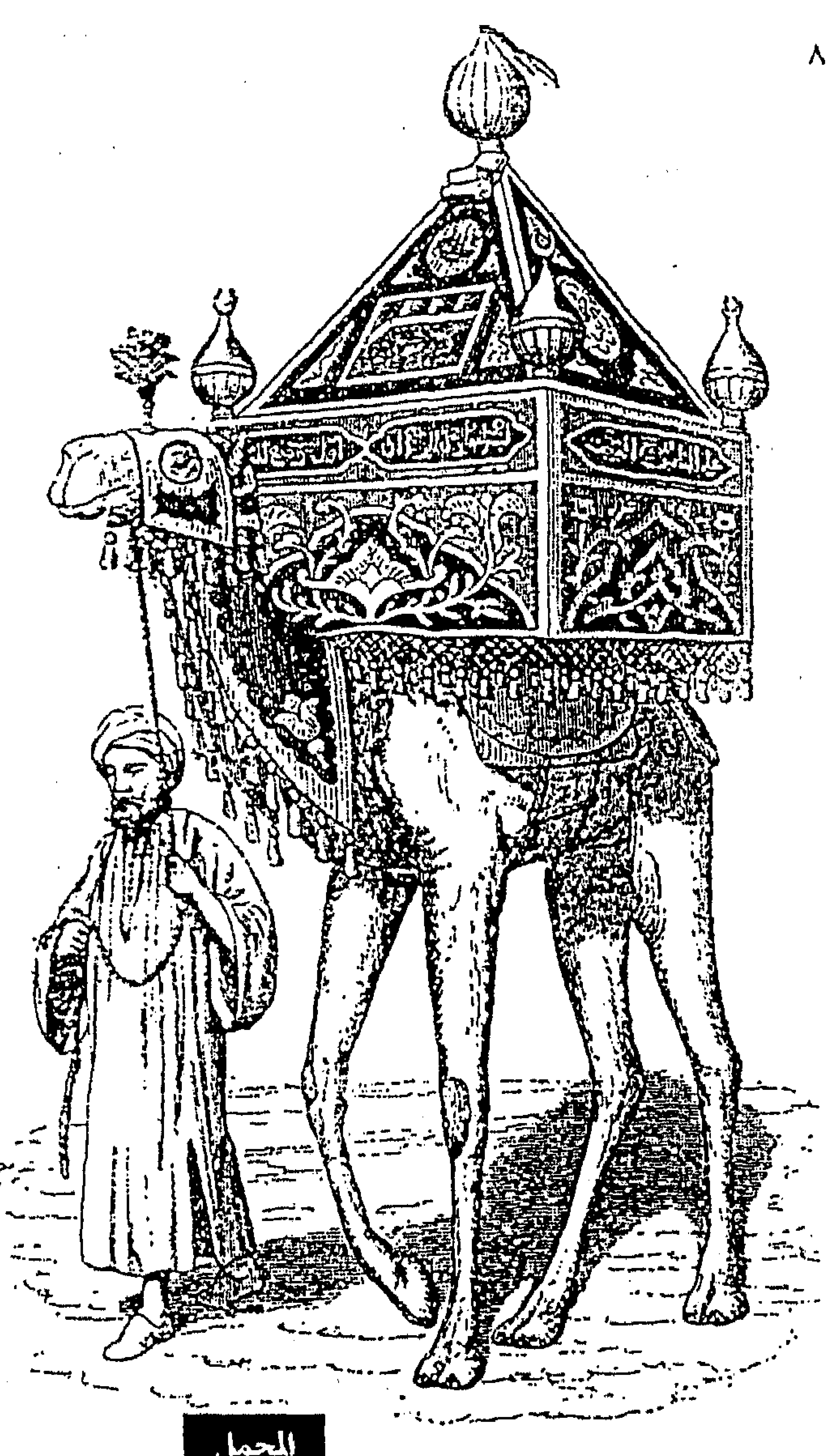
وفى يوم الخميس تاسعه عمل الباشا ديوانا وحضر القاضى والعلما والأعيان وقروا خطا شريفا حضر بصحبة وكيل دار السعادة المذكور مضمونه انه ناظر أوقاف الحرمين ووكليها.

* الباشا يصادر أملاك ثلاثة من النصارى ويقتلهم.

وفى يوم الاتنين ثالث عشره قتل* الباشا [محمد] ثلاثة أشخاص من النصارى المشاهير وهم: ألطون [أنطون] أبو طاقية، وإبراهيم زيدان، وبركات معلم الديوان سابقا، قتلوهم فى طريق الازبكية ولم يعلم سبب ذلك، وفى الحال أرسل الدفتر دار فختم على دورهم وأملاكهم وشرعوا فى نقل ذلك إلى بيت الدفتر دار على الجمال ليباع فى المزاد، فبدوا بإحضار تركة ألطون أبى طاقية فوجد له موجود كثير من ثياب وأمتعة ومصاغ وجواهر وغيرها وجوارى سود وحبوش وساعات، واستمر سوق المزاد فى ذلك عدة أيام.

وفيه تواترت الأخبار بأن بونابارته عظيم الفرنسيس خرج بعماره كبيرة ليحارب الجزاير، وأنه انضم إلى طايفة الفرنسيس الأسبانيول والنابولطلان*، وتفرقوا فى البحر وكثر اللغط بسبب ذلك، وامتنع سفر المراكب ورجع الانكليز إلى قلاع اسكندريه؛ واستمرت هذه الإشاعه مدة أيام، ثم ظهر عدم صحة هذه الأخبار، وأن ذلك من اختلاقات الانكليز.

* النابولطان: المقصود هنا مملكة نابلى فى شبه الجزيرة الإيطالية.


المحمل

وفى يوم الخميس سابع عشره حضر جاويش الحاج وصحبته مكاتبات الحجاج من العقبه، وضربوا لحضورده مدافع، وأخبروا بالأمن والرخا والراحة ذهاباوإياباً ومشوا من الطريق السلطانى وتلقتهم العربان وفرحوا بقدومهم، فلما كان يوم الاتنين وصل الحجاج ودخلوا إلى مصر.

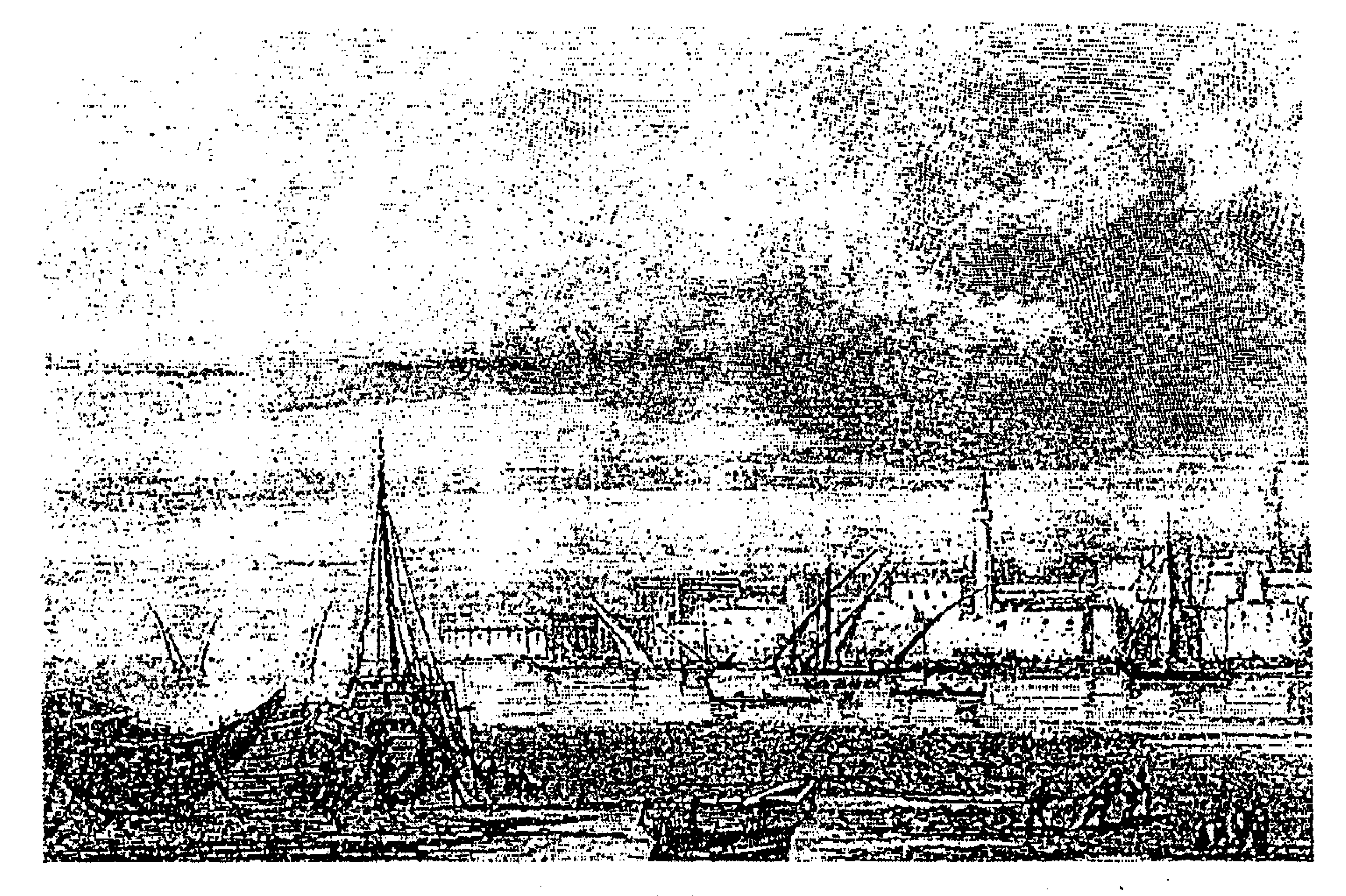
وفى صبحها دخل أمير الحاج وصحبته المحمل.

وفى يوم الخميس ثالث عشرينه سافر حسين أغا شنن ذو الفقار كتخدا وصحبتهما على كاشف لملاقاة عثمان بك الحسينى*، وأخلوا له دار عبد الرحمن كتخدا بحارة عابدين.

* عثمان بك الحسينى: هو أحد الأمراء المماليك الفارين إلى الصعيد، ولاحظ أنه بعد ذلك عاد وانضم إلى المماليك فى الوجه القبلى.

وفى يوم التلات ثامن عشرينه حضر* عثمان بك

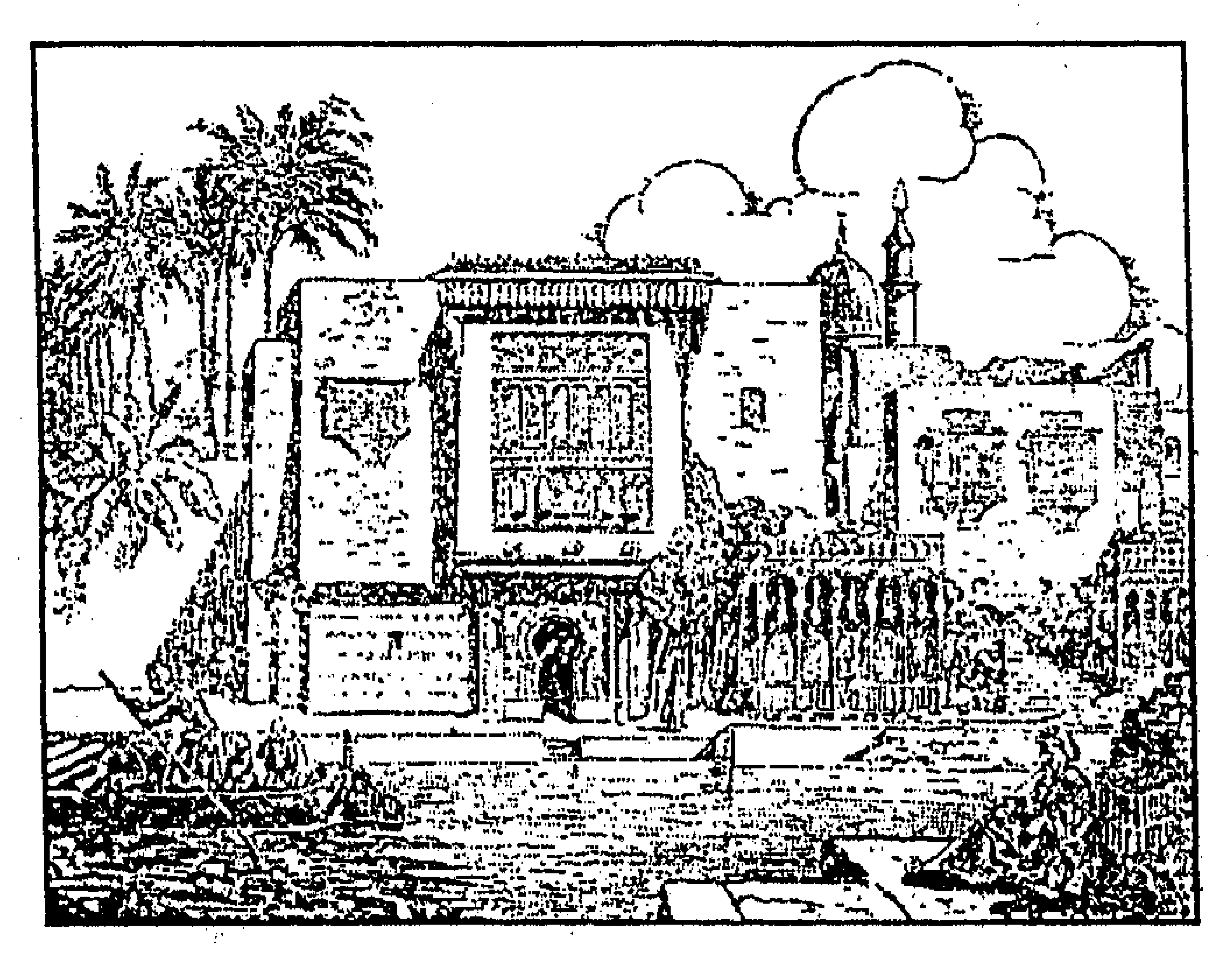
* حضور عثمان بك الحسينى.



ميناء السويس

الحسينى فأرسل إليه الباشا أعيان أتباعه من الأغوات وغيرهم والجنايب، فحضر بصحبتهم وقابل حضرة الباشا وخلع عليه خلعة وقدم له تقدمه، وذهب إلى الدار التى أعدت له.

وحضر صحبته صالح بك غيطاس وخلافه من الأمرا البطِالين، ومعهم نحو المايتين من الغُزّ والمماليك، سكن كل من الأمرا والكشاف فى مساكن أزواجهم، فكانوا يركبون فى كل يوم إلى بيت عثمان بك ويذهبون صحبته إلى ديوان الباشا، ورتب له خمسة وعشرين كيساً فى كل شهر.



الخليج المصرى وبعض الدور التى كانت تطل عليه

واستهل شهر ربيع الأول
بيوم الخميس [سنة ١٢١٧]

وفيه شرعوا فى عمل المولد النبوى* وعملوا صوارى ووقده قبالة بيت الباشا وبيت الدفتردار وبيت الشيخ البكرى، ونصبوا خياما فى وسط البركه، ونودى فى يوم الخميس تامنه بتزيين البلد وفتح الأسواق والحوانيت والسهر بالليل تلات ليال أولها صبح يوم الجمعه وآخرها الاحد ليلة المولد الشريف، فكان كذلك.

وفى ليلة المولد حضر الباشا إلى بيت الدفتر دار باستدعا، وتعشى هناك، واحتفل لذلك الدفتر دار وعمل له له حراقه نفوط وصواريخ حصه من الليل.

* الاحتفال بالمولد النبوى: فى غرة ربيع الأول تعد العدة للاحتفال بمولد النبى. ويقع أهم مشهد لهذا العيد فى القسم الجنوبى الغربى من الفضاء الواسع المسمى بركة الأزبكية، الذى يصبح أغلبه بحيرة مدة الفيضان. وقد ظل الحال كذلك عدة سنوات، وقت الاحتفال بمولد الرسول، فيقام حينئذ على حافة البحيرة. أما الآن فهو يقام فى مجرى البحيرة الجاف. وفى هذا القسم المذكور تضرب خيم كبيرة، تسمى الواحدة منها "صيواناً" فيجتمع الدراويش للذكر فى اغلبها، كل ليلة، طول الاحتفال. ويرفع وسط هذه الخيم "صارى" يشد بحبال شداً متيناً، ويعلق بهن اثنا عشر قنديلاً او اكثر. ويقوم بالذكر حول "الصارى" خمسون من الدراويش او ستون تقريباً فى حلقة. ويقام بالقرب من المكان نفسه "قائم" يتكون من اربع صوارى ترفع صفاً، تبعد بعض ياردات على جانب، ويمتد منها، من صارية إلى اخرى، وإلى الأرض، حبال عديدة يعلق بها قناديل كثيرة، على هيئة زهور وأسود، إلخ. احياناً، وكلمات، مثل اسماء الله ومحمد والشهادة إلخ. احياناً اخرى. وقد تعد بطريقة زخرفية تصويرية فقط. ويتم

الجبرتى/ سنة ١٢١٧

إعداد الاحتفال على العموم فى اليوم الثانى من الشهر، وفى اليوم التالى تبدأ الأفراح والاحتفالات. وتستمر ليلاً ونهاراً، إلى الليلة الثانية عشر من الشهر، وهى حسب التقويم الإسلامى، الليلة السابقة لليوم الثانى عشر من الشهر. وتلك الليلة هى ليلة المولد. ويحتشد كثير من سكان العاصمة فى الأزبكية مدة الأيام التسعة ولياليها تلك. وإنى أكتب هذا الوصف أثناء المولد، وسأصف مولد هذا العام (١٢٥٠ هـ. ١٨٣٤م) ذاكراً بعض الخواص التى يختلف بها عن مولد السنين السابقة.

يتسلى المجتمعون فى المكان الرئيسى للاحتفال، أثناء النهار، بالاستماع إلى الشعراء وبمشاهدة المشعوذين والهزليين إلخ. وقد خلا الحفل الآن من الغوازى، إذ أجبرن أخيراً على التوبة واعتزال حرفة الرقص. وكان أولئك الفتيات يعتبرن من أكثر اللاعبين فتنة. وتنصب فى بعض الجوانب من الشوارع المجاورة أراجيح وألعاب أخرى، وعدة دكاكين لبيع الحلويات، إلخ. ويقوم الراقصون على الحبل أحياناً باللعب فى هذا الاحتفال، وهم من الغجر، ولكن لا يوجد أحد منهم هذا العام. وتضاء الشوارع المذكورة سابقاً بالقناديل العديدة ليلاً. وتفتح الدكاكين الزاخرة بالمأكولات، والحلوى خاصة، طول الليل تقريباً، وكذلك المقاهى أيضاً. وفى بعض هذه المقاهى وفى غيرها من الأماكن يسلى الشعراء أو المحدثون جمهور الواقفين للاستماع إلى رواياتهم. وتمر مواكب الدراويش كل ليلة خلال هذا القسم، بعد منتصف الليل بساعة أو أكثر. ويستبدل الدراويش بالأعلام التى يحملونها نهاراً عصياً طويلة يشد إلى أعلاها مصابيح عديدة، تسمى "مناور". ويسمى موكب الجماعة من الدراويش، سواء كانوا يحملون الأعلام نهاراً، أو المناور ليلاً، موكب "إشارة" الطائفة، أى "البيرق" أو، بالحرى، يطلق لفظ إشارة على الموكب نفسه. وأغلب هؤلاء الدراويش من الطبقة الدنيا، وليس لهم ملابس مميزة. وسوادهم يلبسون عمامة عادية، وبعضهم طربوشاً فقط، أو البدة. وأكثرهم يلبس القميص العادى من الكتان أو القطن الأزرق، أو الصوف الأسمر الذى يلبسونه فى مناسبات أخرى فى أعمالهم اليومية أو فى حوانيتهم.

ويشتد الإقبال على الاحتفال فى الليلتين الأخيرتين عنه فى الليالى السابقة، وتزداد المباهج. وسأصف ما شاهدته فى أولى الليلتين:

كان القمر، فى الليلة الحادية عشرة مرتفعاً يبهج مناظر العيد. وكنت فى طريقى إلى شارع سوق البكرى، جنوبى بركة الأزبكية، لأشاهد ذكراً، قيل إنه أحسن ذكر يقام. وكانت الشوارع التى مررت بها مزدحمة، وكان يرخص للمارة، بهذه المناسبة، بالتجول بلا فوانيس. ولم أكن أرى امرأة إلا نادراً، كما هو الحال عادة ليلاً. وكان بميدان الذكر بسوق البكرى، وكان أكثر الأماكن ازدحاماً، "نجفة" كبيرة معلقة، تتكون من مائتى قنديل أو ثلاثمائة تقريباً. وكان حولها عدة مصابيح خشبية يتدلى أسفل كل منها عدة قناديل. ولم تكن هذه الأنوار معلقة لتكريم الرسول فحسب، فقد كانت هذه الليلة مولد الشيخ درويش العشماوى، الذى دفن "بزاوية" (أى مسجد صغير) بالقرب من هذا المكان. ويقام هنا كل ليلة جمعة (وتوافق ما نسميه مساء الخميس) ذكر لا يبلغ مبلغ ما أقيم للمناسبة الحالية. وقد شاهدت كثيراً من المسيحيين معتمين بالأسود، ولما كنت لم أر أحداً فى مكان آخر هذه الليلة

إلا نادراً، وسمعت هذا القول: "ملحة فى عين اللى ما يصلى على النبى" الذى يصيح به بائعو الحلوى وغيرهم، والذى يبين، حسب الظاهر، أن المسيحيين واليهود كانوا على الأقل معرضين للإهانة، فى وقت بلغ فيه الحماس الدينى حداً غير عادى، استفهمت عن سبب تجمع كثير من الأقباط فى ميدان الذكر، فأخبرت أن أحد الأقباط، وكان قد أسلم، يتبرع بتكاليف مولد الشيخ الدرويش كلها. وكان هذا الشيخ يجله الناس. وكان مختل العقل، أو كان يدعى الجنون، فكثيراً ما كان يتناول الخبز والمأكولات ويدوسها، أو يقذف بها فى القذر، ويقوم بأعمال أخرى يحرمها الدين تحريماً مباشراً. ومع ذلك فقد اعتبر ولياً فاضلاً. وتعتبر مثل هذه الأعمال، كما لاحظت فى مناسبة سابقة، نتيجة لانشغال الروح بالعبادة. وقد توفى الشيخ درويش منذ ثمانى سنوات.

وجلس ثلاثون من الدراويش الأحمدية تقريباً، متربعين على حصر ممتدة بجانب المنازل على ناحية واحدة من الشارع، فى حلقة بيضاوية وكانوا جميعاً من طبقة دنيا، يرتدون ملابس رثة وعمائم خضراء. وكان وسط الحلقة ثلاث شمعات كبيرة، ارتفاعها أربع أقدام، وضعت فى شمعدان قصير. وجلس بأحد طرفى الحلقة أربعة منشدين، وعازف على الناى. وحصلت على مقعد صغير من الجريد من مقهى قريب، وجلست مع المنشدين بعد مزاحمة الحشد، وبمساعدة خادمى، لأستمع إلى "مجلس ذكر". وسأحاول أن أصفه وصفاً تاماً، لأبين أكثر أنواع الذكر شيوعاً وأكثرها قبولاً فى القاهرة. وقد بدأ الذكر فى الساعة الثالثة تقريباً (أى بعد ثلاث ساعات من الغروب)، واستمر ساعتين.

بدأ القائمون بالذكر بقراءة الفاتحة معاً، بعد أن صاح شيخهم أولاً: الفاتحة. ثم أنشدوا الكلمات التالية: "اللهم صل على سيدنا محمد فى الأولين، وصل على سيدنا محمد فى الآخرين، وصل على سيدنا محمد فى كل وقت وحين، وصل على سيدنا محمد فى الملأ الأعلى إلى يوم الدين. وصل على جميع الأنبياء والمرسلين من أهل السموات والأرض. ورضى الله تبارك وتعالى عن سادتنا أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، وعن جميع أصفياء الله الآخرين. حسبنا الله، ونعم الوكيل. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.
- اللهم يا ربنا، يا واسع المغفرة، يا أرحم الراحمين. اللهم آمين". ثم صمتوا لحظة، وعادوا ثانياً إلى قراءة الفاتحة بسكون. ويتقدم عادة جميع طوائف الدراويش بمصر تقريباً "باستفتاح الذكر" هذا.

وبعد هذه المقدمة أخذوا فى الذكر. فأنشدوا وهم جلوس بالطريقة السابق ذكرها، ببطء: "لا إله إلا الله".
منحنين، رأساً وجسداً، مرتين كلما رددوا قولهم السابق. وظلوا هكذا ربع ساعة تقريباً. ثم أعادوا الكلام نفسه بالنغمة نفسها، فى مدة مساوية، ولكن على قياس أسرع. وأنشد المنشدون مرات أثناء ذلك، أجزاء من قصيدة، أو من موشح، على النغم نفسه، أو على تغاير منه.

وفى فترات متكررة (كما هى العادة فى حفلات الذكر) يصيح أحد المنشدين مغنياً: مدد، مفخماً كل مقطع. ويعنى لفظ "مدد" هنا، عوناً روحياً أو خارقاً للعادة، ويتضمن استدعاء مثل هذا العون.

وبعد أن قام الذاكرون بما سبق وصفه، رددوا الكلام نفسه على نغم مختلف فى مدة مماثله، ببطء شديد أولاً، ثم بسرعة.

ونهضوا بعد ذلك واقفين بالنظام الذى جلسوا به، ورددوا الكلام نفسه بنغم آخر. وكان قد انضم إليهم، أثناء ذلك، عبد أسود حسن الملبس، دفعتنى هيئته إلى السؤال عن شخصه. فأخبرت أنه أحد أغوات الباشا. وردد الذاكرون بعد ذلك، وهم لا يزالون واقفين، الكلام نفسه فى صوت عميق أجش، مشددين الصوت عند لفظة "لا"، وما قبل المقطع الأخير من الكلام اللاحق، وينطقونه حسب الظاهر، بجهد عظيم. والصوت كثير الشبه بصوت الدف يضرب على حافته. ودوَّر كل من الذاكرين راسه يميناً وشمالاً على التعاقب عند قوله: لا إله إلا الله. وأصبح الأغا المذكور آنفاً، فى هذا الوقت من الذكر، ما يسمونه "ملبوساً". فأخذ يلقى ذراعيه، وينظر إلى أعلى متجهم الوجه، وصاح بصوت مرتفع، وبحدة وسرعة فائقتين: الله! الله... لا لا لا... لاه! ياعمى، يا عمي! يا عمى عشماوي! يا عشماوي! يا عشماوي! يا عشماوي! وأخذ صوته يضعف تدريجياً، ثم سقط على الأرض، مع أن أحد الدراويش كان خلفه يسنده، وكان فمه مزبداً، وعيناه مقفلتين، وأطرافه متشنجة. كان ذلك نوبة صرع، وما كان أحد يستطيع أن يدرك ذلك ويعتقد أنه نتيجة انفعال متصنع، ولا جدال أنه كان نتيجة لحالة هياج دينى شديد. ولم يدهش أحد لذلك، فمثل تلك الحوادث شائعة أثناء الذكر. وبدأ الذاكرون أكثر هياجاً، مرددين كلامهم بسرعة متزايدة، ومديرين رؤوسهم بعنف، ومحنين أجسامهم جميعاً فى الوقت نفسه، وكان بعضهم يقفز. وعاد الأغا إلى حالته الأولى عدة مرات. وقد لاحظت أن نوباته تحدث بعد إنشاد أحد المنشدين بيتاً أو بيتين، واجتهاده النادر فى إثارة سامعيه. وحقاً كان الغناء حسب ذوقى حسناً جداً. وقبيل انتهاء الذكر بدا أيضاً جندى خاص كان حاضراً من اول الذكر، ملبوساً أكثر من مرة، فكان يهمهم بطريقة مخيفة، ويهز رأسه من جانب إلى آخر بعنف. وكان التباين الظاهر بين جهد الذاكرين الشاق فى ختام الذكر ووقارهم وخشوعهم عند بدءه عجيباً بصفة خاصة. وكانت النقود تجمع أثناء الذكر لأجل المنشدين. أما الذاكرون فلا يدفع لهم شىء.

واستمر الذكر طول الليل، إلى آذان الفجر. وما كان الذاكرون يستريحون إلا بين مجلسين، فيتناولون القهوة جميعاً، ويدخن بعضهم.

وكان الليل قد انتصف قبل أن أعود من هذا المكان إلى بركة الأزبكية. وهنا، كان ضوء القمر والمصابيح تحدث معاً أثراً غريباً. ومع ذلك كان كثير من مصابيح "القائم" و"الصارى" والخيم قد أطفئ. وكان كثير من الناس مستلقين على الأرض نياماً. وكان ذكر الدراويش حول الصارى قد انتهى. وسأصفه بعد مشاهدتى إياه فى الليلة التالية. وبعد أن شاهدت عدة حلقات ذكر عدت إلى منزلى للنوم.

وفى اليوم التالى، وهو السابق مباشرة لما يسمى ليلة المولد، ذهبت ثانياً إلى الأزبكية قبل الظهر بساعة. ولم يكن هناك كثير من الناس فى ذلك الوقت، ولا مباهج كثيرة لتسلية المجتمعين. ولم أر غير إثنين أو ثلاثة من المشعوذين والمهرجين والشعراء، وقد جمع كل منهم حوله حلقة صغيرة من المشاهدين. غير أن الازدحام اشتد تدريجياً، فقد كان هناك منظر عجيب على وشك أن يظهر، وهو مشهد يجذب هذا اليوم من كل عام جمهوراً من

الجبرتى/ سنة ١٢١٧

المشـاهدين المتـحـيـريـن. وهو يسمى "الدوسـة". وسـأصـفـه الآن:

قصد شيخ الدراويش السعدية، السيد محمة المنزلاوى، خطيب مسجد الحسنين [الحسين] إلى ذلك المنزل، هذا اليوم (يوم الجمعة)، ليقوم بواجبه المعتاد، بعد أن قضى جزءاً من الليلة السابقة فى عزلة مردداً بعض الصلوات والأدعية الخفية، كما يقولون. وبعد أن أدى صلاة الجمعة والخطبة، ركب من هناك إلى منزل الشيخ البكرى الذى يرأس جميع طوائف الصوفية بمصر. ويقع المنزل فى الناحية الجنوبية من بركة الأزبكية، تالياً للمنزل القائم بالزاوية الجنوبية الغربية، وفى طريقه من المسجد، لحق به عدة طوائف من الدراويش السعدية من أقسام مختلف العاصمة، وكان لكل قسم رايتان. وشيخ السعدية كهل، أشهب اللحية، وسيم المحيا، جميل الهيئة، أبيض الوجه. وكان يلبس، هذا اليوم، بتشاً وقاووقاً أبيضين، وعمامة من الموصل الزيتى اللون القريب من الأسود، تعبر مقدمها متحرفة قطعة من الموصلى الأبيض. وكان يركب جواداً متوسط الارتفاع والوزن. وإنى أذكر ذلك لسبب يتبينه القارئ الآن. ودخل الشيخ بركة الأزبكية يتقدمه موكب عظيم من الدراويش وأتباعه.

وفى طريقه من هذا الميدان، وقف الموكب على مسافة قصيرة من منزل الشيخ البكرى، حيث انبطح عدد كبير من الدراويش وغيرهم. (وإنى أؤكد أنهم كانوا يزيدون على الستين، غير أنى لم أستطع إحصاء عددهم). انبطحوا جنباً إلى جنب متلاصقين بقدر الإمكان وأرجلهم ممدودة وأذرعهم تحت جباههم وكانوا يهمسون على الدوام باسم الله. ثم جرى إثنا عشر درويشاً تقريباً، حفاة أغلبهم، على ظهور رفاقهم المستلقين، وكان بعضهم يضرب "الباز"، ويصيحون الله! ثم دنا الشيخ، فتردد حصانه، دقائق عديدة، قبل أن يدوس ظهر أول الساجدين، ولكنه خطا أخيراً، بالدفع والحث من الخلف، ثم مشى بدون خوف ظاهر، بخطوة عالية، على ظهورهم جميعاً، يقوده شخصان، وكان أحدهم يطأ الساجدين فوق أرجلهم أحياناً، والآخر فوق رؤوسهم. وهتف المشاهدون بصوت ممدود: الله! ولم يظهر على أحد ممن داسهم الحصان أنه أصيب بسوء، بل وثب كل منهم واقفاً بعدما مر الحصان عليه وتبع الشيخ. ويقال أن هؤلاء والشيخ أيضاً، يستعملون بعض كلمات (أى يرددون صلوات وأدعية) فى اليوم السابق، ليمكنهم احتمال خطى الحصان دون ضرر، وإن بعضاً لم يهيأوا كالسابقين، اجتراوا على الانبطاح ليمر الحصان عليهم، فلقوا حتفهم، أو أصيبوا بضرر بالغ، فى أكثر من مناسبة. ويعتبر هذا العمل كرامة أحدثتها قوة غير طبيعية منحت لكل شيخ من شيوخ السعدية المتتابعين. ويزعم البعض أن الحصان لا ينعل لهذه المناسبة، غير أنى استطعت، على ما أظن، ملاحظة أن هذا لم يكن الحال. ويقولن أيضاً أن الحيوان درب لهذا الغرض. ولكن إذا كان الأمر كذلك، أعتبر هذا بالنسبة لأقل الوقائع إدهاشاً فحسب، أعنى واقعة دوس الحصان الآدميين وهو عمل ينفر منه الحيوان بشدة كما هو معروف. وقد رفض شيخ السعدية الحالى عمل الدوسة، عدة سنوات. وبعد توسل شديد حُمل على تفويض القيام بها إلى شيخ آخر نجح فى أدائها وكان ضريراً. ولكنه سريعاً ما

توفى بعد. فاستجاب شيخ السعدية إلى التماس دراويشه وأصبح منذ ذلك الوقت يقوم بعمل الدوسة بنفسه دائماً.

وبعد أن قام الشيخ بهذا العمل الفذ، بدون أدنى مظهر لأى حادث شاق، ركب إلى صديقه الشيخ البكرى، ودخل المنزل بصحبة بعض الدراويش. وقدمت نفسى عند الباب، فأدخلنى خادم، وانضممت إلى المجلس بالداخل. وجلس الشيخ، بعد أن ترجل، على سجادة فرشت على البلاط تجاه حائط التختبوش. وجلس مقوس الظهر، كئيب الهيئة، دامع العين، لا ينقطع عن الهمهمة. ووقفت بالقرب منه تقريباً. وقد جلس معه ثمانية آخرون. ووقف الدراويش الذين دخلوا مع الشيخ، وكانوا عشرين تقريباً، فى نصف دائرة أمامه، فوق حصر فرشت لهم، وكان يحيط بهم ما يقرب من خمسين شخصاً أو ستين آخرين. وتقدم ستة من الدراويش نحو الشيخ، على ياردتين من نصف الدائرة، وبدأوا يذكرون. وكان يصيحون دائماً: "الله حى!"، ويضرب كل منهم، عند كل صيحة، بسير جلدى، بازاً يمسكونه باليسرى من نتوء فى قاعدته. ودام ذلك بضع دقائق. واندفع حينئذ عبد أسود، كان قد أصبح «ملبوساً»، وسط الدراويش، محركاً ذراعيه حوله، وصائحاً: «الله لا لا لا لا لاه!»، وأمسك به شخص، وسرعان ما بدا أنه استفاق. ثم قام الدراويش بالذكر مرة ثانية، وهم واقفون كما سبق. وكان بعضهم يصيح بالتناوب: «الله حى!»، والآخرون: «يا حى!»، وينحنون جميعاً، فى كل مرة يميناً وشمالاً على التعاقب، وظلوا كذلك عشر دقائق تقريباً. ثم صاحوا: «دايم!»، و«دايم!»، على النسق نفسه من الزمن والطريقة والحركة. وتملكنى شعور جامح يدفعنى إلى محاولة القيام بالذكر مثلهم دون أن يتبين أمرى. فانضممت إلى الجماعة، وقد نجحت فى ذلك إلى حد لا يثير الشبهة، غير أنى أحدثت لنفسى آلاماً متعبة.. وبعد الذكر السابق وصفه، أخذ شخص يرتل ما يتيسر من القرآن، غير أن الذكر لم يلبث أن أعيد، واستمر حوالى ربع ساعة. وبعد ذلك قبّل أغلب الدراويش الحاضرين يد الشيخ، فانسحب إلى غرفة علوية.

جرت عادة بعض الدراويش بهذه المناسبة، بعد الدوسة، أن يظهروا براعتهم المشهورة فى أكل الثعابين الحية، أمام نخبة من القوم، فى منزل الشيخ البكرى. غير أن شيخهم الحالى وضع أخيراً حداً لهذه العادة فى العاصمة، معلناً حقاً أنها كريهة ومخالفة لأحكام الدين الذى يحرم أكل الثعابين. ولم يكن أكل السعدية للثعابين والعقارب قليل الحدوث أثناء زيارتى السابقة لمصر. وكانوا ينزعون من الثعابين نابها السام، أو يجعلونها غير مؤذية بثقب شفتيها، وربطهما معاً فى كل جانب بخيط حريرى، لمنع لدغها. وقد كان أحياناً لتلك الثعابين التى تحمل فى المواكب حلقتان من الفضة بدلاً من الخيطين الحريرين. وكلما أكل درويش سعدى ثعباناً حياً، كان يحركه إلى ذلك نوعاً من الجنون، أو كان يتظاهر بذلك. كان يضغط بشدة بطرف سبابته على ظهر الثعبان، ويمسك به على بعد بوصتين من رأسه. وكان كل ما يأكل من الثعبان، الرأس وما بينه وبين موضع الضغط، وقد جعل منه ثلاث لقمات أو أربعاً، ثم يقذف بالباقى. غير أن الثعابين لا تؤكل دائماً بدون حدوث مأساة حتى من السعدية. فقد حدث منذ سنوات أن درويشاً من هذه الطائفة، وكان يسمى «الفيل»

لضخامة بنيته، وقوة عضله، وشدة عزمه، وكان أشهر آكلى الثعابين فى عصره، وفى أى عصر تقريباً، رغب فى تربية ثعبان من نوع شديد كان ولده قد أحضره ضمن ثعابين أخرى جمعها من الصحراء، فوضعه فى سلة، واحتفظ به عدة أيام بدون غذاء، ليضعفه. وبعد ذلك وضع يده فى السلة ليخرجه، وليقتلع نابه، ولكن الثعبان لدغه فى الحال. فصرخ مستنجداً، ولكن لم يكن فى المنزل أحد غير النساء اللائى خفن القدوم إليه، فانقضت عدة دقائق قبل أن يسعف. وقد وجد حينئذ منتفخ الذراع أسوده، ومات بعد ساعات قليلة.

ولم يقم احتفال آخر يستحق الاعتبار فى يوم الدوسة. وقد جعلت غيبة الغوازى الحفل أقل بهجة من المعتاد.

وفى الليلة التالية، التى تسمى على الأصح ليلة المولد، عدت إلى ميدان الاحتفال الرئيسى. وشاهدت هنا ذكراً حول الصارى يقوم به ستون درويشاً تقريباً. وكان القمر كافياً لإضاءة المكان بدون مصابيح. وكان هؤلاء الدراويش من طوائف مختلفة، ولكن الذكر الذى قاموا به كان من نوع شائع عند البيومية فقط. وفى أحد وجوه هذا الذكر صاح القائمون به: «يا الله!»، وحنوا أولاً رؤوسهم وشبكوا أيديهم أمام صدورهم فى الوقت نفسه عند كل صيحة، ثم رفعوا رؤوسهم وصفقوا بأيديهم أمام وجوههم. وكان داخل الحلقة أشخاص جالسون على الأرض. واستمر الذكر نصف ساعة على الوصف المذكور سابقاً. وبعد ذلك، كوّن الدراويش فرقاً من خمسة، أو ستة، أو أكثر معاً، ولكن على شكل حلقة كبيرة أيضاً. وكان أفراد تلك الفرق العديدة متماسكين، كل واحد يضع ذراعه اليسرى خلف ظهر جاره يساراً، ويده على كتفه الأخير. وكانوا جميعاً فى مواجهة المشاهدين خارج الحلقة، وصاحوا: «الله!» بصوت شديد العمق أجش. وخطوا خطوة عند كل صيحة، إلى الأمام مرة، وإلى الخلف مرة أخرى، ولكن كل منهم يتقدم قبلاً إلى اليسار عند كل خطوة إلى الأمام، بحيث تدور الحركة بأكملها، ولو ببطء شديد. ويمد كل منهم يده اليمنى لتحية المشاهدين خارج الحلقة، ويمسك أغلب هؤلاء إذا كانوا قريبين، كل يد ممدودة، ويقبلونها أحياناً عندما تصبح أمامهم.

وكلما قام ذكر حول الصارى، كف الذكر فى الخيام. وقد شاهدت ذكراً آخر هذه الليلة، وكان ترديداً لذكر الليلة السابقة بسوق البكرى، ولم يكن هناك شىء آخر، ما عدا سماع القصص، يجذب المشاهدين أو السامعين.

انتهى العيد عند آذان الفجر، وكفت جميع حلقات الذكر، ما عدا سوق البكرى، فقد انتهى الذكر به بعد منتصف الليل بثلاث ساعات. وفى غضون اليوم التالى، رفع القائم، والصارى، والخيام الخ.

(انظر: ادوارد وليم لين).

وفيه وصلت الأخبار بكثرة عربدة الأمرا القبالى، وتجمع لديهم الكثير من غوغا الحوف والهواره والعربان، ووصلوا إلى غربى أسيوط وخافتهم عساكر العثمليه، وداخلهم الرعب منهم، وتحصن كل فريق فى الجهة التى هو فيها. وانكمشوا عن الإقدام عليهم

وهابوا لقـاهم مع مـا هم عليـه من الظلم والفـجـور والفـسـق بأهل الريف والعـسـف بهم، وطلبـهم الكلف الشاقة والقتل والحرق، وذلك هو السبب الداعى لنفور أهل الريف منهم وانضمامهم إلى المصرليه.

ومن جملة أفـاعـيلهم التى ضـيـقت المنافس وأحـرجت الصدور حتى أعـاظم الدولة. حجزهم المراكب ومنعهم السفـار، حتى تعطلت الأسباب وامتنع حضور الغلال من الجهـه القبليه، وخلت عرصات الغـلال والسـواحل من الغلال مع كثرتها فى بلاد الصعيد، ولولا تشديد الباشا فى عدم زيادة سعر الغله لغلت أسعارها، وأمر بأن لا يدخلوا إلى الشون والحواصل شيا من الغلة، بل يباع ما يرد على الفقرا حتى يكتفوا. وفى كل وقت يرسلون أوراقـا وفـرامـانات إلى العـسـاكـر بإطلاق المراكب فـلا يمتثلون. ويحجز الواحد منهم أو الاثنان المركب التى تحـمل الألف أردب، ويربطونهـا بسـاحل الجهة التى هم بها وتستـمر كذلك من غير منفعه وربما مرت بهم المراكب المشحونة بالغله فيـأخذون منهـا النواتيـه والريس يستـخدمونهم فى مركبهم، ويأخذ غـيرهم المركب فـيرمى ما بهـا من الغـلال على بعض السـواحل إن لم يجدوا من يشتـريه، ويأخذون المراكب فيربطونها عندهم.

وأمثال ذلك مما تقصر عنه العباره. وفيـه تواترت هذه الأخبار بزحف الأمرا القبالى ومن انضم إليهم فشرعوا فى تسفير العسكر أيضا وصارى عسكرهم طاهر باشا

وأخذ فى التشهيل والسفر، فلما كان يوم الخميس خامس عشره عدى إلى البر الغربى وتبعته عسكره.

* الأمراء المماليك يطلبون الصلح مع محمد باشا.

وفى ذلك اليوم حضرت مكاتبه* من الأمرا القبالى ملخصها أن الأرض ضاقت عليهم واضطرهم الحال والضيق والتغرب عن الوطن إلى ما هم فيه، وأنهم مستمرون فى طاعة الله ورسوله والسلطان، ولم يقع منهم ما يوجب إبعادهم وطردهم وقتلهم، فإنهم خدموا وجاهدوا وقاتلوا مع العثمانية وأبلوا مع الفرنساويه فجوزوا بضد الجزا، ولا يهون بالنفس الذل والإقبال على الموت، فإما تعطونا جهه نتعيش فيها أو ترسلوا لنا أهلنا وعيالنا وتشهلوا لنا مراكب على ساحل القصير، فنسافر فيها على بر الحجاز أو تعينوا لنا جهه نقيم بها نحو خمسة أشهر، مسافة ما نخاطب الدولة فى أمرنا، ويرجع لنا الجواب ونعمل بمقتضى ذلك، فإن لم تجيبونا لشى من ذلك فيكون ذنب الخلايق فى رقابكم لا رقابنا.



* الباشا يعفوا عن الأمراء المماليك ما عدا:
إبراهيم بك.
الألفى.
البرديسى.
ابو دياب.

وورد الخبر عنهم إنهم رجعوا القهقرى إلى قبلى، فلما حضرت تلك المكاتبه فاشتوروا فى ذلك وكتبوا لهم جواباً بامضا الباشا والدفتر دار والمشايخ، حاصله الأمان* ما عدا: إبراهيم بك والألفى والبرديسى وأبا دياب فلا يمكن أن يوذن لهم بشى حتى يرسلوا إلى الدوله، ويأتى الإذن بما تقتضيه الآراء، وأما بقيتهم فلهم الأمان والإذن بالحضور إلى مصر ولهم الإعزاز والإكرام، ويسكنون فيما أحبوا من البيوت ويرتب لهم

ما يكفيهم من التراتيب والنفقه وغير ذلك مثل ما وقع لعثمان بك الحسينى فإنهم رتبوا له خمسة وعشرين كيساً فى كل شهر، ومكنوه مما طلبه من خصوص الالتزام، ورفعوها عمن كان أخذها حلوان، وهذه أول قضية شنيعة ظهرت بقدومهم. واستمر طاهر باشا مقيما بالبر الغربى.

وفى هذا الشهر كمل تتميم عمارة المقياس* على ما كان عمره الفرنسيس على طرف [نفقة] الميرى، وأنشا الباشا طياره* فى علوه عوضاً عن الطياره القديه التى هدمها الفرنسيس، وأنشا أيضا مصطبه فى مرمى النشاب بالناصريه، وجعل فيها كشكا لطيفا مزينا بالأصباغ ودرابزين حول المصطبه المذكوره.

* المقصود مقياس الروضة.

* الطيارة: هى القبة.

ومن الحوادث بثغر سكندريه أنه حضر قليون وفيه تجار وبزرجانية* يقال له قليون مهردار الدولة فارسى بالمينه الغربيه، وطلع منه قبطان وبعض التجار إلى البلده وأقام نحو يومين أو ثلاثه، فطلع رجل من نصارى الأروام وأخبر الانكليز أنه مات بالقليون رجل بالطاعون، ومات قبله ثلاثه أيضا، فطلبوا القبطان فهرب، فأرسلوا إلى المركب وأحضروا اليازجى وتحققوا القضيه وأحرقوا المركب بما فيها، وأشهروا اليازجى وعروه من ثيابه وسحبوه بينهم فى الأسواق وكلما مروا به على جماعة من العثمانيه مجتمعين على مصاطب القهاوى بطحوه بين أيديهم

* بزرجانيه: هم التجار الفرس.

وضربوه ضربا شديدا، ولم يزالوا يفعلون به ذلك حتى قتلوه.

* الإنجليز يستبدون بامور الإسكندريه. وخورشيد باشا حاكمها يستبد بالأهالى.

ووقع أيضاً أن خورشيد باشا حاكم سكندريه أحدث مظالم ومكوسا* على الباعة والمحترفين، فذهب بعض الانكليز يشترى سمكا فطلب السماك منه ثمنا زايد على العادة، فقال له الانكليزى لأى شى تطلب الزياده عن المعتاد، فعرفه علة ذلك بما أحدثه الحاكم عليهم من المكس فرجع الانكليزى وأخبر كبراه فتحققوا القضية وأحضروا المنادى وأمروه بالمناداه بإبطال ما أحدثه العثمانيه من المكوس والمظالم، فخرج المنادى وقال: حسبما رسم الوزير محمد باشا وخورشيد أغا بأن جميع الحوادث المحدثة بطاله، فسمعوه يقول ذلك فأحضروه وضربوه ضربا شديدا وعزروه على ذلك القول، وقالوا له: قل فى مناداتك حسبما رسم صارى عسكر الانكليز.

* الإنجليز يجردوا عسكر حاكم الإسكندرية من السلاح بسبب عاهرة.

ووقع أيضا أن جماعه من العسكر أرادوا القبض على امرأه من النسا الذين يصاحبن الانكليز* فمنعها منهم عسكر الانكليز فتضاربوا معهم، فقتل من الانكليز اثنان، فاجتمع الانكليز وأرسلوا إلى خورشيد باشا بأن يخرج إلى خارج البلده ويحاربهم، فامتنع من ذلك فأمروه بالنزول من القلعه وأسكنوه فى دار بالبلد، ومنعوا عسكره من حمل السلاح مطلقا مثل الانكليزية واستمروا على ذلك.

واستهل شهر ربيع التانى [سنة ١٢١٧]

فيه حضر أحمد أغا شويكار من عند القبالى ومحمد كاشف صحبته من جماعة الألفى، ومعهم مكاتبات وأشيع طلبهم الصلح، فأقاموا عدة أيام محجوبين عن الاجتماع بالناس، ثم سافروا فى أواسطه ولم يظهر كيفية ما حصل، وبطل سفر طاهر باشا إلى الجهة القبليه ورجع إلى داره بعد عدة أيام من رجعوهم.

وفيه عمل مولد المشهد الحسينى* ودعا الشيخ السادات الباشا فى خامسه وتعشى هناك ورجع إلى داره.

* الاحتفال بمولد الحسين.

وفيه تقلد السيد أحمد المحروقى أمين الضربخانه، وفرّق ذهبا كثيرا فى ذلك اليوم ببيت الباشا، وعمل له ليله بالمشهد الحسينى. ودعا الباشا والدفتر دار وأعيان الدوله والعلما وأولم لهم وليمه عظيمه، وأوقد بالمسجد وقده كبيره وقدم للباشا تقدمه، وفى صبحها أرسل للباشا مع ولده هديه وتعبيه أقمشه نفيسه فخلع عليه الباشا فروه سمور.

وفى غرة هذا الشهر شرع الباشا فى هدم الأماكن المجاورة لمنزله التى تهدمت واحترقت فى واقعة الفرنسيس ليبنيها مساكن للعساكر المختصة به، وتسمى عندهم بالقشله* وذاك من قبالة منزله من

* الباشا يبنى قبالة منزله معسكرات للجند الجديد.

المكان المعروف بالساكت إلى مسجد عثمان كتخدا حيث رصيف الخشاب، واهتم لذلك اهتماما عظيما، ورسم بتفريد فرده على البلاد أعلى وأوسط وأدنى، وأرسلوا المعينين لقبض ذلك من البلاد مع ما الفلاحون فيه من الظلم والجور من العساكر والمباشرين، وحق الطرق وفرد الانكليز.

وفى منتصفه كملت عمارة مشهد السيدة زينب* بقناطر السباع، وكان من خبره أن هذا المشهد كان أنشاه وعمرَّه عبد الرحمن كتخدا القاردغلى فى جملة عمايره، وذلك فى سنة أربع وسبعين وماية وألف. فلم يزل على ذلك إلى أن ظهر به خلل ومال شقه فانتدب لعمارته عثمان بك المرادى المقتول المعروف بالطنبرجى فى سنة اثنتى عشره ومايتين وألف، فهدمه وكشف أنقاضه وشرع فى بناه وأقام جدرانه، ونصبوا أعمدته وأزادوا عقد قناطره، فحصلت حادثة الفرنسيس، وجرى ما جرى فبقى على حالته إلى أن خرج الفرنسيس من أرض مصر.

وحضرت الدوله العثمانيه فاعرض خدمة الضريح إلى الوزير يوسف باشا فأمر بإتمامه وإكماله على طرف الميرى، ثم وقع التراخى فى ذلك إلى أن استقر قدم محمد باشا فى ولاية مصر فاهتم لذلك فشرعوا فى إكماله وتتميمه وتسقيفه وتقيد لمباشرة ذلك ذو الفقار كتخدا فتم على أحسن ما كان، وأحدثوا به حنفيه وفسحه وزخرفوه بالنقوشات والأصباغ.

* ترميم مشهد السيدة زينب. ويحتفل بمولد السيدة زينب، ابنة الإمام على، وحفيدة الرسول، فى منتصف رجب تقريباً، فى ليلة اربعاء دائماً، ويبدأ الاحتفال على العموم قبل اسبوعين من اليوم الرئيسى وهو اليوم الأخير، او الثلاثاء. ويقع ميدان الاحتفال بجوار المسجد الذى يعتقد عامة الناس أن السيدة مدفونة به، وهو بنيان كثير الزخرف غير فائق الجمال، يقع فى الحى الجنوبى الغربى للعاصمة. ويعلو المدفن المزعوم مقام مستطيل، مغطى بحرير مطرز، ويحيط به مقصورة برنزية عليها مظلة خشبية، تشبه تلك التى توجد بمسجد الحسين. والمدفن فى غرفة صغيرة مرتفعة يتوجها قبة يدخلها الزوار وقت المولد للدعاء والطواف حول المقام. وقد زرت المقام فى اليوم الأخير، أى اليوم الكبير من المولد. ورايت فى أحد الشوارع

القريبة من المسجد عدة رواة "ابو زيدية"، وحواة، و"قراداتية"، وراقصين، وبهلوانية وقد أملى على فى المسجد الدعاء الشائع فى مثل هذه المناسبات، بعد الفاتحة، وتناولت قرصين من خبز السيد البدوى. وكان باب المقصورة مفتوحاً، غير اننى اخبرت انه لا يسمح لغير النساء بالدخول، لاعتبار المكان مقدساً كالحريم. ولذلك اكتفيت بالطواف حوله، وقد صعب على إتمام ذلك لكثرة الزائرين، ولضيق المسافة بين المقصورة وجدران الغرفة. وقد صاحت بى امرأة محترمة كان من الشاق عليها وجودها فى مثل ذلك الزحام، أن اخلى لها مكاناً، فى لغة جافية خاصة بالنساء العربيات. وسألنى كثير من الحاضرين أن اكلفهم تلاوة سورة من القرآن لأجل السيدة. وكانوا يلحون فى سؤالهم بالدعاء: "الله يبلغك مقصودك"، إذ أن زائرى أضرحة الأولياء يقصدونها ليعرضوا بعض ادعية خاصة. وكان هناك فريق من الفقراء المكفوفين يجلسون على الأرض يسألون الصدقات. وكان حصر الجامع مرفوعة، ولم يكن يرى هناك غير المتعطلين الكسالى. وقد ضايقنى عند الخروج نفر من الحملية [الحمالين] والسقائين لأعطيهم نقوداً فيوزعوا الماء إكراماً "لبنت الإمام". والعادة أن يمنح خادم المقصورة، واحد أو أكثر، بعض نقود صغيرة، وكذلك احد الفقهاء ليتلو سورة من القرآن، والمتسولون بالجامع، وأحد الحملية أو السائقين. وكان أهم ما يقام بالمسجد مساءً الذكر. ويقصد دراويش طائفة أو اكثر المولد هناك كل مساء.

وحول صحة أن السيدة زينب بنت السيدة فاطمة الزهراء والإمام على مدفونة فى هذا المشهد، توجد عدة اعتراضات منها:

- أن آخر ما سجله قدامى المؤرخين عن السيدة زينب هو ما أورده الحافظ ابن عساكر فى كتابه "تاريخ دمشق، بأن الخليفة الأموى يزيد بن معاوية قام بترحيلها إلى المدينة المنورة.

- أن المقام لم يذكر فى المراجع المعروفة بالخطط والمزارات القاهرية مثل "مرشد الزوار" لموفق الدين بن عثمان المتوفى سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م. و"الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة" لمحمد ابن محمد الزيات المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م. و"تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات" لمحمد بن عبد الرحمن السخاوى المتوفى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م

أضف إلى كل ذلك أن السيدة زينب المتوفاة سنة ٦٢هـ.٦٨٢م لم يكن آنذاك مكان ضريحها الحالى يابساً بل كان جزءاً من نهر النيل الذى كان يتحرك تاريخياً نحو الغرب. فقد أفاد المقريزى وغيره من المؤرخين أن حصن بابليون بمصر القديمة (محله الآن كنيسة مار جرجس) وجبل يشكر وقلعة الكبش (وكلها شرق المقام الحالى) كانت تشرف على النيل مباشرة. وعندما تحرك النيل غرباً بعد ذلك ترك محله عدة برك أهمها بركة الفيل وبركة الفراعنة وبركة قارون التى كانت تحتل مكان مقام السيدة زينب الحالى والتى ظلت بقاياها حتى القرن ١٩ تحت اسم بركة البغالة.

وهكذا فإنه فى الغالب أن مشهد السيدة زينب هو مشهد رؤية بمعنى أن السيدة زينب جاءت فى منام أحد الأولياء الصالحين وطلبت منه أن يقيم لها مقاماً فى هذا المكان.

الجبرتى/ سنة ١٢١٧

ولما كان يوم الجمعة رابع عشره حصلت به الجمعيه وحضر الباشا والدفتردار والمشايخ وصلوا به الجمعه، وبعد انقضا الصلاه عقد الشيخ محمد الأمير المالكى درس وظيفته، وأملى إنما يعمر مساجد الله الاية (سورة التوبة)، والأحاديث المتعلقة بذلك، وتم المجلس وأخلع عليه الباشا بعد ذلك خلعه، وكذا الإمام.



صورة عالمة

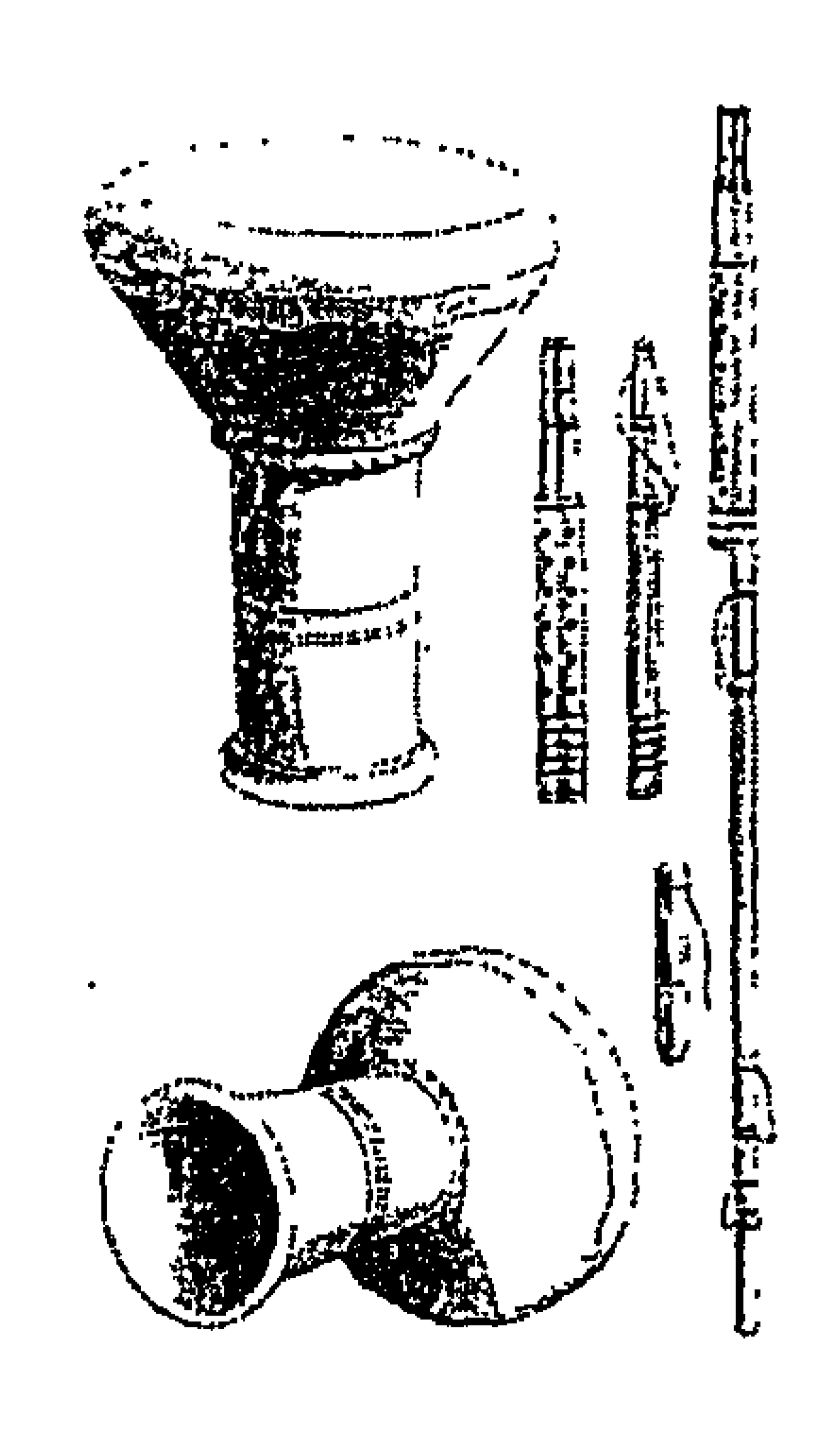
وفيه نصب للباشا خيمة عند بيته بقرب الهدم يجلس بها حصه كل يوم لمباشرة العمل، وربما باشر بنفسه ونقل بعض الأنقاض، فلما عاينه الأغوات والجوخداريه منه ذلك بادروا إلى الشيل، ونقل التراب بالغلقان، فلما أشيع ذلك حضر طاهر باشا وأعيان العساكر فنقلوا أيضاً واشيع طلب المساعده.

فحضر طايفة من ناحية الرميله وعرب اليسار، ومعهم طبول وزمور* فسأل عن ذلك فقال له المحتسب ذو الفقار هولا طايفه من طوايفى حضروا لأجل المساعده،

* استخدام الموسيقى والغناء اثناء العمل.

فشكرهم على ذلك وأمرهم بالذهاب، فبقى منهم طايفه واحده. وأخذوا فى شيل التراب بالأغلاق ساعة والطبول تضرب لهم فانسر الباشا من ذلك، وحسن القرنا [الملازمين] للباشا المساعده وأن الناس تحب ذلك، فرتبوا له ترتيب هذا الأمر.

وأحضروا قوايم أرباب الحرف التى كتبت أيام فرد الفرنسيس، ونبهوا عليهم بالحضور، فأول مابدوا بالنصارى الأقباط فحضروا ويقدمهم ريساهم وهم: جرجس الجوهرى وواصف وفلتيوس ومعهم طبول وزمور، وأحضر لهم أيضا مهتار باشا النوبه التركيه وأنواع الآلات والمغنين حتى البرامكه بالرباب فاشتغلوا نحو ثلاث ساعات.



وفى تانى يوم حضر منهم أيضاً كذلك طايفه، ولما انقضت طوايف الأقباط حضر النصارى الشوام والأروام.

ثم طلبوا أرباب الحرف من المسلمين فكان يجتمع الطايفتان والثلاثه، ويحضرون معهم عدة من الفعله يستأجرونهم ويحضرون إلى العمل، ويقدمهم الطبول والزمور والمجريه، وذلك خلاف ما رتبه مهتار باشا فيصير ضجة عظيمة مختلطة من نوبات تركيه، وطبول شاميه، ونقاقير كشوفيه ودبادب حربيه وآلات موسيقيه، وطبلات بلديه وربابات برامكيه، كل ذلك فى الشمس والغبار والعفار.

وزادوا فى الطنبور نغمه وهى أنهم بعد أن يفرغوا من الشغل ويأذنوا لهم بالذهاب يلزمونهم بدراهم يقبضها مهتار باشا* برسم البقشيش على أوليك الطبالين والزمارين فيعطيهم النذر اليسير وياخذ لنفسه الباقى، وذلك بحسب رسمه واختياره فيأتى على الطايفه المايه قرش والخمسون قرشا ونحو ذلك. ويركب فى تانى يوم ويذهب إلى خطتهم ويلزمهم بإحضار الذى قرره عليهم فيجمعونه من بعضهم ويدفعونه.

* مهتار باشا يفرض جبايات على الفرق الموسيقية التى تأتى لحث العمال المصريين على العمل.

وإذا حضرت طايفه ولم تقدم بين يديها هديه أو جعاله طولوا عليها المده وأتعبوهم ونهروهم واستحثوهم فى الشغل، ولو كانوا من ذوى الحرف المعتبره كما وقع لتجار الغوريه والحريريه.

وإذا قدموا بين أيديهم شيا خففوا عليهم وأكرموهم ومنعوا أعيانهم وشيوخهم من الشغل وأجلسوهم بخيمة مهتار باشا، وأحضر لهم الالات والمغانى فضربت بين أيديهم كما وقع ذلك لليهود.

واستمر هذا العمل بقية الشهر الماضى إلى وقتنا هذا فاجتمع على الناس عشرة أشيا من الرذالة* وهى السخره والعونه وأجرة الفعله والذل ومشقة العمل وتقطيع الثياب ودفع الدراهم وشماتة الأعدا، وتعطيل معاشهم وعاشرها أجرة الحمام.

* وهكذا اجتمع على العمال المصريين عشرة مظالم.

وفى يوم الاربع تانى عشره الموافق لسادس مسرى

القبطى كان وفا النيل* المبارك وكُسِرَ السد فى صبحها يوم الخميس بحضرة الباشا والقاضى، والشنك المعتاد وجرى الما فى الخليج ولم يطف مثل العادة ومنعوا دخول السفن والمراكب المعدة للنزهة وذلك بسبب أذية العساكر العثمانيه.

وفى منتصفه حضر قصاد (رسل) من الططر وعلى يدهم مكاتبات من الدوله بوقوع الصلح العام بين العثملى والقرانات وعثمان باشا ومن معه من المخالفين على الدوله من جهة الروملى، فعملوا شنكا ومدافع تلات أيام تضرب فى كل وقت من الأوقات الخمسه، وكتبوا أوراقا بذلك وألصقوها فى مفارق الطرق والأسواق، وقد تقدم مثل ذلك وأظنه من المختلقات.

وفى أواخره حضر حريم الباشا من الجهة الروميه وهما اثنتان إحداهما معتوقة أم السلطان والأخرى معتوقة أخته زوجة قبطان باشا، وصحبتهما عدة سرارى فأسكنهن ببيت الشيخ خليل البكرى، وقد كان عمّره قبل حضورهن وزخرفه ودهنوه بأنواع الصباغات والنقوش، وفرشوه بالفرش الفاخره، وفرش (الشيخ) المحروقى مكانا، وكذلك جرجس الجوهرى فرش مكانا، وأحمد بن محرم، واعتنوا بذلك اعتنا زايد، حتى إن جرجس فرش بساطا من الكشمير وغير ذلك، وعمل وليمة العقد وعقد على الثنتين فى آن واحد بحضرة القاضى والمشايخ، وأهدوا لكل من الحاضرين.بقجه من ظرايف الأقمشه الهنديه والروميه وعملوا شنكا وحراقه بالأزبكية عدة ليالى.

* وفاء النيل ٦ مسرى ١٥١٨ ق. وتسمى ليلة الاحتفال بكسر السد "ليلة النقطة" إذ يعتقد ان نقطة عجيبة تسقط حينئذ فى النيل، وتسبب ارتفاعه. ويحسب الفلكيون الوقت المضبوط لسقوط "النقطة"، ويكون دائما فى غضون الليلة السابق ذكرها، ويمضى كثير من سكان القاهرة وضواحيها، ومن جهات أخرى بمصر، هذه الليلة على ضفاف النيل. ويمضيها البعض فى منازل أصدقائهم، وآخرون فى الهواء الطلق. ويراعى الكثيرون أيضاً، وخاصة النساء، عادة غريبة فى ليلة النقطة، فيضعون فوق سطح المنزل، بعد الغروب، عجيناً بقدر عدد سكان المنزل، فيعلم كل واحد منهم قرصه. وفى فجر اليوم التالى ينظرون إلى الأقراص، فيستدلون من تشقق احدها على أن صاحبه تطول حياته، أو لا تنقضى هذا العام. ويستنتج العكس إن لم يكن القرص مشققاً. ويقول البعض: إن هذه العادة تراعى أيضاً لمعرفة ما إذا كان النيل يرتفع فى الموسم التالى.

يرتفع النيل، عند الانتقال الصيفى، أو بعيده، ويعلن ارتفاع النيل فى شوارع العاصمة يومياً، ابتداء من السابع والعشرين من بوونة (الثالث من يوليو)، أو ما يقرب من ذلك.

وهناك عدة منادين يقومون بهذه الوظيفة، فيختص كل منهم بقسم من اقسام القاهرة. ويجول "منادى النيل" على العموم فى قسمه مبكراً فى الصباح، وقد يتاخر، ويصحبه ولد. ويعلن المنادى فى اليوم السابق مباشرة على بدء إعلان ارتفاع النيل اليومى أن الله لطيف بالأراضى، وأن اليوم يوم الأنباء الطيبة، وغداً البشرى بالخير.

يبدأ المنادى نداءه اليومى بالصلاة على النبى، أو يبدأ بقوله: "يا من تدبيره عظيم" فيجيب الصبى: "مولانا مالى غيرك". ثم يأخذان فى التسبيح بحمد الله وذكر نعمه وفضائله تعالى إلى أن يقول المنادى: "والله يؤمننى على سى فلان (ذاكراً اسم رب الدار) وأهل بيته الطيبين، يا كريم! يا الله" ويجيب الصبى: "آى إن شاء الله" الخ. ثم يذكر إخوة رب الدار، وأبناءه، وبناته العذارى، ويقول اخيراً: "يفيض عليهم بخيره العميم، كما فاض النيل على البلاد، يا كريم! يا الله!" - الصبى: "آى إن شاء الله" - المنادى: "خمسة أو ستة قراريط الخ) اليوم، والرب كريم". - الصبى: "صلوا على محمد". وتضاف الجملة الأخيرة خوفاً من أن تؤثر رغبة حقود أو نظرة حسود فى ارتفاع النيل. فيزول هذا الأثر إذا صلى الحقود على الرسول.

وقد يعطى أهل المنزل المنادى كسرة من الخبز يوميا. وهذه عادة شائعة فى الطبقة الوسطى. غير أن اغلب الناس لا يعطونه شيئاً فى اليوم السابق على فتح قناة القاهرة. ولا يعول على إعلان المنادى الخاص بارتفاع النهر، إذ أن الملتزمين باخباره لا يصدقون القول. ولكن الشعب يصغى باهتمام إلى إعلان المنادى. ويردده هذا الأخير وصبيه كل يوم إلى ما قبل قطع سد قناة القاهرة بيومين.

فى هذا اليوم (أى أول اليومين المذكورين الآن) يجول المنادى فى قسمه، ومعه نفر من صغار الأولاد، يحمل كل منهم راية صغيرة ملونة، ليعلنوا "وفاء النيل". وهكذا تسمى حالة النيل عندما يرتفع ارتفاعاً كافياً لتعلن الحكومة أنه بلغ ستة عشر ذراعاً عند المقياس. ومع ذلك يشعر الشعب دائماً بخيبة امل، إذ أن هناك قانوناً قديماً ينص على أن ضريبة الأطيان لا تفرض ما لم يرتفع النيل إلى هذا الارتفاع. وترى الحكومة انه من الملائم أن تجعل الشعب يعتقد، بأسرع ما يمكن أن النيل بلغ هذا الارتفاع. ويعلن وفاء النيل حينما يرتفع فعلاً إلى حوالى عشرين قدماً أو واحد وعشرين بالقرب من العاصمة، ويكون هذا على العموم بين السادس والسادس عشر من اغسطس (الأول والحادى عشر من مسرى). وفى اليوم السابق ذكره (قبل فتح القناة بيومين) يقوم المنادى والصبيان المرافقون له براياتهم مبشرين الناس بهذا القول:

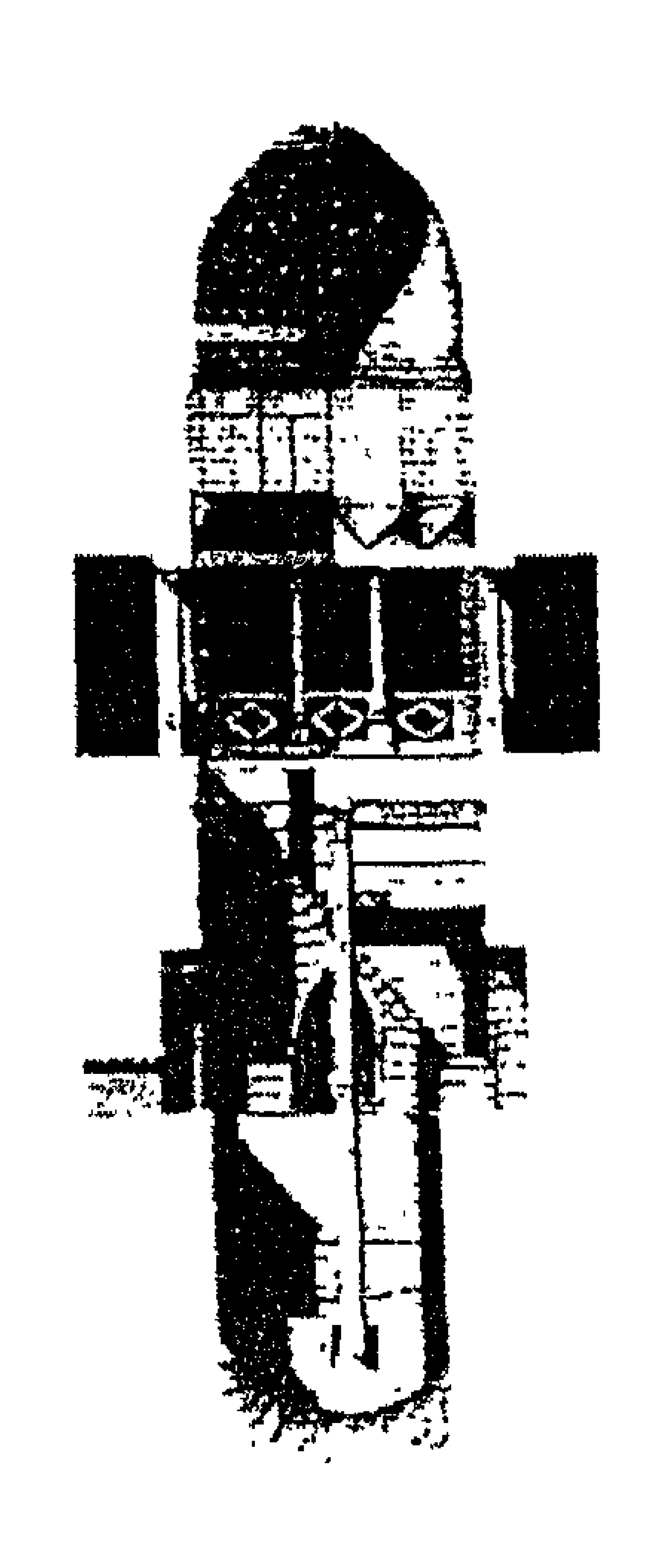
المنادى: "البحر فاض وزاد". - الصبيان: "أوفالله". - م.: "ودار النحاس امتلا". - ص.: "أوفالله". - م.: ده شىء من السنه للسنه". - ص.: "أوفالله". - م.: "وتعيشوا إلى كل عام". - ص. (يذكرون الكلام نفسه بعد كل جملة يقولها المنادى). - م.: "والكريم يحب الكريم". "وله قصر فى الجنة عجب". "وعمدانه جواهر أيتام". "والرطب إذا جنى". "لا يشبه لصيص البلح". "وله ألف طاقة تنفتح". "فى كل طاقة سلسبيل". "والجنة مقام الكرام". "والنار مقام البخيل". ويظل المنادى يردد هذا القول إلى أن يعطيه احد أهل المنزل عطية نقدية من عشرة فضة إلى قرش. وكثيراً ما يعطى قرشين، ويعطيه العظماء

"خيرية"، أى تسعة قروش.
وتعد العدة فى هذا اليوم لقطع السد. وتجذب هذه العملية حشداً كبيراً من المشاهدين للأهمية السياسية المتعلقة بها. ولكنها جعلت الآن بدون سبب قوى مناسبة لعيد عام، إذ أنها تنفذ قبل الأوان.
ويقام السد قبل ارتفاع النيل أو بعيده. ويعبر "الخليج" على مسافة أربعمائة قدماً من مدخله قنطرة حجرية ذات قوس واحد، ويقام السد على بعد ستين قدماً من القنطرة ومواجهاً لها. ويكون من التراب "عريض القاعدة"، ضيق القمة سطحها بعرض ثلاث ياردات. وترتفع قمة السد إلى اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين قدماً تقريباً فوق مستوى النيل عند انخفاضه. ولا يعلو مجرى الخليج بكثير، إذ أن الأخير يزيد على قياس النهر المنخفض بعدة أقدام، فيجف مجراه عدة شهور عندما يكون النيل منخفضاً. وتعلو ضفاف الخليج قمة السد ببعض أقدام. ويقام على مسافة ستين قدماً فى مواجهة السد عمود مستدير من التراب يقل اتساعاً نحو القمة، على هيئة مخروط مقطوع، ولا يرتفع ارتفاع السد، ويسمى، هذا "العروسة". وتبذر قمة العمود والسد بقليل من الذرة. وتجرف "العروسة" دائماً بقوة تيار الماء قبل أن يبلغ النهر الذروة، وعلى العموم قبل أن قطع السد بأكثر من اسبوع أو خمسة عشر يوماً.
والمعتقد أن عادة إقامة "العروسة" يرجع أصلها إلى عادة خرافية قديمة يذكرها كتاب العرب، ومنهم المقريزى. ويروى هذا المؤرخ أنه فى سنة غزو العرب لمصر، قيل لعمرو بن العاص إن المصريين كانوا يراعون عادة، وقت ارتفاع النيل، فيجهزون عذراء جميلة فى زينة مبهجة، ويقذفون بها فى النهر ضحية، لينالوا فيضاناً وافراً. ويقال إن عمرو أبطل هذه العادة البربرية فلم يرتفع النيل مدة ثلاثة شهور بعد الوقت المعتاد لبدء ارتفاعه. وقلق الشعب قلقاً عظيماً خشية الجدب. فكتب عمرو إلى الخليفة يخبره بما فعل وبما تهدد به مصر من نكبة. فرد عمر يستحسن سلوكه، وأرسل كلمة يلقى بها عمرو فى النيل. ونصها كما يلى: "من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى نيل مصر. أما بعد فإن كنت تجرى من قبلك، فلا تجر. وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك". وقذف عمرو بالكلمة إلى النيل فارتفع، على حد القول، ستة عشر ذراعاً فى الليلة التالية. ويصعب حقاً تصديق هذه الرواية، حتى مجردة من المعجزة.
كان هناك بناء حجرى صغير فى الجانب الشمالى للخليج، يشرف على السد، ويكاد يجاور القنطرة، وكان عظماء القاهرة يشاهدون عادة قطع السد منه. وأصبح البناء خراباً، يقام على أطلاله سرادق كبير لاستقبال هؤلاء الذين عليهم مشاهدة القطع ومراقبته. وتقام أيضاً خيم للزائرين الآخرين. وتقيم الحكومة عدداً كبيراً من الألعاب النارية، لتكريم الحفل، ولتسلية الجمهور، فى الليلة السابقة على يوم قطع السد، وأثناء تنفيذه فى الصباح المبكر. وتقام عدة خيم صغيرة كذلك لبيع الحلوى والفاكهة والمأكولات الأخرى، والقهوة الخ.. بطول ضفة جزيرة الروضة، مقابل مدخل الخليج. ويسمى يوم قطع السد "يوم جبر البحر" وتعنى كلمة "جبر" هنا "الكسر" وإن كان معناها الحقيقى هو العكس. ويطلق عليه أيضاً، وعلى الأصح، عبارة "يوم وفاء البحر" أو "وفاء النيل" السابق شرحها. ويسمى أيضاً "موسم الخليج".
وفى عصر اليوم السابق على

قطع السد، تقصد المراكب العديدة، التى يؤجرها جماعات خاصة للتسلية، قريباً من مدخل الخليج. وبين هذه المراكب مركب ضخم، يسمى العقبة، تصنع للمناسبة بشكل زخرفى غليظ، وتحمل مدفعين صغيرين أو أكثر، وتعلق إلى حبالها عدة مصابيح، تكون رسوماً مختلفة، كنجمة كبيرة الخ.. وبهذا المركب أيضاً، فوق القمرة، خيمة مقفلة كبيرة، من الحرير وغيره، تزين برايتين. ويعتقد العامة أن هذا المركب يمثل سفينة فاخرة، تعود المصريون، قبل غزو العرب لبلدهم، أن يحملوا فيها العذراء، التى يقذفونها فى النيل، حسب قولهم. ويغادر المركب بولاق ويعد الظهر بثلاث ساعات، يحمل ركاباً، من الرجال والنساء، مقابل أجر. ويركب النساء عادة، حسب رغبتهن، فى الخيمة الكبيرة المذكورة سابقاً. ويربط المركب إلى ضفة جزيرة الروضة، المقابلة مباشرة لمدخل الخليج. وتظل أغلب المراكب الأخرى أيضاً بجانب "العقبة"، طول الليل على شاطئ الجزيرة، غير أن بعضها تظل تتهادى فى النهر، بالقلوع والمجاديف طول المساء والليل. ويتسلى الملاحون والراكبون بالغناء، بمصاحبة الدربكة والزمارة فى كثير من الأحيان. ويؤجر بعض الجماعات الخاصة الموسيقيين المحترفين ليزيدوا فى تسليتهم على النهر. ويبتهج الحشد بالحفل ابتهاجاً شديداً وقل أن يوجد أجنبى يفكر فى أن يستطيع مشاركتهم تسليتهم. ويبدو أن لا شىء يعوزهم للسرور أكثر من الاحتشاد والضجة، مع الشبك والقهوة. وكان العيد يحضره دائماً، فى السنوات السابقة، الغوازى (وحرم عليهن الرقص الآن)، والمغنون، والموسيقيون، والقصاصون. ويبدأ فى المساء، قبيل الظلام، استعراض الألعاب النارية. ويستمر هذا، مع إطلاق المدافع من العقبة، ومن مركبين مدفعيين أو أكثر، كل ربع ساعة، طول الليل، ويطلق حوالى اثنى عشر مدفعاً فى كل من هذه الأوقات. وكان مجموع الطلقات، ليلة الاحتفال فى العام الحالى، ستمائة طلقة تقريباً. ويحتفظ بأحسن الألعاب النارية للصباح، فتعرض فى ضوء النهار، أثناء قطع السد. وفى الليل، يظهر النهر وضفافه فى منظر جميل يستحق الاعتبار. فالمراكب العديدة تقطعه صعوداً ونزولاً، والمصابيح تعلق على العقبة وعلى المراكب الأخرى، وعلى الشاطئ أيضاً، حيث تثبت المشاعل فى الأرض (والكثير منها تثبت فوق السد وبجواره، وأكثرها على شاطئ الجزيرة). ولأنوار المصابيح تأثير شديد، تزيده بهجة طلقات المدافع، وعرض الألعاب النارية. وشاطئ الجزيرة أكثر الجهات ازدحاماً فى مكان الاحتفال ليلاً. ويسر كل شخص بالنوم هناك، ولا يعوقهم عن ذلك ضجة المدافع وغيرها.

يبدأ العمال فى قطع السد قبل الشروق. ويقع هذا العمل على عاتق "التُربيه" واليهود فى سنين متعاقبة. وتوفى الحكومة كلاهما أجراً. ويضطر اليهود عندما يقع العمل على عاتقهم، فى يوم السبت، إلى دفع مبلغ سخى للخلاص من إثم يجره عليهم إنتهاك حرمة يوم راحتهم، بقيامهم بما تفرضه عليهم الحكومة. ويقطع السد من الخلف بجاروف حتى يدق تدريجياً (إذ ينقل التراب فى سلال ويقذف به فوق الشاطئ)، ويصبح عرض القمة قدماً. ويتم ذلك بعد الشروق بساعة. وقبيل هذا الوقت، عندما تجتمع الحشود المكدسة بجوار السد على ضفتى الخليج، يقدم حاكم العاصمة، وينزل فى

الخيمة الكبيرة المذكورة سابقاً بالقرب من السد. ويحضر أيضاً بعض كبار الموظفين الآخرين. ويحضر القاضى ويكتب الوثيقة (حجة البحر) ليشهد أن النهر بلغ الارتفاع الكافى لفتح الخليج، وأن هذا العمل قد تم، ثم يعجل بإرسال هذه الوثيقة المهمة إلى الأستانة. وأثناء ذلك يستمر إطلاق المدافع، وعرض الألعاب النارية، وعند الإنتهاء من ذلك تعرض احسن الألعاب النارية، التى يصعب رؤيتها فى وهج الشمس المشرقة. وعندما يكون السد قد قطع إلى الحد السابق، ويكون جميع الموظفين الكبار الواجب حضورهم قد وصلوا، يقذف حاكم العاصمة كيساً من النقود الذهبية الصغيرة إلى العمال. ويُدفع بعد ذلك بمركب مأمور الوالى السابق إلى حرف التراب الضيق فيحطم الحاجز الرقيق، ويمر خلاله فوق الشلال الذى أحدث. وهذا المأمور شيخ يسمى حموده، وكان "سرّاج باشى" الوالى". وكانت وظيفته السير أمام سيده مباشرة فى جولاته العادية، يسبقه صف طويل من الضباط فى شوارع المدينة وضواحيها. وعندما يقترب مركب المأمور من السد تماماً، يقذف حاكم القاهرة كيساً من الذهب عطية له. وسريعاً ما يجرف اندفاع الماء بقية السد



الجبرتى/ سنة ١٢١٧

إلى مجرى الخليج، فتدخله مراكب عديدة أخرى، تمر بطول القناة من أول المدينة إلى آخرها، ويتوغل بعضها أميالاً عديدة ثم تعود.

وكان شيخ البلد، أو الباشا، مع موظفين كبار آخرين، يرأس سابقاً هذا العيد، الذى كان كثير الفخامة. وكانت النقود تقذف فى الخليج، فيلقطها العامة، وكان بعضهم يغوص فى الماء بالشباك. وكان الكثيرون يفقدون حياتهم فى التزاحم. وفى هذا العام (١٨٣٤) غرق ثلاثة أشخاص يوم فتح الخليج، أحدهم فى الخليج نفسه، والآخران فى بركة الأزبكية. وبعد أن دخلت منزلى على اثر عودتى من مشاهدة قطع السد واحتفالات الليلة السابقة (وقد امضيت بعضها فى النهر، والبعض الآخر فى جزيرة الروضة) مرت بالقرب من دارى امرأة تلطخ وجهها السافر، وبعض ملابسها، بالطين، وتندب فقد ولدها، الذى كان احد الغرقى الثلاثة، ودخلت المياه بركة الأزبكية بواسطة قناة جديدة فى اليوم السابق على قطع السد. واحتشدت الجموع حول البركة فى هذا اليوم، كما يحتشدون فى عدة أيام تالية (إنى أكتب هذا بعد فتح الخليج بأيام قليلة)، للتمتع بمنظر امتداد الماء الواسع الذى يريح النظر بالرغم من شدة عكارته، فى منطقة جافة مترية مثل القاهرة، وفى هذا الموسم الحار من السنة. ويقام بالقرب منها خيم عديدة حيث تقدم القهوة إلى الزائرين، كما تقام خيمة لبيع الكحول. وتوضع هناك مقاعد ودكك من الجريد. ويعتبر المساء أفضل وقت للتردد على هذا المكان. ويظل كثير من الأشخاص هناك عدة ساعات بعد الغروب، ويقضى البعض طوال الليل. وهناك على العموم قاصان أو ثلاثة. ويشاهد المرء فى كل ساعة من النهار، وأحياناً فى نصف الليل، أناساً يستحمون فى البركة،

واستهل شهر جمادى الأولى
بيوم الاتنين (سنة ١٢١٧)

فى يوم الاتنين تامنه شنقوا تلاته من عسكر الأروام: أحدهم بباب زويله، والتانى ببات الخرق، والتالت بالأزبكيه بالقرب من مسجد عثمان كتخدا، وقتلوا أيضا شخصا بالنحاسين.

وفى يوم التلات تاسعه عمل الباشا ديوانا وفرق الجامكيه على الوجاقليه.

وفيه وردت الأخبار بوقوع حادثه بين الأمرا القبالى والعثمليه، وذلك أن شخصا من العثمليه يقال له أجدر موصوفا بالشجاعه والإقدام أراد أن يكبس عليهم على حين غفله ليكون له ذكر ومنقبه فى أقرانه، فركب فى نحو الألف من العسكر المعدودين وكانوا فى طرف الجبل بالقرب من الهو* فسبق العين إلى الأمرا وأخبرهم بذلك، فلما توسطوا سطح الجبل وإذا بالمصرليه أقبلت عليهم فى ثلاثة طوابير فأحاطوا بهم، فضرب العثمليه بنادقهم طلقا واحدا لا غير ونظروا وإذا بهم فى وسطهم وتحت سيوفهم، ففتكوا فيهم وحصدوهم*، ولم ينج منهم إلا من طال عمره وفر، وأخذ كبيرهم أجدر المذكور أسيرا.

وانجلت الحرب بينهم وأحضروا أجدر بين يدى الألفى،

رجالاً وأطفالاً على الأخص، وبعض البنات أيضاً، وحتى النساء يستحممن وأولاء يعرضن انفسهن امام المارة، والكسالى الجالسين على المقاعد، بطريقة تثر الدهشة فى هذا المكان الذى يعنى النساء فيه عادة بتغطية انفسهن ووجوههن أيضاً، وإن كانت أغلب المستحمات يغطين عادة ما تحت الوسط. وكثيراً ما يغرق المستحمون فى هذا المكان. ويظل المنادى يردد نداءه السابق فى اليوم التالى لقطع السد، ولكنه يستخدم صيغة اخرى عند ذكر ارتفاع النهر، فيقول، مثلاً: "اربعة من الستة عشر"، اى ان النهر زاد اربعة قراريط من الستة عشر ذراعاً. ويظل ينادى إلى يوم النوروز او قبيله. (انظر: ادوراد وليم لين).

* الهو: بلدة قديمة بها آثار مصرية قرب قوص.

* الألفى يقضى على التجريدة العثمانية المرسلة إليه.

فقال له: لأى شى سموك أجدر، فقال الأجدر معناه الأفعى العظيم، وقد صرت من أتباعك. فقال: لكن يحتاج إلى تطريمك* وإخراج سمك أولا، وأمر به فأخذوه وقلعوا أسنانه ثم قتلوه. وأخذوا جميع ما كان معهم، ومن جملة ذلك أربع مدافع كبار.

* خلع اسنانك.

وفيه قلدوا أحمد كاشف سليم إمارة أسيوط وعزل أميرها "مقداد" بك العثمانى، بسبب شكوى أهل النواحى من ظلمه.

وفى منتصفه تواترت الأخبار برجوع الأمرا القبالى إلى بحرى وأنهم وصلوا إلى بنى عدى فنهبوا غلالها ومواشيها وقبضوا أموالها وأعطوهم وصولات بختمهم، وكذلك "الحواوشة" وما جاور ذلك من البلاد فشرع العثمانيه بمصر فى تشهيل تجريده وعساكر.

وفيه حضرت أيضا عساكر كثيره من جنود الأتراك والأرنؤد* فأحضروا مشايخ الحارات وأمروهم بإخلا البيوت لسكناهم، فأزعجوا الكثير من الناس وأخرجوهم من دورهم بالقهر، فحصل للناس غاية الضرر وضاق الحال بالناس، وكلما سكنت منهم طايفه بدار أخربوها وأحرقوا أخشابها وطيقانها وأبوابها، وانتقلوا إلى غيرها فيفعلون بها كذلك، ومن تكلم أو دافع عن داره وبخ بالكلام القبيح الذى لا أصل له وقيل له عجب كنتم تسكنون الفرنسيس

* الجنود الأتراك يطردون الأهالى من منازلهم ويحرقوها بعد سلبها.

وتخلون لهم الدور وأمثال ذلك من الكلام القبيح الذى لا أصل له.

* العسكر العثملى يسلب الحمير.



ولما شرعوا فى تشهيل التجريده حصلت منهم أمور وأذيه فى الناس كثيره، فمنها أنهم طلبوا الحماره المكاريه وأمروهم بإحضار ستماية حمار*، وشددوا عليهم فى ذلك، فقيل إنهم لما جمعوها أعطوهم أثمانها فى كل حمار خمسه ريال. بعدته ولجامه، مع أن فيها ما قيمته خمسون ريالا خلاف عدته.

ثم ما كفاهم ذلك بل صاروا يخطفون حمير الناس من أولاد البلد بالقهر، وكذلك حمير السقايين التى تنقل الماء من الخليج للبيوت حتى امتنعت السقايون بالكليه، وبلغ ثمن القربة الكتافى* من الخليج عشرة أنصاف فضه.

* أى التى تحمل على الكتف.

وتعدى بالخطف أيضا من ليس بمسافر [فى التجريدة]، فكانوا ينزلون الناس من على حميرهم ويذهبون بها إلى الساحة ويبيعونها والبعض تبعهم واشترى حماره بالثمن.

فخبا جميع الناس حميرهم فى داخل الدور، فكان يأتى الجماعة من العسكر ويتصنتون بآذانهم على باب الدار ويتبعون نهيق الحمير*، وبعض شياطينهم يقف على الدار ويقول "زر" ويكررها فينهق الحمار،

* حيلة لخطف الحمير.

فيعلمون به ويطلبونه من البيت فإما أخذوه قهرا أو افتداه صاحبه بما أرادوه وغير ذلك.

وفيه حضر قاضى اسكندريه إلى مصر وذلك أنه لما حضر من إسلامبول طلع إلى داره وحضرت إليه الدعاوى، فأخذ منهم المحصول على الرسم المعتاد فأرسل إليه الانكليز ولاموه على عدم حضوره إليهم وقت قدومه، وقالوا له إن أقمت هنا بتقليدنا إياك فلا تأخذ من أحد شيا ونرتب لك ثلاثة قروش فى كل يوم، وإلا فاذهب حيث شيت فحضر إلى مصر بذلك السبب.

شهر جمادى التانيه [سنة ١٢١٧]

فى خامسه سافرت العسكر بالتجريده إلى الأمرا القبالى، وسافر أيضا عثمان بك الحسينى وباقى العساكر المعزولين وأمير العساكر العثمليه محمد على سرششمه* وكان الباشا أرسل إبراهيم كاشف الشرقيه بجواب إليهم فرجع فى ثامنه بجواب الرساله وأعطاه الألفى ألفين ريال، وقدم له حصانين.

*تجريدة على الأمراء القبالى.

تعرض الصلح على الألفى بشرط ان يلتزم إسنا ولكنه يرفض ويطالب بالبلاد من اسيوط حتى آخر الصعيد.

سرششمة" اى قائد العسكر (الألبانى). وهو محمد على باشا فيما بعد، مؤسس الأسرة العلوية التى حكمت مصر حتى عام ١٩٥٢م.

وحاصل تلك الرسالة كما تقدم:
الأمان لجميع الأمرا المصرليه وأنهم يحضرون إلى مصر ويقيمون بها ولهم ما يرضيهم من الفايظ وغيره، ما عدا الأربعه الأمرا وهم إبراهيم بك والألفى والبرديسى وأبا دياب، فإنهم مطلوبون إلى حضرة السلطان

يتوجهون إليه مع الأمن عليهم، ويعطيهم مناصب وولايات كما يحبون، فإن لم يرضوا بذلك فالباشا يعطيهم إقطاع إسنا ويقيمون بها، فلما وصل إبراهيم أغا المذكور إلى ناحية أسيوط وأرسل إليهم أرسلوا إليه أحمد أغا شويكار ومحمد كاشف الألفى، فانتظروه خارج الجبانه فخرج إليهم ولاقوه وأخذوه صحبتهم إلى عرضهم وأنزلوه فى بوطاق بات به، فلما أصبح الصباح طلبوه إلى ديوانهم فحضر ووقفت عساكرهم صفوفا ببنادقهم، وفيهم كثير على هية اصطفاف الفرنسيس، وعملوا له شنكاً ومدافع، ثم أعطاهم المكاتبه بحضرة الجميع فقروها ثم تكلم الألفى، وقال:

أما قولكم نذهب إلى إسلامبول ونقابل السلطان ينعم علينا فهذا مما لا يمكن، وإن كان مراده، أن ينعم علينا فإننا فى بلاده وإنعامه لا يتقيد بحضورنا بين يديه، وأما باقى إخواننا فهم بالخيار إن شاوا أقاموا معنا وإلا ذهبوا، كل إنسان أمير نفسه، وأما كون حضرة الباشا يعطينا أقطاع إسنا فلا يكفينا هذا وإنما يكفينا من أسيوط إلى آخر الصعيد، ونقوم بدفع خراجه، فإن لم ترضوا بذلك فإن الأرض لله ونحن خلق الله نذهب حيث شينا، وناكل من رزق الله ما يكفينا، ومن تعدى علينا وحاربنا حاربناه حتى يكون من أمرنا ما يكون.

ثم استقروا بقنطرة اللاهون* وكسروا القنطرة وشرعوا فى قبض الأموال من بلاد الفيوم. فلما رجع إبراهيم كاشف بذلك الجواب ركب الباشا فى صبحها إلى

* قنطرة اللاهون: على بحر يوسف بالفيوم.



الآثار*، واستعجل العسكر بالذهاب فعدوا إلى البر الغربى، وتأخر عنهم عثمان بك الحسينى والغز المصرلية وباتوا بطراً.

* منطقة أثر النبى حالياً.

وفيه شنق الباشا رجلا طبجيا فى المشنقه التى عند قنطرة المغربى.

ثم أن عثمان* بك أرسل إلى الباشا يطلب حسين أغا شنن ومصطفى أغا الوكيل ليتفاوض معهما فى كلام، فأرسل له إبراهيم أغا كاشف الشرقيه فأعطاه الخلعه التى خلعها عليه الباشا ودراهم الترحيله، وقال له سلم على الباشا أفندينا، وأخبره أنى جاهدت الفرنسيس وبلوت معهم، ثم إنى حضرت بأمان طايعا فلم أجازى

* عثمان بك يرفض خلعة الباشا ودراهم الترحيلة وينضم إلى الأمرا القبالى، وقد سبق وذكر الجبرتى أنه انفصل عن المماليك وانضم للباشا فى يوم التلات ٢٨ صفر ١٢١٧ هـ.

ولم احصل ما كنت أومله ولم يوف معى وعدا، وأنا لا أقاتل إخوانى المسلمين وأختم عملى بذلك، ولا أقيم بمصر آكل الصدقه، وإنما أذهب سايحا فى بلاد الله، وكان فى ظن عثمان بك أنه إذا أتى إلى مصر على هذه الصوره يجعله الباشا أمير البلاد أو أمير الحاج.

* الباشا ينفى محمد كتخدا الزرية.

وفيه أمر الباشا محمد كتخدا المعروف بالزربه* بالسفر إلى جهة قبلى، فاستعفى من ذلك فأمر بقتله فشفع فيه يوسف كتخدا الباشا، وقال إن له حرمه، وقد كان فى السابق كتخدا لأفندينا، ولا يناسب قتله على هذه الصوره فأمر بسفره إلى جهة البحيرة محافظا، فسافر من يومه.

وأما عثمان بك فإنه ركب وذهب إلى جهة قبلى من الحاجر فى البر الغربى على غير الرسم، وأشيع ذلك فى الناس ولغطوا به، فلما تحقق العثمانيه ذلك رسموا لطوايف العسكر أن يقيموا منهم طوايف بالقلاع التى على التلول، ونصبوا عليها بيارق وأوقفوا حراسا على أبواب المدينة يمنعون من يخرج من المدينة من الغز الخيالة والمصرليه، فمن خرج إلى بولاق أو غيرها فلا يخرج إلا بورقه من كتخدا الباشا.

* الباشا يامر بنهب بيوت الأمراء الحسنية.

وفى ليلة الجمعه عاشره أمر الباشا* بكبس بيوت الأمرا الحسنيه ونهب ما بها من الخيول والجمال والسلاح.

وفيه حضر أغات التبديل إلى بيت الخربطلى بعطفة خُشْقَدَم، وبه جماعة من عسكر المغاربة فكبس



جنود ارنؤد

وقبض على جماعة منهم وكتفهم وكشف روسهم وأحاطت بهم عساكره وسحبوهم، وأخذوا ما وجدوه فى جيوبهم على هيه شنيعه، ومروا بهم على الغوريه ثم على النحاسين وباب الشعريه حتى انتهوا بهم إلى الأزبكيه على حارة النصارى ودخلوا بهم بيت الباشا، وهم لا يعلمون لهم ذنبا، فلما مثلوا بين يدى كتخدا الباشا ذكر لهم أن بجوارهم ديرا للنصارى وأنهم فتحوا طاقا صغيرا يطل على الدير، فقالوا لا علم لنا بذلك، وأخبروا أن جماعه من الأرنؤد ساكنون معهم بأعلى الدار فيحتمل أن ذلك من فعلهم، فأرسلوا من كشف عن ذلك فوجدوه كما قال المغاربه، فأطلقوهم بعد هذه الجرسه الشنيعه ومرورهم بهم إلى حاره النصارى وأخذ دراهمهم ومتاعهم والأمر لله وحده.

* مراسلات واتصلات بين الامرا القبالى والألفى.

وفيه أشيع عن مرور جماعه من الغز [المماليك] القبالى على جهة الجيزه إلى جهة اسكندريه وكذلك جماعه من الانكليز من اسكندريه إلى قبلى.

* تداعى: أى رفع عليه دعوة عند القاضى.

وفيه تداعى* مصطفى خادم مقام سيدى أحمد البدوى مع نسيبه سعد بسبب ميراث أخته، فقال مصطفى: أنا أحاسبه على خمسين ألف ريال، فقال سعد: أنا أستخرج منه مايتى ألف ريال بشرط أن تعوقوه هنا وتعطونى خادمه وجماعة من العسكر، ففعلوا ذلك وعوقوه ببيت السيد عمر [مكرم] النقيب، وتسلم سعد خادمه والعسكر وذهب بهم إلى

طندتا فعاقبوا الخادم، فأقر على مكان أخرجوا منه ستـه وتلاتين ألف ريال فـرانسـه، ثم فـتـحـوا بيـرا مـردومـه بالأتـربه وأخـرجـوا منـهـا ريالات فـرانسـه، وأنصافا وأرباعا كلها مخلوطة بالأتربة وقد ركبها الصدا والسواد فأحضروها وجلوها فى قاعة اليهود، ولم يزالوا يستخرجون حتى غلقوا مايه وسبع وثمانين ألف وسسبعمايه وكسورا خلاف الهالك، وآخر الأمر أخرجوا خبيه لا يعلم قدرها.

ثم حصل العفو ورجع العسكر وأخذوا كرا طريقهم وأخذوا من أولاد عمه عشرة أكياس.

وفى يوم السبت حادى عاشره كان آخر التسخير* فى الهدم ونقل التراب من العماره، وكان آخر ذلك طايفه الخرده من الغياش* والقرداتيه وأرباب الملاعيب وبطل الزمر والطبل، واستمر الفعله فى حفر الأساس ورشح الماء عليهم بأدنى حفر لكون أن ذلك فى وقت النيل والبركة [الازبكية] ملآنة بالماء حول ذلك.

وفى خامس عاشره خرجت عساكر كثيرة ودلاه أيضا وسافروا إلى قبلى.

وفى ثالث عشرينه سافر عساكر فى نحو الأربعين مركب إلى جهة البحيره بسبب عرب بنى عدى* فإنهم حضروا إلى تلك الناحية وحصل منهم ضرر زايد وعاثوا بالبحيره ودمنهور.

* استكمال أعمال السخرة فى الثكنات العسكرية.

* الغياش: مفردها غياش، رجل يتزيا بزى النساء، ويلبس فى يديه غوايش من ذهب تسمى غوايش.

* بنى عدى: كانت قبل الاحتلال العثمانى تابعة لمنفلوط، ثم فصلت عنها، وفى عام ١٢٣٠ هـ قسمت إلى ناحيتين قبلية وبحرية، وفى عام ١٢٣١ هـ فصلت عنهما بنى عدى الوسطانية. والقرى الثلاث تسمى بنى عديات - والنسبة إلى كل ناحية منها عَدَوى. وتقطنها قبائل بنى عدى- انظر القاموس الجغرافى القسم الثانى جـ٤ ص٨٢، ٨٣.

الجبرتى/ سنة ١٢١٧

ومن الحوادث السماويه أن فى تلك الليله وهى ليلة الأربع تانى عشرينه احمرت السما بالسحاب عند غروب الشمس حمره مشوبه بصفره ثم انجلت وظهر فى أثرها برق من ناحية الجنوب فى سحاب قليل متقطع وازداد وتتابع من غير فاصل حتى كان مثل شعله النفط المتوقده المتموجه بالهوا. واستمر ذلك إلى تالت ساعه من الليل، ثم تحول إلى جهة المغرب وتتابع لكنه بفاصل على هيئة البرق المعتاد، واستمر إلى خامس ساعه ثم أخذ فى الاضمحلال وبقى أثره غالب الليل، وكان ذلك فى ليلة سادس عشرين درجه من برج الميزان وحادى عشر "بابه" القبطى وتامن تشرين أول الرومى، ولعل ذلك من الملاحم المنذره بحادث من الحوادث.

* عواصف رعدية.

وفيه ورد الخبر بورود مركب من فرانسا وبها ألجى وقنصل* وصحبتهما عدة فرنسيس فعمل لهم الانكليز شنكا ومدافع باسكندريه، فلما كان ليلة التلات تامن عشرينه وصل ذلك (الألجى) وصحبته خمسة من أكابر الفرنسيس إلى ساحل بولاق، فأرسل لهم الباشا لملاقاتهم خازنداره وصحبته عدة عساكر خياله وبأيديهم السيوف المسلوله فقابلوهم وضربوا لهم مدافع من بولاق والجيزه والأزبكيه، وركبوا إلى دار أعدت لهم بحارة البنادقه، وحضروا فى صبحها عند الباشا وقابلوه، وقدم لهم خيلا معدده وأهدى لهم هدايا وصاروا يركبون فى هيئه وأبهه معتبره، وكان فيهم جبير ترجمان بونابرته.

* ألجى: كلمة تركينه تكتب إيلجى ومعناها رسول خاص أو سفير. وهو هنا المسيو سباستيانى الوزير المفوض من قبل نابليون بونابرت، والذى قابل مجموعة مشايخ الديوان القديم وذكروا له انهم يتمنون عودة الحكم الفرنسى لمصر.

وفيه وردت الأخبار بأن الغز [المماليك] القبالى نهبوا بلاد الفيوم وقبضوا أموالها ونهبوا غلالها ومواشيها وحرقوا البلاد التى عصت عليهم وقتلوا أناسها، حتى قتلوا من بلدة واحده مايه وخمسين نفرا، وأما العثمانيه الكاينون بالفيوم فإنهم تحصنوا بالبلدة وعملوا لهم متاريس بالمدينه وأقاموا داخلها.

شهر رجب الفرد [١٢١٧]

* استمرار أعمال السخرة فى ثكنات الجيش العثملى.

استهل بيوم الجمعه، وفيه رموا أساس عمارة الباشا*، وكان طلب من الفلكيين أن يختاروا له وقتا لوضع الأساس، ففعلوا ذلك وكان بعد اثنى عشر يوما من يوم تاريخه فاستبعده وأمر برمى الأساس فى اليوم المذكور، ورب النجم يفعل ما يشا.

وفيه أحضروا أربعة روس فوضعت عند باب الباشا، زعموا أنهم من قتلى الغز المصرليه.

وفى خامسه يوم التلات سافر الألجى الفرنساوى وأصحابه، فنزلوا إلى بولاق وأمامهم مماليك الباشا بزينتهم، وهم لابسين الزروخ والخوذ وبأيديهم السيوف المسلوله وخلفهم العبيد المختصه بالباشا، وعلى روسهم طراطير حمر وبأيديهم البنادق على كواهلهم، فلم يزالوا صحبتهم حتى نزلوا ببيت "راشتو" ببولاق، ثم رجعوا ثم نزلوا المراكب وسافروا إلى جهة دمياط،

وضربوا لهم مدافع عند تعويمهم السفن.

وفيه أشيع انتشار الأمرا القبالى إلى جهة بحرى وحضروا إلى أقاليم الجيزه، وطلبوا منها الكلف حتى وردان*.

* وردان: إحدى قرى مركز إمبابة - محافظة الجيزة.

* الباشا يقطع راس محمد كتخدا الزربه.

وفيه حضر محمد كتخدا المعروف بالزربه الذى كان كتخدا الباشا، وتقدم أنه كان أمره بالسفر إلى قبلى، فامتنع وأذن له بالسفر إلى البحيره محافظا، فلما تقدم طوايف الأمرا إلى بحرى فمر منهم جماعة قليله على محمد كتخدا الزربه المذكور، فلم يتعرض لهم مع قدرته على تعويقهم، فبلغ الباشا ذلك فحقدها عليه، وأرسل إليه وطلبه إلى الحضور فحضر، فلما كان يوم السبت تاسعه طلبه الباشا فى بكرة النهار فلما حضر أمر بقتله فنزل به العسكر ورموا رقبته عند باب الباشا، ثم نقلوه إلى المفارق قبالة حمام عثمان كتخدا، فاستمر مرميا عريانا إلى قبيل الظهر، ثم شالوه إلى بيته وغسلوه فى حوش البيت سكنه ودفنوه، وعند موته أرسل الدفتردار فختم على داره وأخرج حريمه وفى تانى يوم أحضروا تركته ومتاعه وباعوا ذلك ببيت الدفتردار.

وفيه وردت مكاتبات من الديار الروميه وفيها الخبر بعزل شريف محمد أفندى الدفتردار وولاية خليل أفندى الرجاوى المنفصل عن الدفترداريه عام أول، فحزن الناس لذلك حزنا عظيما فإن أهل مصر لم يروا

راحه من وقت دخول العثمانيه إلى مصر من نحو أربعين سنة سوى هذه السنه التى باشرها هو، فإنه أرضى خواطر الصغير قبل الكبير والفقير قبل الغنى، وصرف الجامكيه وغلال الأنبار عينا وكيلا، وكان كثير الصدقات ويحب فعل الخير والمعروف، وكان مهذبا فى نفسه بشوشا متواضعا، وهو الذى أرسل يطلب الاستعفا من الدفترداريه لما رأى من اختلال أحكام الباشا.

وفى يوم الاتنين حادى عاشره عدى يوسف كتخدا الباشا إلى بر إنبابه وعدى معه الكثير من العسكر ونصب العرضى ببر إنبابه على ساحل البحر [النيل]، وأشيع وصول الأمر إلى ناحية الجسر الأسود* وقطعوا الجسر لأجل تصفية المياه وانحدارها من الملق لأجل مشى الحافر [الدواب]، ثم رجعوا ناحية المنصوريه وبشتيل**.

* الجسر الأسود: جسر كان يصل بين ضفتى النيل يقع شمال الجيزة عند قرية أم دينار.

** بشتيل: قرية من قرى مركز إمبابة - محافظة الجيزة.

واستمر خروج العسكر العثمانيه التى كانت جهة قبلى إلى بر إنبابه وهم كالجراد المنتشر ونصبوا وطاقهم ظاهر إنبابه، واستمر خروج العساكر والطلب ونقل البقسماط والجبخانه على الجمال والحمير ليلا ونهارا وأخذوا المراكب ووسقوها معهم فى البحر وغصبوا ما وجدوه من السفن قهرا.

وانتشرت عساكرهم وخيامهم ببر إنبابه حتى ملوا الفضا بحيث يظن الرائى أنهم متى تلاقوا مع الغز

المصرليه أخذوهم تحت أقدامهم لكثرتهم واستعدادهم بحيث كان أوايل العرضى عند الوراريق وآخرهم بالقرب من بولاق الدكرور طولا، ثم إن الأمرا رجعوا إلى ناحية وردان والطرانه.

وفى يوم الجمعه خامس عشره انتقل العرض من بر إنبابه وحلوا الخيام. وفى ثانى يوم خرجت عساكر خلافهم ونصبت مكانهم وسافروا وخرج خلافهم وهكذا دأبهم فى كل يوم تخرج طايفه بعد أخرى.

وفيه رسم الباشا بألف أردب قمح إنعام تفرق على طلبة العلم والمجاورين والأروقه بالجامع الأزهر ففرقت بحسب الأغراض، وأنعم أيضاً بعد أيام بألف أخرى فعل بها كذلك.

وإنها خطرات من وساوسه   يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

وفى يوم الاحد سابع عشره وصل جماعة ططر واخبروا بتقليد شريف محمد افندى الدفتردار ولاية جده. .

وفى يوم الثلاث تاسع عشره خرج طاهر باشا ونصب وطاقه جهة إنبابه للمحافظه، وخرجت عساكره ونصبت وطاقاتهم ببر إنبابة أيضا متباعدين عن بعضهم البعض واستمروا على ذلك.

وفى يوم الجمعة ثانى عشرينه حضر رجل من طرف

الدولة يقال له حجان وهو رجل عظيم من أرباب الأقلام؛ وعلى يده فرمان* فأرسل الباشا إلى ملاقاته وأصبح عمل ديوانا وجمع فيه المشايخ والقاضى والوجاقليه وحضر شريف أفندى الدفتردار والقاضى والمشايخ وجمعهم بعد الظهر وقرى عليهم ذلك الفرمان وهو خطاب إلى حضرة الباشا، وملخصه:

أننا اخترناك لولاية مصر لكونك عريقا فى رجال الدوله وربيت بالسرايه، ولما نعلمه منك من نور عقلك وحسن سياستك والشجاعه، وأرسلنا إليك عساكر كثيره وأمرناك بقتل الخاينين، وإخراج الأربعة* أنفار من الإقليم المصرى بشرط الأمان عليهم من القتل وتقليدهم ما يختارونه من المناصب فى غير إقليم مصر وإكرامهم غاية الإكرام إن امتثلوا الأوامر السلطانيه (وأطلقنا لك التصرف فى الأموال الميريه لنفقة العسكر واللوازم؛ وما عرفنا الموجب تأخير أمرهم لهذا الوقت، فإن كنت محتاجا إلى الامداد أو المال أرسلنا إليك الأمداد الكثيره من العساكر، أو المال أرسلنا إليك كذلك) وإن لم يمتثلوا، وكل من انضم إليهم مثلهم، ومن شذ عنهم وطلب الأمان فهو مقبول وعليه الأمان إلى آخر ما ذكر من ذلك المعنى.

* فرمان من طرف السلطنة بخصوص الأمرا القبالى.

* المقصود هنا بالأربعة انفار: إبراهيم بك، الألفى، البرديسى، ابو دياب.

وفى يوم السبت ثالث عشرينه كتبت أوراق بمعنى ذلك وألصقت بالطرقات.

وفى خامس عشرينه تواترت الأخبار بوقوع معركه بين العثمانيين والأمرا المصرليه بأراضى دمنهور*، وقتل

* هزيمة العسكر العثمانى أمام الألفى فى دمنهور.

من العساكر العثمانية مقتله عظيمه. وكانت الغلبه للمصرليين وانتصروا على العثمانيين.

وصورة ذلك. أنه لما تراى الجمعان واصطفت عساكر العثمانيين الرجالة ببنادقهم واصطفت الخياله بخيولهم، وكان الألفى بطايفه من الأجناد نحو التلاثماية قريبا منهم وصحبتهم جماعة من الانكليز، فلما رأوهم مجتمعين لحربهم قال لهم الانكليز ماذا تصنعون؟ قالوا نصدمهم ونحاربهم، قال الانكليز انظروا ما تقولون إن عساكرهم الموجهين إليكم أربعة عشر ألفا وأنتم قليلون؟ قالوا: النصر بيد الله، فقالوا دونكم. فساقوا إليهم، واقتحموا إلى الخياله، فقتل منهم من قتل، فانهزم الباقون وتركوا الرجاله خلفهم، ثم كروا على الرجاله، فلم يتحركوا بشى وطلبوا الأمان فساقوا منهم نحو السبعمايه مثل الأغنام. وأخذوا الجبخانه والمدافع وغالب الحمله والانكليز وقوف على علوه ينظرون إلى الفريقين بالنظارات.

فلما تحقق الباشا ذلك اهتم فى تشهيل عساكر ومدافع وعدوا إلى بر إنبابه ونصبوا وطاقهم هناك وانتقل طاهر باشا إلى ناحية الجيزه.

استهل شعبان بيوم السبت سنة ١٢١٧

* استمرار أعمال السخرة الحربية.

فيه شرعوا فى عمل متاريس جهة الجيزه وقبضوا على

أناس كثيرة من ساحل مصر القديمة ليسخروهم فى العمل.

وفيه حضر الكثير من العساكر المجاريح وجمع الباشا النجارين والحدادين وشرع فى عمل شر كفلك فاشتغلوا فيه ليلا ونهارا حتى تمموه فى خمسة أيام وحملوه على الجمال وأنزلوه المراكب وسفروه إلى دمنهور فى سادسه.

وفى عاشره كتبوا عدة أوراق وختم عليها المشايخ ليرسلوها إلى البلاد خطابا لمشايخ البلاد والعربان مضمونها معنى ما تقدم، وكتبوا كذلك نسخا ولصقوها بالأسواق وذلك بإشارة بعض قرنا الباشا المصرليه وهى بمعنى التحذير والتخويف لمن يسالم الأمرا المصرلية وخصوصا المغضوب عليهم مطرودين السلطنه العصاه إلى آخر معنى ما تقدم.

وفى هذه الأيام كثرت الغلال حتى غصت بها السواحل والحواصل ورخص سعرها حتى بيع القمح بمايه وعشرين نصفا الإردب، واستمرت الغلال مُعَرَّمه فى السواحل، ولا يوجد من يشتريها وكان شريف أفندى الدفتردار أنشا أربعة مراكب كبار لحمل غلال الميرى.

ولما حصلت النصره للمصرليه على العثمانيه، خصوصا هذه المره مع كثرتهم وقوتهم واستعدادهم ضبَّعوا فيهم واحتقروهم ووقفوا على سواحل النيل يمنعون الصادر والوارد منهم ومن غيرهم، وأما الباشا فإنه سخط على

العساكر وصار يلعنهم ويشتمهم فى غيابهم وحضورهم.

وفيه حضرت جماعة من أشراف مكه وعلماها هروبا من الوهابيين* وقصدهم السفر إلى إسلامبول يخبرون الدوله بقيام الوهابيين، ويستنجدون بهم لينقذوهم منهم ويبادروا لنصرهم عليهم، فذهبوا إلى بيت الباشا والدفتردار وأكابر البلد وصاروا يحكون ويشكون وتنقل الناس أخبارهم وحكاياتهم.

* ثانى إشارة للوهابية.

استهل شهر رمضان المعظم سنة ١٢١٧

عملت الرؤيه ليلة الأحد، وركب المحتسب ومشايخ الحرف على العادة ولم ير الهلال وكان غيما مطبقا فلزم إتمام عدة شعبان ثلاثين يوم، فانتبذ بعض الفقها وتبعه آخر وشهدا انهما رايا هلال شعبان ليلة الجمعه، فقبله القاضى وحكم به تلك الليله، على أن ليلة الجمعه التى شهدوا برويته فيها لم يكن للهلال وجود ألبتة، وكان الاجتماع فى سادس ساعه من ليلة الجمعه المذكورة بإجماع الحساب والدساتير المصريه والروميه، على أنه لم ير الهلال ليلة السبت إلا حديد البصر فى غاية العسر والعجب، وشهر رجب كان أوله الجمعة وكان عسر الرؤيه أيضا، وأن الشاهد بذلك لم يتفوه به إلا تلك الليله فلو كانت شهادته صحيحه لأشاعها فى أول الشهر ليوقع ليلة النصف التى هى

* احتفال رؤية هلال رمضان.

من المواسم الإسلاميه فى محلها حيث كان حريصا على إقامة شعاير الإسلام.

وفيه حضرت جماعه من أشراف مكه وغيرها. وفى خامس عشرينه حضر خليل أفندى الرجاوى الدفتردار فى قله من أتباعه وترك أثقاله بالمراكب، وركب من مدينة فوه وحضر على البر؛ وذلك بسبب وقوف جماعه من الأمرا المصرليه ناحية النجيله يقطعون الطريق على المارين فى المراكب، ولما حضر نزل ببيت إسماعيل بك بالأزبكيه.

وفى غايته وقع ما هو أشنع* مما وقع فى غرته، وذلك أن ليلة الاتنين غايته كان بالسما غيم مطبق ومطر ورعد وبرق متواتر، وأوقدت قناديل المنارات والمساجد، وصلى الناس التراويح، واستمر الحال إلى سابع ساعه من الليل، وإذا بمدافع كثير وشنك من القلعه والأزبكيه.

* امطار رعدية.

ولغط الناس بالعيد وذكروا أن جماعه حضروا من دمنهور والبحيره وشهدوا أنهم رأوا هلال رمضان ليلة السبت، فذهبوا إلى بيت الباشا، فأرسلهم إلى القاضى فتوقف فى قبول شهادتهم فذهبوا إلى الشيخ الشرقاوى فقبلهم وأيدهم وردهم إلى القاضى، وألزمه بقبول شهادتهم، فكتبوا بذلك إعلاما إلى الباشا وقضوا بتمام عدة رمضان بيوم الأحد ويكون غرة شوال صبحها يوم الاتنين وأصبح الناس فى أمر مريج منهم الصايم ومنهم المفطر فلزم من ذلك أنهم جعلوا رجب

تمانيه وعشرين يوما وشعبان تسعه وعشرين وكذلك رمضان، والأمر لله وحده.

شهر شوال سنة ١٢١٧

كان أوله الحقيقى يوم التلات وجزم غالب الناس المفطرين بقضا يوم الاتنين.

وفى خامسه وصلت أثقال خليل أفندى الرجاوى* الدفتردار وفيه طلبوا ألف كيس سلفه من التجار وأرباب الحرف، فوزعت وقبضت على يد السيد أحمد المحروقى، وهى أول حادثه وقعت بقدوم الدفتردار.

* الدفتردار خليل افندى الرجاوى يقرر فردة على التجار وارباب الحرف.



وفى يوم الخميس عاشره نصب جاليش شريف باشا المعبر عنه بالطوخ عند بيته بالأزبكيه وضربت له النوبه التركيه وأهدى له الباشا خياما كثيره وطقما ولوازم.

وفى يوم الاتنين تانى عشرينه كان خروج أمير الحاج* بالموكب والمحمل المعتاد إلى الحصوه، وكان ركب الحجاج فى هذه السنة عالما عظيما وحضر الكثير من حجاج المغاربه من البحر، وكذلك عالَم كثير من الصعيد والقرى القبليه والبحرية والأروام، والقرمان وغير ذلك.

* خروج أمير الحاج.

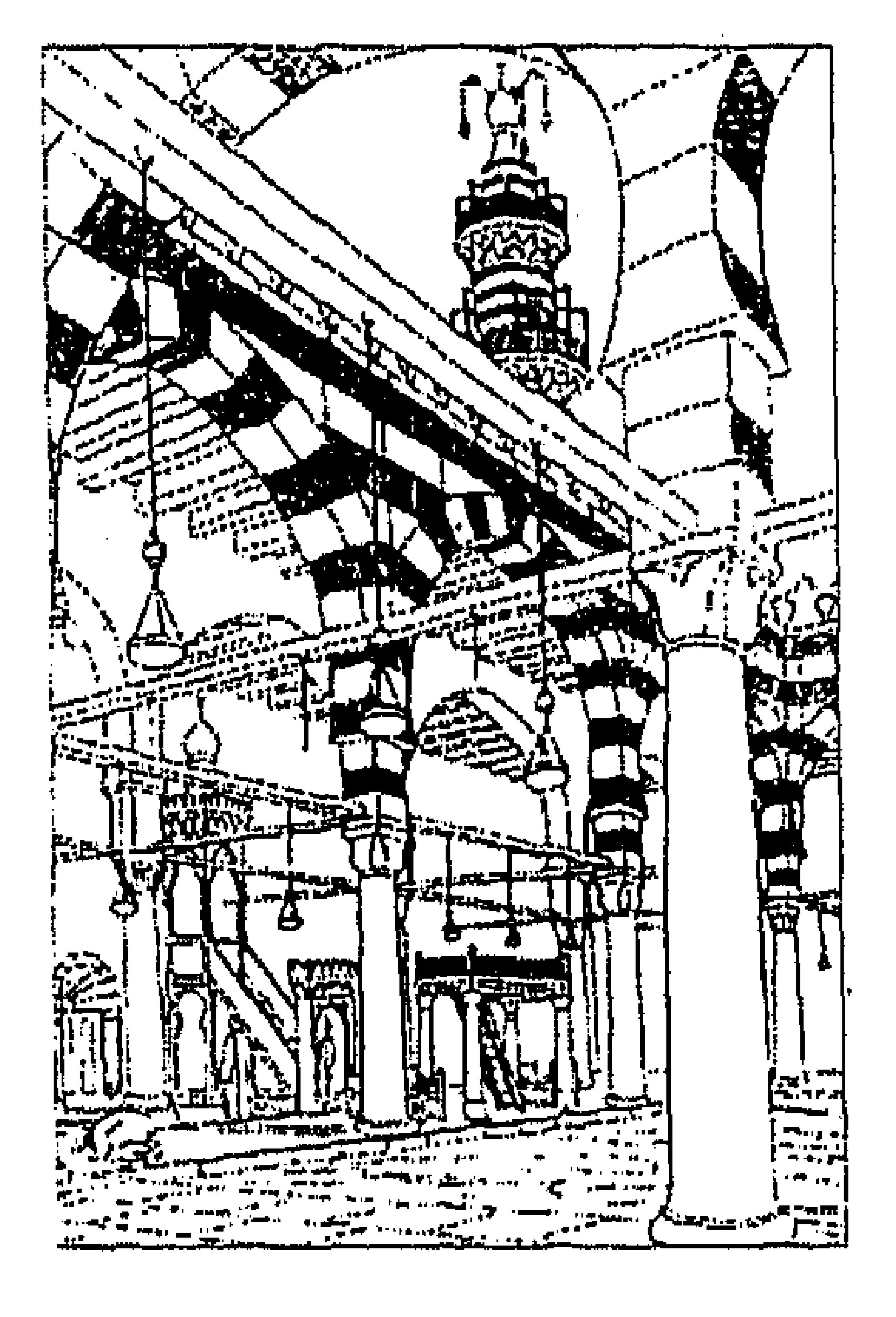


وفى يوم الخميس خامس عشرينه خرج شريف باشا فى موكب جليل ونصب وطاقه عند بركة الشيخ قمر فأقام به إلى أن يسافر إلى جده من القلزم، وانتقل خليل أفندى الرجاوى الدفتردار إلى دار شريف باشا بالأزبكيه.

وفى غايته حضر أولاد الشريف سرور شريف مكه هروبا من الوهابيين ليستنجدوا بالدوله فنزلوا ببيت السيد أحمد المحروقى بعد ما قابلوا محمد باشا والى مصر وشريف باشا والى جده.

شهر ذى القعدة الحرام سنة ١٢١٧

الجامع الأزهر من الداخل



استهل بيوم الأربعا فيه تقدم الناس بطلب الجامكيه فأمرهم الدفتردار بكتابة عرضحالات فثقل عليهم ذلك فقالوا: إننا كتبنا عرضحالات فى السنه الماضيه وأخذنا سنداتنا من الدفتردار المنفصل، ودفع لنا سنة ستة عشر، فقيل لهم: إنه دفع لكم سنة معجله، والعبرة بتاريخ السندات والحساب لا يكون إلا من يوم التوجيه، فضجوا من ذلك وكثر لغط الناس بسبب ذلك وأكثروا من التشكى من الدفتردار.

وفى سادسه * اجتمع الكثير من النسا بالجامع الأزهر وصاحوا بالمشايخ [مطالبين بالجامكيه] وأبطلوا دروسهم [المشايخ] فاجتمعوا بقبلته ثم ركبوا إلى

* تظاهرات النساء.

الباشا فوعدهم بخير حتى ينظر فى ذلك، وبقى الأمر وهم فيه كل يوم يحضرون، وكثر اجتماعهم بالأزهر وباب الباشا فلم يحصل لهم فايده من ذلك سوى أن رسم لهم بموجب آخر سنة تاريخه معجله، ولم يقبضوا منها إلا ما قل بسبب تتابع الشرور والحوادث.

وفى حادى عاشره يوم السبت ارتحل شريف باشا إلى بركة الحج متوجها إلى السويس.

وفيه ارتحل حجاج المغاربه وكانوا كثيرين فسافر أغنياهم والكثير من فقراهم من طريق البر وآخرون من السويس على القلزم.

وفى رابع عشره حضر ططريات إلى الباشا* وعلى يدهم مثالات شريفة وبشارة بتقريره على السنه الجديده، وزيد له تشريف تترخانيه، ومعناه مرتبه عاليه فى الوزاره فضربوا شنك ومدافع متواليه يومين.

* بشارة للباشا بتعيينه سنة جديدة ورفع رتبته فى الوزارة.

وفيه أشيع انتقال الأمرا المصرليه من جهة البحيره وقبلوا* إلى ناحية الجسر الأسود، وأشيع أيضا أن جماعة منهم نزلوا بصحبة جماعة من الإنكليز إلى البحر قاصدين التوجه إلا إسلامبول، وانتقل كتخدا بك خلفهم بعساكره ولكن لم يتجاسروا على الإقدام عليهم.

* أى توجهوا إلى الوجه القبلى.

وفيه وصلت الأخبار من الديار الشاميه بهروب*

* هروب والى يافا محمد باشا ابو مرق واستيلاء احمد الجزار عليها.

محمد باشا أبو مرق من يافا واستيلا أحمد باشا الجزار عليها، وذلك بعد حصاره فيها سنه وأكثر.

وفى رابع عشره حضر كتخدا الباشا وتقدم الأمرا المصرليه إلى جهة قبلى حتى عدوا الجيزه وحصل منهم ومن العساكر العثمانيه الضرر الكثير فى مرورهم على البلاد: من التفاريد والكلف ورعى الزروع وقطع الطرق برا وبحرا.

وكان أغات الجوالى القبليه وهو نجيب أفندى كتخدا الدفتردار مسافرا إلى قبلى وصحبته أرباب مناصب عدوا إلى الجيزه، ونصبوا خيامهم هناك، فصادفوهم [الامرا القبالى] وهجموا عليهم وقتلوا منهم من وجدوه وهرب الباقون، فاستولوا على خيامهم ووطاقهم وكذلك كتخدا الدفتردار خرج إلى مصر القديمة متوجها إلى الصعيد لقبض الغلال والأموال فاستمر مكانه وتأخر لعدم المراكب وخوفا من المذكورين.

وفيه ورد الخبر بنزول شريف باشا إلى المراكب بالقلزم يوم الخميس سادس عشره.

* خليل افندى الدفتردار يقرر فرده اخرى على التجار.

وفى يوم الاربع تانى عشرينه طلبوا أيضا خمسة آلاف كيس سلفه من التجار ثلاثة آلاف كيس ومن الملتزمين ألفا كيس، وشرعوا فى توزيعها، فانزعج الناس وأغلق أهل الغوريه حوانيتهم، وكذا خلافهم وهرب

أهل وكالة الصابون إلى الشام على الهجن، واختفى أكثر الناس مثل السكريه وأهل مرجوش وخلافهم، فطلبوا المعينون ولزموا بيوتهم وسمروا مطابخ السكر، وكذلك عملوا فرده على البلاد أعلى وأوسط وأدنى: الأعلى خمسمايه ريال والأوسط تلاتمايه والأدنى مايه وخمسون.

* خروج الإنجليز من الإسكندرية وصحبتهم محمد بك الألفى.

وفيه تحقق الخبر بنزول طايفة الانكليز* وسفرهم من ثغر اسكندريه فى يوم السبت حادى عشرد، ونزل بصحبتهم محمد بك الألفى وصحبته جماعة من خمسة عشر شخصا من مماليكه الصغار وأتباعه.

وفى خامس عشرينه حضر أحمد باشا والى دمياط وكانوا أرسلوا له طوْخا ثالثا، وأن يحضر ويتوجه لمحافظة مكه وكذلك قلدوا آخر باشوية المدينة يسمى أحمد باشا وضموا لها عسكرا يسافرون صحبتهم من الوهابيين وأخذوا فى التشهيل.

* العسكر العثمليه تنهب الأهالى وتخطف النساء والمردان.

وفى هذه الأيام تشكى العسكر* من عدم الجامكيه والنفقه فإنه اجتمع لهم جامكيه نحو سبعة أشهر وقد قطع عليهم الباشا رواتبهم وخرجهم لقلة الإيراد وكثرة المطلوبات وكراهته لهم، فصار كبراهم يترددون ويكثرون من مطالبة الدفتردار حتى كان يهرب من بيته غالب الأيام، وأشيع بالمدينة قيام العسكر وأنهم قاصدون نهب أمتعة الناس فنقل أهل الغورية وخلافهم بضايعهم من الحوانيت وامتنع الكثير منهم

من فتح الحوانيت، وخافهم الناس حتى فى المرور وخصوصا أوقات المسا، فكانوا إذا انفردوا بأحد شلحوه من ثيابه وربما قتلوه، وكذلك أكثروا من خطف النساء والمردان.

وفى ليلة التلات تامن عشرينه كان انتقال الشمس لبرج الحمل وأول فصل الربيع، وفى تلك الليله هبت رياح شماليه شرقيه هبوبا شديدا مزعجا واستمرت بطول الليل.

وفى آخر الليل قبل الفجر اشتد هبوبها ثم سكنت عند الشروق وسقط تلك الليلة دار بالحباله بالرميله، ومات بها نحو تلات أشخاص وداران أيضا بطولون وغير ذلك حيطان وأطارف أماكن قديمه، ثم تحولت الريح إلى غربيه قويه واستمرت عدة أيام ومعها غيم ومطر.

وفيه وصل الأمرا القبالى المصرليه إلى الفيوم فأخذوا كلفا ودراهم كثيره فردوها على البلاد، ثم سافروا إلى الجهه القبليه.

وفيه ورد الخبر* بأن المراكب التى فيها ذخيرة أمير الحاج بالقلزم المتوجهه إلى الينبع والمويلح غرقت بما فيها ومركب الجميعى* من جملتها.

* غرق مراكب امير الحاج.

* الجميعى: هو احد التجار المشهورين فى البحر الأحمر وقتها.

وفيه حضر مصطفى بينباشى [مقدم ألف] الذى كان أيام الوزير بمصر إلى بلبيس وهو موجه بطلب مبلغ

دراهم فأقام ببلبيس حتى شهلوها وأرسلوها له، ثم ذهب إلى دمياط وصحبته نحو الأربعمايه من الأرنؤد ليسافر من البحر.

وفيه توجه السيد أحمد المحروقى* والكثير من الناس لزيارة سيدى أحمد البدوى لمولد الشرنبلاليه، وأخذ معه عدة كثيرة من العسكر خوفا من العربان، ووصل إليه فرمان بطلب دراهم من أولاد الخادم ومن أولاد البلد، فدلوا على مكان لمصطفى الخادم فاستخرجوا منه ستة آلاف ريال وطلبوا من كل واحد من أولاد عمه مثلها.

* المحروقى يتوجه للاحتفال بمولد أحمد البدوى.

شهر ذى الحجة الحرام سنة ١٢١٧

استهل بيوم الجمعه فى يوم الاثنين رابعه قتلوا شخصا عسكريا نصرانيا عند باب الخرق قتله أغا التبديل بسبب أنه كان يقف عند باب داره بحارة عابدين هو ورفيقان له يخطفون من يمر بهم من النسا أثنا النهار إلى أن قبض عليه وهرب رفيقاه.

وفيه أيضا أخرجوا من دار بحارة خشقدم قتلى كثيره نسا ورجال من فعل العسكر.

وفيه عدى إبراهيم باشا إلى بر الجيزه.



فرقة غوازى تحتفل بالعيد

وفى يوم الأحد عاشره كان عيد الأضحى. وفى ذلك اليوم حضر من الأمرا القبالى مكاتبه على يد الشيخ سليمان الفيومى خطابا للمشايخ فأخذها بختمها وذهب بها إلى الباشا ففتحها واطلع على ما فيها ثم طلب المشايخ فحضروا إليه وقت العصر.

وفى يوم الجمعه خامس عشره حضرت مكاتبات من الديار الحجازيه يخبرون فيها عن الوهابيين* أنهم

* هجوم الوهابية على الطايف واحتلالها بعد خيانة المضايفى نسيب شريف مكة.
الجبرتى/ سنة ١٢١٧



احتفال الأهالى بالعيد

حضروا إلى جهة الطايف، فخرج إليهم شريف مكه الشريف غالب، فحاربهم فهزموه فرجع إلى الطايف وأحرق داره التى مر بها وخرج هاربا إلى مكه فحضر الوهابيون إلى البلده وكبيرهم المضايفى نسيب الشريف وكان قد حصل بينه وبين الشريف وحشه، فذهب مع الوهابيين وطلب من مسعود الوهابى أن يؤمّره على العسكر الموجه لمحاربة الشريف، ففعل فحاربوا الطايف وحاربهم أهلها تلات أيام حتى

غلبوا ، فأخذ البلدة الوهابيون* واستولوا عليها عنوه وقتلوا الرجال وأسروا النسا والأطفال، وهذا دأبهم مع من يحاربهم.

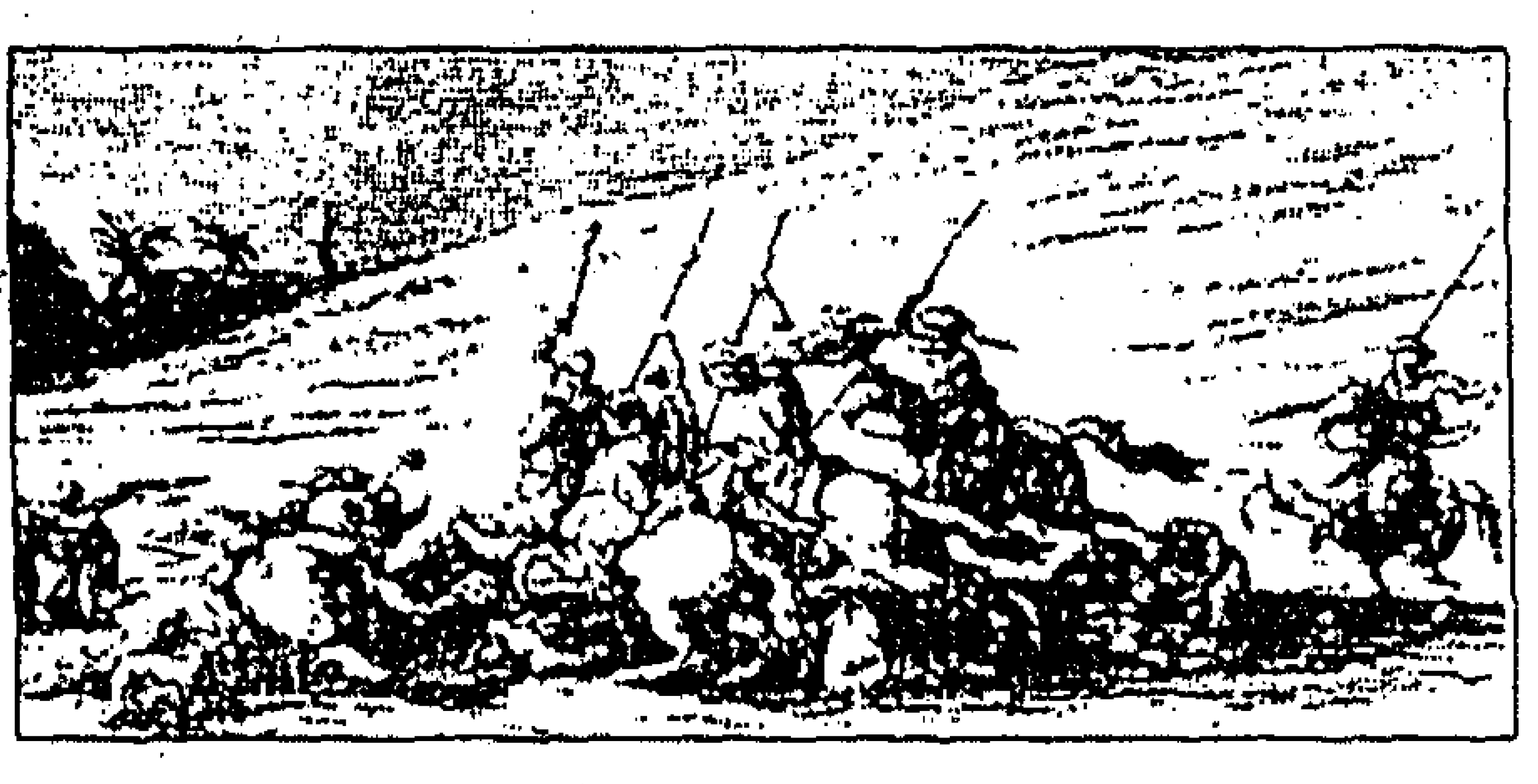
* الوهابيون يقتلون الرجال ويأسرون النساء والأطفال وهذا دابهم.

وفي ذلك اليوم مر أربعة أنفار من العسكر وأخذوا غلاما لرجل حلاق بخط بين السورين عند القنطره الجديدة، فعارضهم الأسطى الحلاق فى أخذ الغلام*، فضربوا الحلاق وقتلوه ثم ذهبوا بالغلام إلى دارهم بالخطه، فقامت في الناس ضجه وكرشه، وحضر أغات التبديل فطلبهم فكرنكوا* بالدار وضربوا عليه البنادق من الطيقان فقتلوا من أتباعه ثمانية أنفار.

* تفشى حوادث اعتداء العسكر العثملى على النساء والأطفال ثم ذبحهم.

* كرنكوا: اى تحصنوا وعملوا متاريس.

ولم يزالوا على ذلك ثاني يوم، فركب الباشا في التبديل، ومر من هناك وأمر بالقبض عليهم فنقبوا عليهم من خلف الدار وقبضوا عليهم بعد ما قتلوا وجرحوا آخرين، فشنقوهم ووجدوا بالدار مكانا خربا أخرجوا منه زيادة عن ستين امرأه مقتوله وفيهن من وجدوها وطفلها مذبوح معها في حضنها.



وفيه حضر على أغا الوالي إلى بيت أحمد شويكار بدرب سعادة وأخرج منه قتلى كثيره وأمثال ذلك شى كثير.

وفى خامس عشره أيضا أمر الباشا الوجاقيه أن يتهيوا ويخرجوا جهة العادليه لأجل الغفر من العربان فإنهم فحش أمرهم وتجاسروا فى التعريه والخطف حتى على نواحى المدينة، بل وطريق بولاق وغير ذلك.

فلما كان فى تانى يوم ركب الوجاقليه المذكورون بأبهتهم وبيارقهم وحضروا إلى بيت الباشا وخرجوا من هناك إلى وطاقهم الذى أعدوه لأنفسهم خارج القاهره وشرعوا فى تعمير قصر من القصور الخارجه التى خربت أيام الفرنسيس.

وفى تاسع عشره سافر جماعه من الوجاقليه المذكورين وصحبتهم عده من العسكر إلى جهة عرب الجيزه بسبب إغارة موسى خالد ومن معه على البلاد وقطع الطرق، فلاقاهم المذكور وحاربهم وهزمهم إلى وردان وذهب هو إلى جهة البحيرد.

وفى رابع عشرينه يوم الأحد كان عيد النصارى الكبير فى ليلتها وهى ليلة الاتنين وقع الحريق* فى الكنيسه التى بحارة الروم وفى صبحها شاع ذلك فركب إليها أغات الإنكشاريه والوالى وأحضروا السقاين والفعله الذين يعملون فى عمارة الباشا، حتى أخذوا الناس المجتمعه بسوق المؤيد بالأنماطين، وحضر الباشا أيضا فى التبديل واجتهدوا فى إطفاها بالماء والهدم حتى طفيت فى تانى يوم واحترق بها أشياء كثيره وذخاير وأمتعه ونهبت أشيا [كثيرة].

* احتراق كنيسة حارة الروم فى يوم العيد.

وفيه وردت أخبار بأن الامرا المصرليه وصلت إلى منية ابن خصيب* فأرسلوا إلى حاكمها بأن ينتقل منها ويعدى هو ومن معه من العسكر إلى البر الشرقى، حتى إنهم يقيمون بها أياما ويقضون أشغالهم ثم يرحلون فأبوا عليهم وحصنوا البلده وزادوا فى عمل المتاريس.

* هى مدينة المنيا حالياً وابن الخصيب كان والياً على مصر من قبل هارون الرشيد، وهو الذى قدم عليه أبو نواس الشاعر ومدحه بقصائد عدة.

أما حاكمها المذكور سليم كاشف تابع عثمان بك الطنبرجى المرادى المقتول فإنه سالم العثمانيين وانضم إليهم فألبسوه حاكما على المنيه، وأضافوا إليه عساكر فذهب إليها، ولم يزل يجتهد فى عمل متاريس وحفر خنادق ونصب مدافع حتى ظن أنه فى منعه عظيمه فلما أجابهم بالامتناع حضروا إلى البلده وحاربهم أشد المحاربه مدة أربعة أيام بلياليها حتى غلبوا عليهم ودخلوا البلده وملكوها وأطلقوا النار وقتلوا أهلها وما بها من العسكر ولم ينج منهم منهم إلا من ألقى نفسه فى البحر وعام إلى البر الآخر أو كان قد هرب قبل ذلك، وأما سليم كاشف فإنهم قبضوا عليه حيا وأخذوه أسيرا إلى إبراهيم بك فوبخه وأمر بضربه فضربوه علقه بالنبابيت.

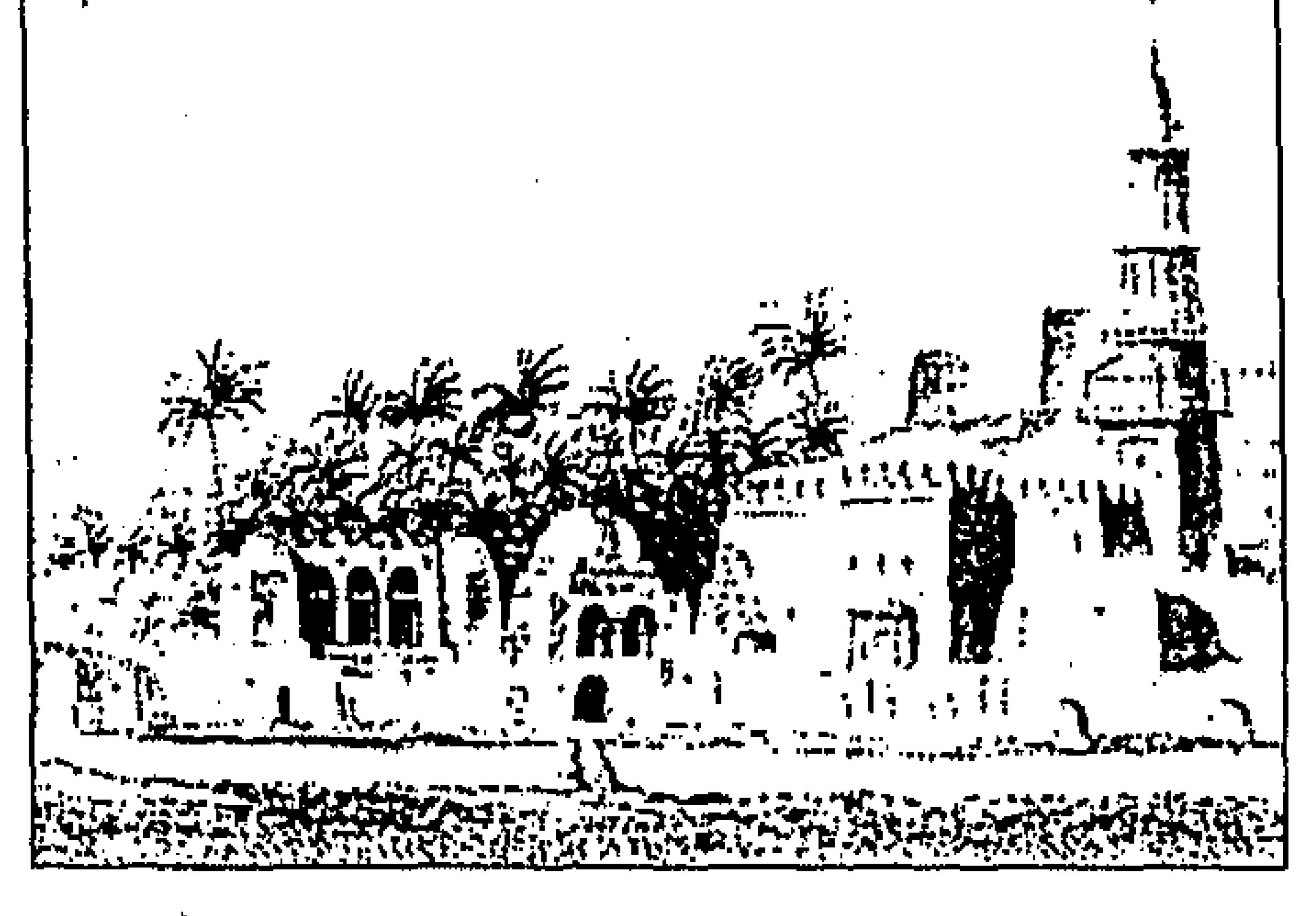
* هزيمة العسكر العثمانلية أمام العسكر المملوكية.



وفيه وصلت هجانه من شريف باشا بمكاتبه للباشا

والدفتردار يخبر فيها أنه وصل إلى الينبع، وهو عازم على الركوب من هناك على البر ليدرك الحج ويترك أثقاله، فتوجه فى المركب إلى جده.

وفى غايته وصل سلحدار الباشا وصحبته أغات المقرر الذى تقدمت بشارته، فلما وصلوا إلى بولاق أرسل الباشا فى صبحها إليهم فركبوا إلى بيت الباشا، وضربوا لهم مدافع وحضر المشايخ والقاضى والأعيان والوجاقات فقرى عليهم ذلك، وفيه الأمر بتشهيل غلال للحرمين والحث والأمر بمحاربة المخالفين.



أسيوط

وفيه بعثوا نحو ألف من العسكر إلى جهة أسيوط للمحافظه فساروا على الهجن من البر الشرقى.

وفيه أرسلوا أوراقا إلى التجار وأرباب الحرف بطلب باقى الفرده وهو القدر الذى تشفع فيه المحروقى وأخذوا فى تحصيله فلما قبضوا الذى تقرر طلبوا الباقى.

***

موجز لأحداث العام الماضى*

* العنوان من عندنا.

وانقضت هذه السنة وما وقع بها من الحوادث الكليه



التي ذكر بعضها ، وأما الجزئيه فلا يمكن الإحاطه ببعضها فضلا عن كلها لكثرتها واختلاف جهاتها ، واشتغال البال عن تتبع حقايقها ونسيان الغايب لعلة الشنيع بالأشنع والقبيح بالأقبح، فمن الكليه التي عم الضرر بها:

- زيادة المكوس والجمارك أضعاف المعتاد في كل ثغر ذهابا وإيابا.

- ومنها توالي الفرد والمظالم والمغارم التي يسمونها السُلف على أهل المدينة والأرياف وحق طريق المعينين وكلفهم الخارجه عن الحد والمعقول بأدنى شكوى، ولو بالباطل فبمجرد ما يأتي الشاكي بعرضحال شكواه يكتب له ورقه ويعين بها عسكري أو بشتلي أو اثنان أو أكثر بحسب اختيار الشاكي وطلبه للتشفي من خصمه، فبمجرد وصوله إلى المشكي بصورة منكرد وسلاح كثير متقلد به فلا يكون له شغل إلا طلب خدمته لأن في اعتقاده أنها منفعه وجهت إليه، ولا يسأل عن الدعوى ولا عن صورتها ويطلب طلبا خارجا عن المعقول كألف قرش في دعوى عشرة قروش؛ وخصوصا إذا كانت الشكوى على فلاح في قريه فيحصل أشنع من ذلك من إقامتهم عندهم وطلبهم وتكليفهم الذبايح والفطور بما يشترونه ويقترحونه عليهم.

وربما يذهب الشخص الذي يكون بينه وبين آخر عدواه قديمه أو مشاحنه أو دعوى قضى عليه فيها بحق من



زمان طويل؛ فيقدم له عرضحال ويعين له مباشر بفرمان، ويذهب هو فلا يظهر ويذهب المعين فى شغله والمشكى لا يرى الشاكى ولا يدرى من أين جاته هذه المصيبه، ويمكن أنه من بعد خلاصه من أمر المباشر يحضر إلى بيت الباشا ويبحث عن خصمه ويعرفه فينهى دعواه ويظهر حجته بأنه على الحق وأن خصمه على الباطل؛ فيقال له عين على خصمك أيضا فإن أجاب إلى ذلك رسم له بفرمان وسعين آخر كذلك وإلا ترك أجره على الله ورجع.

فضاق خناق الناس من هذه الحال وكرهوا هذه الأوضاع وربما قتل الفلاحون المعينين وهربوا من بلادهم وجلوا عن أوطانهم خوف الغايله.

ولم يزل هذا دأبهم حتى نفرت منهم القلوب وكرهتهم النفوس وتمنوا له الغوايل وعصت أهل النواحى وعربدت العربان وقطعوا الطرق وعلموا خيانتهم فخانوهم ومكالبتهم فكالبوهم.

وانتمى عربان الجهة القبليه إلى الأمرا المصرليه، وساعدوهم عليهم، ولما انحدر الأمرا إلى جهة بحرى انضمت إليهم جميع قبايل الجهة الغربيه والهنادى وعرب البحيره وخلافهم.

فلما وقعت الحروب بين الأمرا والعثمانيين وكانت الغلبه للأمرا [المصرليه] والعربان زادت جسارتهم عليهم

ورصدوا لهم الغوايل وقطعوا عليهم وعلى المسافرين الطرق بحرا وبرا فمن ظفروا به ومانعهم نهبوا متاعه وقتلوه وإلا سلبوه وتركوه، وفحش الأمر جدا قبلى وبحرى، حتى وقف حال الناس ورضوا عن أحكام الفرنسيس.

* الباشا يلغى الرطل الزياتى الذى يساوى ١٤ زوقية ويحلّ محله الرطل الذى يساوى ١٢ أوقية، وعادت الأسعار اقبح واغلى.

- ومنها أن الباشا لما قتل الوالى والمحتسب وعمل قايمة تسعيره للمبيعات وأن يكون الرطل اثنتى عشرة أوقيه فى جميع الأوزان وأبطلوا الرطل الزياتى (الزيادى) الذى يوزن به السمن والجبن والعسل واللحم وغير ذلك وهو أربع عشر أوقيه، لم ينفذ من تلك الأوامر شى سوى نقص الأرطال. ولم يزل ذو الفقار محتسبا حتى رتب المقررات على المتسببين زيادة عن القانون الأصلى، وجعل منها قسطا لخزينة الباشا والكتخدا وخلافهما.

ورجعت الأمور فى الأسعار أقبح وأغلى مما كانت عليه فى كل شى واستمر الرطل اثنتى عشر أوقيه لا غير، وكثر ورود الغلال أيام النيل ورخص سعرها والرغيف على مقدار رغيف الغلا.

- ومنها أن الفضه الأنصاف العدديه صاروا يأخذونها من دار الضرب أول بأول ويرسلونها إلى الروم والشام بزيادة الصرف، ولا ينزل إلى الصيارف منها إلا القليل، حتى شحت بأيدى الناس جدا، ووقف حالهم فى شرا لوازم البيوت ومحقرات الأمور، ويدور الإنسان بالريال أو المحبوب أو المجر، وهو فى يده طوال النهار فلا يجد مصارفته.

عملات أجنبية ومحلية متداولة فى ذلك الوقت بالقاهرة

وأغلقت غالب الصيارف حوانيتهم بسبب ذلك، وبسبب أذية العسكر فإنهم يأتون إليهم ويلزمونهم بالمصارفه فيقول له الصيرفى ليس عندى فضه فلا يقبل عذره ويفزع عليه بيطقانه [خنجر معقوف] أو بارودته، وإن وجد عنده المصارفه. وكان المحبوب أو البندقى ناقصا فى الوزن ولا يستقيم فى نقصه ولا يأخذ إلا صرفه كاملا، وإذا اشترى شيا من سوقى أعطاه بندقيا وطلب باقيه، ولم يكن عند البايع باقية أخذ الذى اشتراه والبندقى وذهب، ولا يقدر المسبب* استخلاص حقه منه، وإن وجد معه باقى المصارفه وأخذ ذلك البندقى ونقده عند الصراف وكان ناقصا، وهو الغالب، لا يقدر الصيرفى أن يذكر نقصه، فإن قال إنه ينقص فزع عليه وسبه، وبعضهم أدخل أصبعه فى عين الصراف وأمثال ذلك.

* المسبب: البائع الذى يلتمس أسباب الرزق.

- ومنها شحة المراكب حتى أخذ المسافر يمكث الأيام الكثيره ينتظر مركبا فلا يجد، وربما أخذوها بعد تمام وسقها فنكتوه وأخذوها، وإن مرت على الأمرا المصرليه وما انضم إليهم تعرضوا لها ونهبوا ما بها من الشحنه وأخذوا المركب، واستمر هذا الحال على الدوام فكان ذلك من أعظم أسباب التعطيل أيضا.

- ومنها تسلط العسكر على خطف الناس وسلبهم

وقتلهم وخصوصا فى أواخر هذه السنة، حتى امتنعت الناس من المرور فى جهات سكنهم، إلا أن يكونوا فى عزوه ومنعه وقوه، ولا تكاد ترى شخصا يمر فى الأسواق السلطانيه من بعد المغرب وقبيل العشا، وإذا اضطر الإنسان إلى المرور تلك الأوقات فلا يمر إلا كالمجازف على نفسه، وكأنما على رأسه الطير.

فيقال إن فعلهم هذه الفعايل من عوايدهم الخبيثه إذا تأخرت نفقاتهم فعلوا ذلك مع العامه على حد قول القايل "خلص تارك من جارك" وذلك كله بسبب تأخير جماكيهم وقطع خرجهم نحو خمسة أشهر والباشا يشوفهم ويقول هولا لا يستحقون فلسا، وأى شى خرج من يدهم، وطول المدى نكلفهم ونعطيهم وما يستروا أنفسهم مع الغز المصرليه ولا مره فلا حاجة لنا بهم بل يخرجون عنىّ ويذهبون حيث شاءوا فليس منهم إلا الاذيه والعنطزيه، وهم يقولون لا نخرج ولا نذهب حتى نستوفى حقنا على دور النصف فضه الواحد وإن شينا أقمنا وإن شينا ذهبنا.

* الباشا يسحب من الأسواق معظم الأخشاب والمون لعمل القشلاق فيحدث نقصاً شديداً فى سوق الأخشاب والمون.

– ومنها استمرار الباشا على الهمه والاجتهاد فى العمارة والبنا وطلب الأخشاب والمون حتى عز جميع أدوات العماره، وضاق حال الناس بسبب احتياجهم لعمارة أماكنهم التى تخربت فى الحوادث السابقه، وبلغ سعر الأردب الجبس مايه وعشرين نصفا والجير المخلوط أربعين نصفا القنطار، وأجرة المعلم فى اليوم خمسه وأربعين نصفا، ويتبعه آخر مثل ذلك والفاعل اثنين وعشرين نصفا.

وأحدثوا أخذ إجازه* من المعمارجى، وهو أن الذى يريد بنا ولو كانون لا يقدر وأن يأتيه البنا حتى يأخذ ورقه من المعمارجى ويدفع عليها خمسين نصفا.

* الإجازة: تصريح البناء.

ولم يزل الاجتهاد فى العماره المذكوره حتى أقاموا جانبا من القشله، وهى عبارة عن* وكالة يعلوها اطباق وأسفلها اصطبلات وحولها من داخل حواصل ومن خارج حوانيت وقهوه، فعندما تمت الحوانيت ركبوا عليها درفها وأسكنوا بها قهوجيا ومزينا من أتباع الباشا وخياطين وعقادين وسروجيه الباشا. وغير ذلك، لم يكمل تسقيف الطباق، وعملوا لها بوابه عظيمه بمصاطب، وهدموا حائط الرحبه المقابله لبيت الباشا الخارجه وعمرت وأنشيت بالحجر النحت المحكم الصنعه. وعملوا لها بوابه عظيمه ببدنات وأبراج عظام، وبها طاقات عليا وسفلى وصفوا بها المدافع العظيمة، وبركن الرحبة مثل ذلك وعملوا لها بابا آخر قبالة باب القشله بحيث صار بينها وبين القشله رحبه متسعه يسلك منها المارون إلى جهة بولاق على الجسر الذى عمله الفرنسيس، ويخرجون أيضا فى سلوكهم من بوابه عظيمه إلى طريق بولاق من الجهه الغربيه بحايط حجر متصله من الرحبة حيث البوابه المواجهه للقشله.

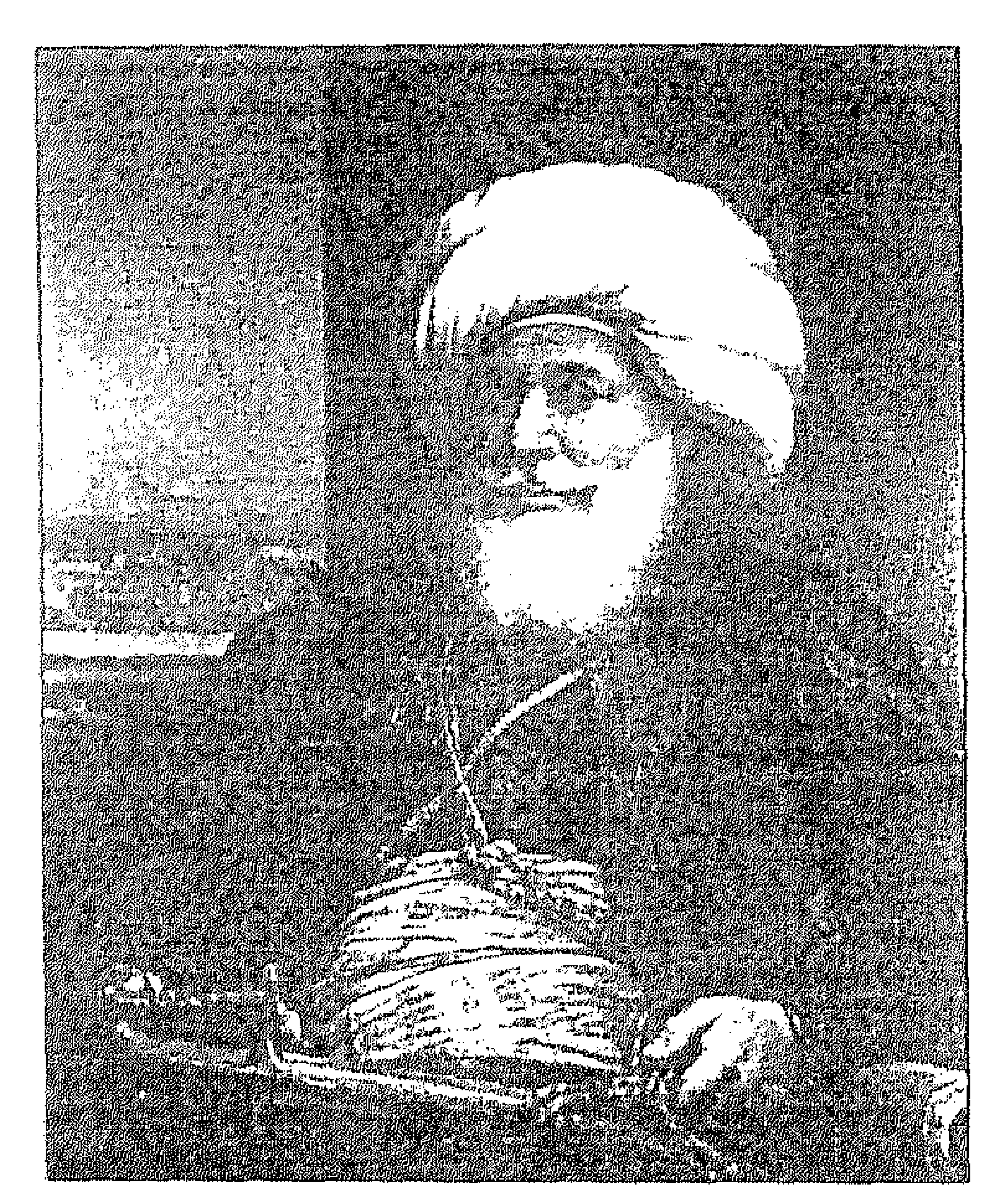
* وصف القشلاق.

وعلى هذه البوابه من الجهتين مدافع كبيرة مركبه على بدنات وأبراج وطبقات مهندمه وبها باب يصعد منه إلى تلك الأبراج، والجبخانه والعساكر جلوس على تلك المصاطب الخارجه والداخلة لابسين الأسلحه وبنادقهم مرصوصه بداير الحيطان.

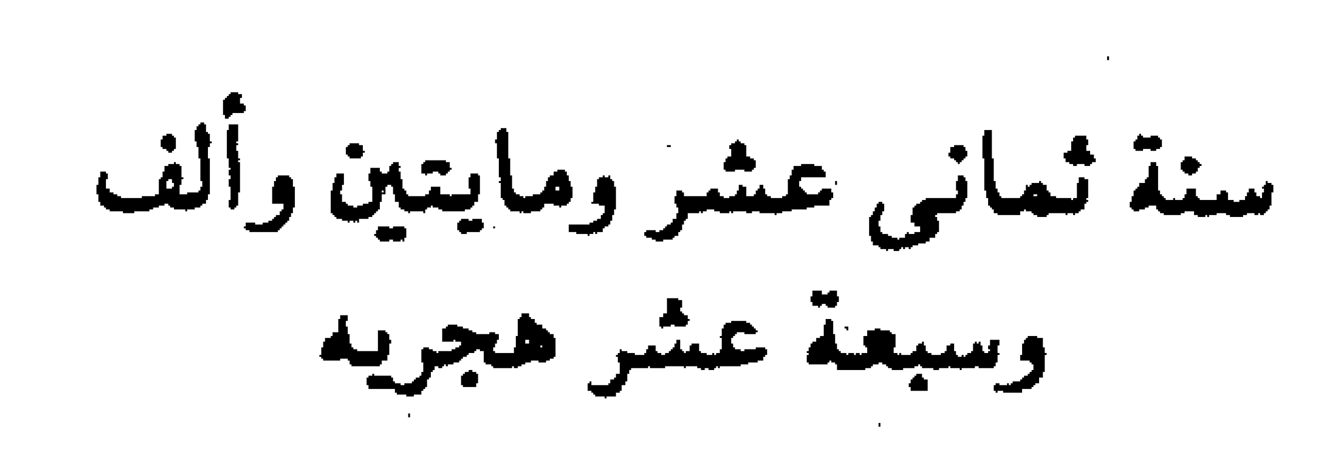
وبداخل الرحبه الوسطانيه مدافع مرصوصه بطول الرحبه يمينا وشمالا وكذلك بداخل الحوش الجوانى الأصلى، وبأسفل الرحبه نحو المايتى مدفع مرصوصه أيضا وعربيات وصناديق جبخانه وآلات حرب وغير ذلك والجبخانه الكبيره لها محل مخصوص بالحوش الداخلى الأصلى ولها خزنه وطبجيه وعربجيه.

– ومنها أنه عدم البصل الأحمر حتى بيع الرطل بسعر القنطار فى الزمن السابق، وعدم الملح أيضا بسبب احتكاره وعدم المراكب التى تجلبه من بحرى لما ترتب عليهم من زيادة الجمارك، وعدم مكاسبهم فيه لأن الذى تولى على جمرك الملاحه صار يأخذه من أصحابه على ذمته بسعر قليل معلوم ويبيعه على ذمته بسعر كثير لمن يسافر به إلى جهة قبلى، وذلك خلاف ما يأخذه من المراكب التى تحمله، فامتنع المتسببون فيه من تجارته فعز وجوده فى آخر السنه، حتى أبيع الرطل بثمانين نصفا من تلات أنصاف، وضجت الناس من ذلك فأرسل ذلك الملتزم تلات مراكب على ذمته ووسقها ملحا وصار يبيع الرطل بعشرين نصفا ويبيعه المسبب بثلاثين، وهذا لم يعهد فيما تقدم من السنين.

وعدم أيضا الصابون بسبب تأخر القافلة حتى أبيع بأغلى ثمن، ثم حضرت القافله فانحل سعره وتواجد وغير ذلك مما لا يمكن الإحاطه به، ونسأل الله تعالى حسن العاقبه بمنه وكرمه.



كانت سنة ١٢١٨ هـ = ١٨٠٣م بداية
ازدياد نشاط محمد على للوصول إلى السلطة



سنة ثمانى عشر ومايتين وألف
وسبعة عشر هجريه

شهر محرم الحرام سنة ١٢١٨[١٨٠٣م]

استهل [المحرم] بيوم السبت: فى ذلك اليوم وقعت زعجه عظيمه فى الناس وحصلت كرشات فى مصر وبولاق وأغلق أهل الأسواق حوانيتهم ورفعوا منها ما خف من متاعهم من الدكاكين، وبعضهم ترك حانوته وهرب، والبعض سقط متاعه من يده ولم يشعر من

١٢١٨هـ
١٥١٩ق
١٨٠٣م

□ فى ٧ محرم/ أول مايو، معاهدة باريس القاضية ببيع مقاطعة لوازيانا من أمريكا إلى الإقاليم المتحدة بمبلغ ٧٥ مليون فرنك

□ فى هذه السنة الإفرنكية صار تنزيل أول سفينة بخارية فى نهر السين بباريس، وضعها روبرت فلطن الامريكانى

□ فى ٢ صفر حاصرت الارناؤود طاهر باشا الذى كان استحل لنفسه الولاية على مصر مؤقتاً، وقتلوه فى يومها، حيث استعمل معهم الخشونة والعنف ولم يدفع لهم مرتباتهم

□ وفى ١٤ ربيع أول محمد على باشا وعثمان بك البرديسى هزما أعوان خسرو باشا، الوالي، وأرسلاه من دمياط إلى مصر وسجن فى القلعة، فالباب العالى أرسل جزايرلى على باشا، فلعدم تبصره قتله المماليك، وبمجرد موته اتحد محمد على مع العلما ورؤسا العسكرية وعينوا خورشيد باشا محافظ الإسكندريه، والياً. ومحمد على باشا قايمقام له. وارسلوا بذلك مكاتبة إلى الباب العالي، الذى صادق على ذلك

□ فى ١٥ شعبان تعاهدت فرنسا واسبانيا مع البرتغال على بقائهم ملازمين للحيادة.

□ وفى النيل فى ١٤ مسرى/ ١٩ اغسطس.

□ فى جماد ثان/ سبتمبر عملوا تسعيرة للقمح والفول والشعير، فجعلوا الأردب القمح بستة ريالات فرانسا، والأردب الفول بخمسة، والشعير كذلك. وفيها وصل سعر الأردب القمح إلى ١٢٠٠ نصف فضة. ثم هبط

السعر، ثم ارتفع فبلغ سعر الأردب القمح ١٥ ريالا.

□ ١ توت ١٥٢٠ = ١١ سبتمبر ١٨٠٣ = الأحد ٢٤ جماد أول سنة ١٢١٨.

□ ١ يناير ١٨٠٤ = ٢٣ كيهك ١٥٢٠ = الأحد ١٨ رمضان سنة ١٢١٨.

شدة ما لحقهم من الخوف والإرجاف، ولم يعلم سبب ذلك.

فيقال إن السبب فى ذلك أن جماعة من كبار العسكر ذهبوا إلى الباشا وطلبوا جمايكهم المنكسره وخرجهم، فقال لهم إذهبوا إلى الدفتردار فذهبوا إلى الدفتردار، فقال لهم: جمكيتكم عند محمد على* [سرششمه] فذهبوا إلى محمد على، وكانوا اوعدوهم بقبض جامكيتهم فى ذلك اليوم، فلما ذهبوا إلى محمد على قال لهم لم أقبض شيا فعملوا معه شراسه ووقع بينهم مضاربه بالبنادق، وهاجت العسكر عند بيت محمد على سرششمه فحصلت هذه الزعجه فى مصر وبولاق ثم سكن ذلك بعد أن اوعدوهم بعد ستة أيام.

* هو محمد على باشا فيما بعد راس الأسرة المالكة المصرية حتى عام ١٩٥٢.

وفيه وردت عدة نقاير* وبها جبخانه وجمله من العسكر وصحبتهم إبراهيم أغا الذى كان كاشف الشرقيه عام أول، وكان توجه إلى إسلامبول فحضر وصحبته ذلك، فحملوا الجبخانه وطلعوها إلى القلعه فيقال إنها متوجهة إلى جده بسبب فتنة الحجاز، وقيل غير ذلك.

* وصول أسلحة وذخاير لمعونة شريف مكة ضد الوهابيين.

وفى يوم الجمعه سابعه ثارت العسكر* وحضروا إلى بيت الدفتردار، فاجتمعوا بالحوش وقفلوا باب القيطون، وطردوا القواسه، وطلع جمع منهم فوقفوا بفسحة المكان الجالس به الدفتردار ودخل أربعة منهم عند الدفتردار فكلموه فى إنجاز الوعد، فقال لهم

* تمرد العسكر ضد الباشا.

عندى نحو الستين ألف قرش فإما أن تأخذوها أو تصبروا كام يوم حتى يكمل لكم المطلوب، فقالوا لا بد من التشهيل، فإن العسكر تقلقوا من طول المواعيد ولازم التشهيل فى هذا اليوم ولا صبر بعد ذلك، فلما رأي منهم الجد كتب ورقه وأرسلها إلى الباشا بأن يرسل إليه جانب دراهم تكملة للقدر الحاصل عنده فى الخزينه، فرجع الرسول بالجواب من الباشا وهو يقول لا أدفع ولا آذن بدفع شى فإما أن يخرجوا ويسافروا من بلدى أو لا بد من قتلهم عن آخرهم، فعند ما رجع بذلك الجواب قال له ارجع إليه وأخبره أن البيت قد امتلا بالعساكر فوق وتحت، وأنى محصور بينهم.

فعند وصول المرسال وقبل رجوعه أمر الباشا بأن يديروا المدافع ويضربوا على بيت الدفتردار، وعلى العسكر فما شعر الدفتردار إلا وجلة* وقعت بين يديه فقام من مجلسه إلى مجلس آخر وتتابع الرمى واشتعلت النار فى البيت وفى الكشك الذى أنشأه ببيت جده المجاور لبيته، وهو من الخشب والحجنة من غير بياض. لم يكمل، فالتهب بالنار فنزل إلى أسفل والأرنؤد محيطة به وبات تحت السلالم إلى الصباح ونهب العسكر الخزينه والبيت ولم يسلم إلا الدفتردار والأوراق وضعوها فى صناديق وشالوها، وكان ابتدا رمى المدافع وقت صلاة الجمعة.

وأما أهل البلد فإنهم كانوا متخوفين ومتطيرين من قومة أو فزعة تحصل من العسكر قبل ذلك، فلما

* جلة: قذيفة المدفع، وهى كرة من الحديد.

** الباشا يضرب العسكر المتمرد بالجلل، واندلاع الحرب بينهم.



الجيش العثمانى: مرتزقة من جميع الأجناس

عاين الناس تجمعهم ببيت الدفتردار شاع ذلك فى المدينة ومر الوالى يقول للناس ارفعوا متاعكم واحفظوا أنفسكم وخذوا حذركم وأسلحتكم، فأغلق الناس الدكاكين والدروب وهاجوا وماجوا، فلما سمعوا ضرب المدافع تطيروا وتخيلوا هجوم العسكر ونهب البلد، بل ودخول البيوت ولا راد يردهم ولا حاكم يمنعهم.

ونادى المنادى معاشر الناس وأولاد البلد كل من كان عنده سلاح فليلبسه، واجتمعوا واذهبوا عند شيخ مشايخ الحارات يذهب بكم إلى بيت الباشا وحضرت أوراق من الباشا لأهل الغوريه ومغاربه الفحامين وتجار خان الخليلى وأهل طولون يطلبهم بأسلحتهم

والحضور عنده والتحذير من التخلف.

فذهب بعض الناس عند بيت حريم الباشا وبيت ابن المحروقي المجاور له، وهو بيت البكرى القديم فباتوا ليلتهم هناك.

وحضر حسن أغا نجاتى والى العماره عشا تلك الليلة، وطاف على الناس يحرضهم على القيام ومعاونة الباشا، وتجمع بعض الأوباش بالعصى والمساوق وتحزبوا أحزابا وعملوا متاريس عند رأس الوراقين وجهة العقادين والمشهد الحسيني.

فلما دخل الليل بطل الرمى إلى الصباح فشرعوا بالرمى بالمدافع والقنابر من الجهتين وتترست العساكر بجامع أزبك وبيت الدفتردار وبيت محمد على وكوم الشيخ سلامه، وداخل الناس خوف عظيم من هذه الحادثه. وأما القلعه الكبيره فإن الباشا مطمين من جهتها لأنها مقيد بها الخازندار ومعه عدد من الأرنؤد وغيرهم وقافل أبوابها.



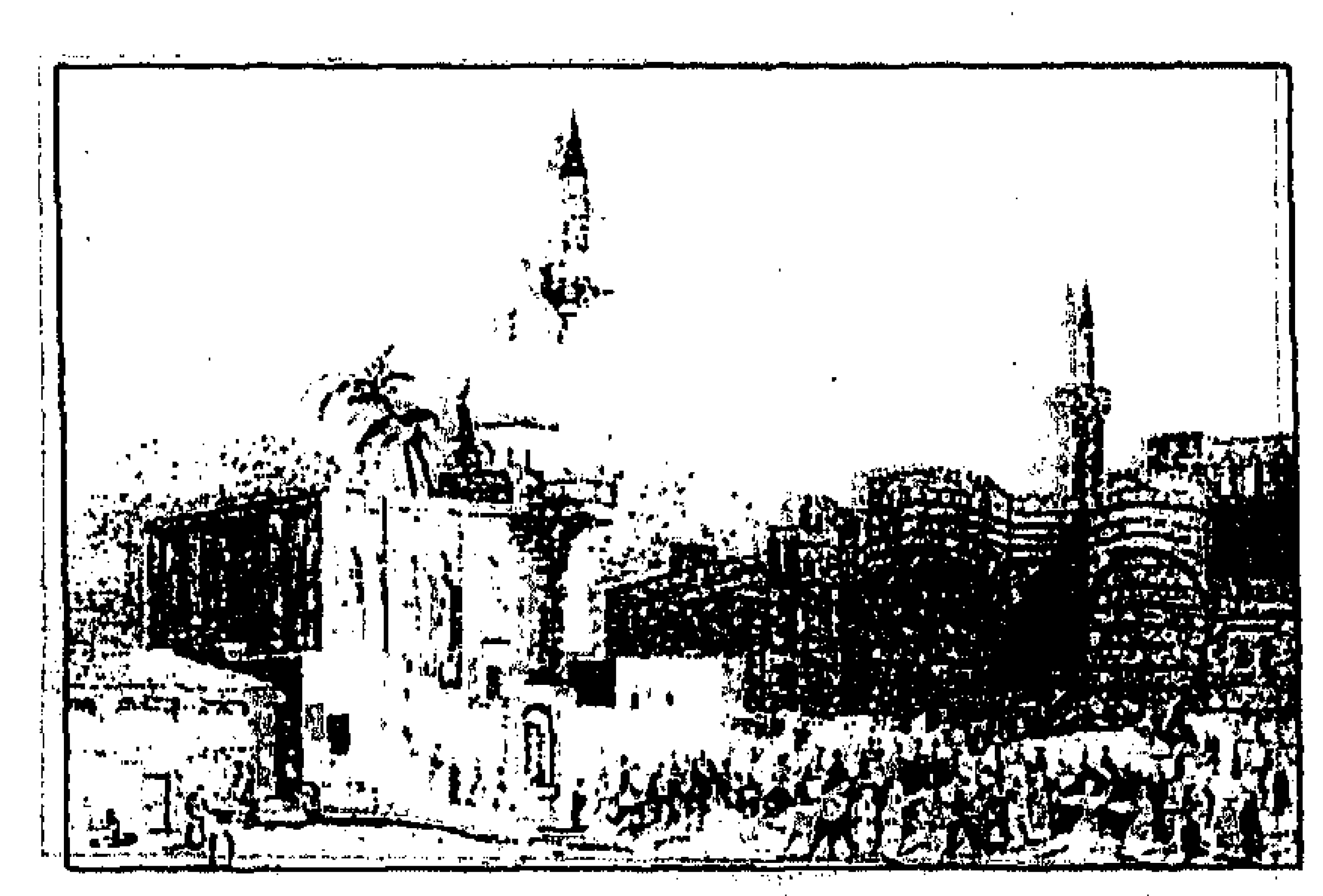
ولما كان يوم الجمعه أمس تاريخه قبل حصول الواقعه، حضر أغات الإنكشارية والوجاقليه لأجل السلام على عادتهم ودخلوا عند كتخدا بك، فقال لهم نبهوا على أهل البلد بغلق الدكاكين والأسواق والاستعداد، فإن العسكر حاصل عندهم قلة أدب.

فلما طلعوا عند الباشا أعلموه بمقالة كتخدا بك فقال لهم نعم فقال له أغات الإنكشارية ياسلطانم ينبغى الاحتفاظ بالقلعة الكبيرة قبل كل شى فقال إن بها الخازندار وأوصيته بالاحتفاظ وغلق الأبواب،

فقال له الأغا لكن ينبغى أن نترك عند كل باب من خارج قدر خمسين إنكشاريا فقال وإيش فايدتهم؟ ما عليكم من هذا الكلام، تريدون تفريق عساكرى اذهبوا لما أمرتكم به وذلك لأجل إنفاذ القضاء.

وحضر طاهر باشا أيضا فى ذلك الوقت وهو كالمحب. ومكمن العداوة فلم يقابله الباشا وأمره بأن يذهب إلى داره ولا يقارش.

فلما كان فى صبحها يوم السبت رتب الباشا عساكره على طريقة الفرنسيس وهو المسمى "بالنظام الجديد" فخرجوا بأسلحتهم وبنادقهم وخيولهم، وهم طوابير ومروا حوالى البركه وانقسموا فرقتين فرقه أتت على رصيف الخشاب وفرقه على جهة باب الهوا ليأخذوا الأرنؤديه بينهم ويحصروهم من الجهتين، فلما حضرت الفرقه التى من ناحية رصيف الخشاب قاتلوا الأرنؤديه فعند ذلك أركبوا الدفتردار وأخذوه إلى بيت طاهر ومعه أتباعه وانهزم الأرنؤديه من جهة الجامع



جامع المحمودية وبوابة القلعة وأمامهما ميدان الرميلة

وانحصروا جهة جامع أزبك واشتغلوا بمحاربة الفرقه الأخرى وتحققوا الهزيمه والخذلان.

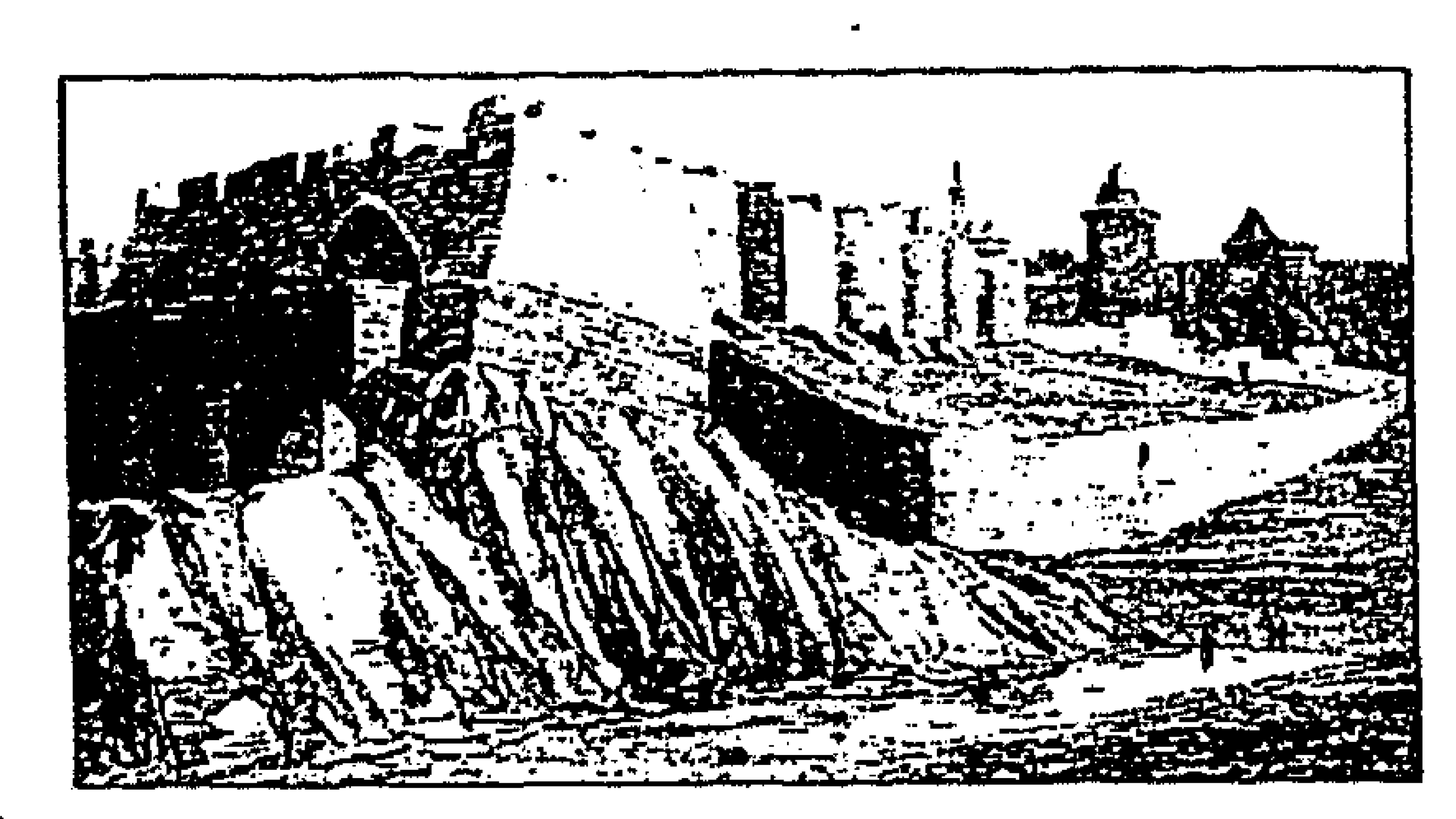
وعندما وصلت عساكر الباشا إلى بيت الدفتردار والمحروقى وبيت حريم الباشا اشتغلوا بالنهب وإخراج الحريم وتركوا القتال وتفرقوا بالنهوبات وفترت همة الفرقة الأخرى وجرى أكثرهم ليخطف شيا ويغنم مثلهم وقالوا: نحن نقاتل ونموت لا على شى، وأصحابنا ينهبون ويغنمون، فهزموا أنفسهم لذلك وتراجع الأرنؤديه واشتدت عزيمتهم ورجع البعض منهم على عساكر الباشا فهزموا من بقى منهم وملكوا الجهه التى كانوا أجلوهم عنهم.

* اقتحام الجند المتمرد للقلعة

فعند ذلك ظهر طاهر* باشا وركب إلى الرميله وتقدم إلى باب العزب فوجده مغلوقا فعالج الطاقات الصغار التى فى حايط باب العزب القريبه من الأرض المعدة لرمى المدافع من أسفل ففتح بعضها ودخل منها بعض العسكر فتلاقوا مع الأرنؤد المحافظين داخل الباب فالتف بعضهم على بعض. ثم طلعوا عند الخازندار وكان عنده ابن أخت طاهر باشا متمرضا قبل ذلك بأيام وصحبته طائفه أيضا فالتفوا على بعضهم وصاروا عصبة وطلبوا مفاتيح القلعة من الخزندار فمانعهم، ولما رأى منهم العين الحمرا سلمهم المفاتيح فنزلوا وفتحوا الأبواب لطاهر باشا وحبسوا الخازندار. وأنزلوا من القلعه مدافع وبنبات وجبخانه إلى الأزبكيه لجماعتهم وكذلك

الجبرتى/ سنة ١٢١٨

قيدوا بالقلعه طبجيه وعساكر.



قلعة القاهرة قبل إنشاء قلعة محمد على فوقها.

كل ذلك ومحمد باشا لايدرى بشى من ذلك فلم يشعر إلا والضرب نازل عليه من القلعه فسأل ما هذا فقيل له إنهم ملكوا القلعه فسقط فى يده.

وعند ذلك نزل طاهر باشا من القلعه وشق من وسط المدينه، وهو يقول بنفسه مع المنادى أمان واطمئنان افتحوا دكاكينكم وبيعوا واشتروا وما عليكم بأس، وطاف يزور الأضرحه والمشايخ والمجاذيب ويطلب منهم الدعا، ورفع الناس المتاريس من الطرق وانكفوا عن مقارشة العسكر. وكذلك لم يحصل أذيه من العسكر لأحد من الرعيه وأمروا بفتح مخابز العيش والمآكل، وأخذوا واشتروا من غير إجحاف ولا بخس، فلما علم الباعه منهم ذلك ذهبوا إليهم بالعيش والكعك والجبن والفطير والسميط وغير ذلك، ودخلوا فيهم يبيعون عليهم وهم يشترون منهم بالمصلحه.

وصار بعض أولاد البلد يذهب إلى الفرجة ويدخل بينهم ويمر من وسطهم فلا يتعرضون لهم ويقولون نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة لكم بنا.

ووجدوا مع البعض سلاحا ذهب به عندما أرسل الباشا ونادى على الناس فردوهم بلطف، وكل ذلك على غير القياس.

الجبرتى/ سنة ١٢١٨

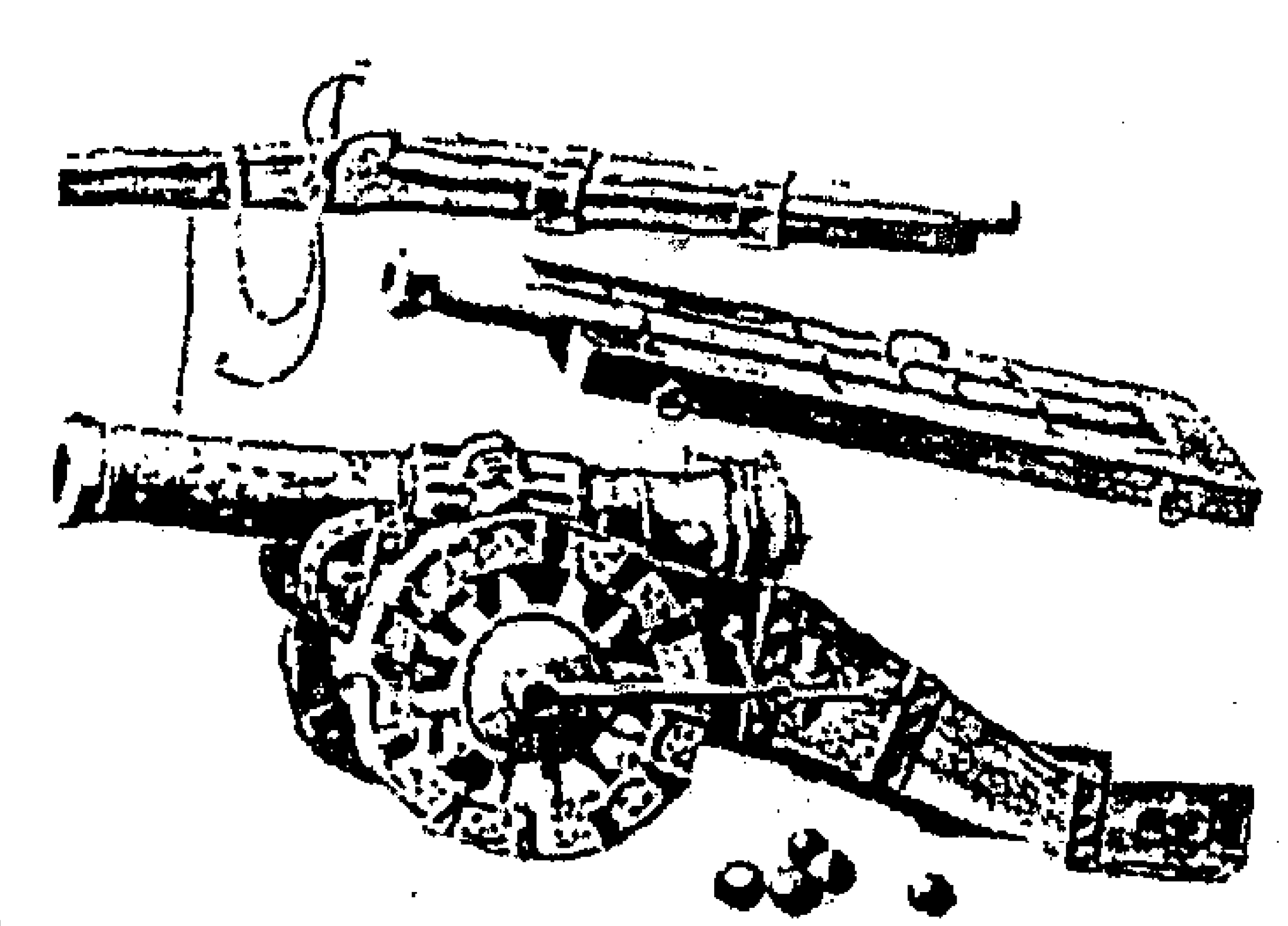


وطاهر باشا لم يكن له شغل إلا الطواف بالمدينه والاسواق وخارج البلد، ويقول للفلاحين الذين يجلبون الحطب والجله والسمن والجبن من الأرياف: كونوا على ما أنتم عليه وهاتوا أسبابكم وبيعوا واشتروا وليس عليكم بأس، وحضر إليه الوالى فأمره بالمرور والمناداه بالأمن للناس.

واستمر الحرب بين الفريقين نهار السبت واشتد ليلة الأحد طول الليل ، فما أصبح النهار حتى زحف عساكر الأرنؤد إلى جامع عثمان كتخدا وإلى حارة النصارى من الجهه الأخرى ، وطلعوا إلى التلول التى بناحية بولاق وملكوا بولاق وهجموا على مناخ الجمال الذى بالقرب من الشيخ فرج [روض الفرج]، فقتلوا من به من عسكر التكرور*، وهرب من بقى منهم عريانا. وقبضوا على ميتش* القبطان وأخذوا قليونه [غليونه] وعدوا به إلى بر إنبابة ونهبوا مافيه،وكان به مال القبطان وذخايره التى جمعها من مظالم المراكب والمسافرين والقادمين شيا كثيرا وكذلك ذهبت طايفه منهم إلى قصر العينى وقبضوا على من به من عبيد الباشا وعروهم وأخذوهم أسرى، ونهبوا بيت السيد أحمد المحروقى بالأزبكيه وهو بيت البكرى القديم، وقد كان أخلاه لنفسه وعمرّه وسكنه بحريمه، فنهبوا منه شيا كثيرا يفوق الحصر وأخرجوا منه النسا بعد ما فتشوهن أو افتدين أنفسهن، وكذلك بيت حريم الباشا الملاصق له بعد ما أرسل الباشا عساكره قبل بيوم فنقل منه الحريم عنده بطولهن لا غير، ونهبوا بيت المعلم جرجس

* الارناؤد تقتل عكسر النظام الجديد من التكرور

* متش: مساعد قبطان السفينة

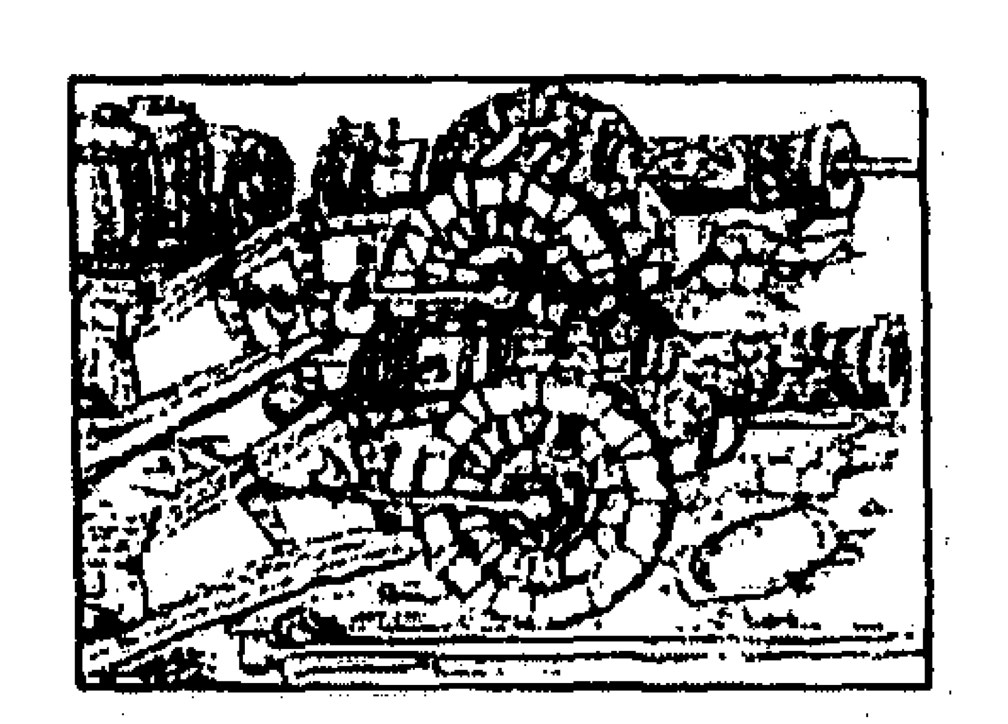


الجوهرى، وأخذوا منه أشيا نفيسه كثيره وفراوى مثمنه وحريم بيت الباشا لم يتكمنوا منه إلا بعد انفضاض القضيه بيومين بسبب أن المحافظين عليه كانوا ثمانية عشر فرنساويا فحاصروا فيه هذه المدة حتى خرجوا منه بأمان.

وأما سكان تلك الخطه فكانوا يذهبون إلى طاهر باشا أو محمد على فيرسل معهم عسكرا لخفارتهم حتى ينقلوا أمتعتهم أو ما أمكنهم إلى جهات بعيده عن ذلك المحل، ليأمنوا على أنفسهم من الحرب.

وهرب السيد أحمد المحروقى وابنه عند الباشا ولاحت لوايح الخذلان على الباشا واستعد للفرار*، فإنه لما بات تلك الليله لم يجد عليقا ولا خبزا فعلقوا على الخيل أرزا وتعشى الباشا بالبقسماط، وأرسل إلى حارة النصارى فطلب منهم خبزا فأرسلوا إليه خبزا فخطفه الأرنؤد فى الطريق ولم يصل إليه.

* الباشا محمد يستعد للفرار بعد أن نادى العسكر بعزله.



ثم إن عسكر الأرنؤد أحضروا له آلة بنية وضعوها بالبركة وضربوا بها على بيت الباشا فوقعت واحدة على الباذاهنج* فالتهب فيه النار، فأرادوا إطفاها فلم يجدوا سقايين تنقل الماء.

* الباذاهنج: المشربيه من الخشب أو الباكية.

ويقال إن الخازندار الذى كان بالقلعة لما قبضوا عليه التزم لهم بحرق بيت الباشا ويطلقوه. فأرسل بعض



أتباعه إلى مكانه الذى ببيت الباشا فأوقد فيه النار فى ذلك الوقت، واشتعلت فى الأخشاب والسقوف وسرت إلى مساكن الباشا.

فعند ذلك نزل الباشا إلى أسفل وأنزل الحريم وعددهن سبع عشر امرأة فأركبهن بغالا وأمر الدلاه والهواره أن يقدموهن، وركب صحبتهن المحروقى وابنه وترجمانه وصيرفيه وعبيده وفراشوه وتأخر الباشا حتى أركب الحريم، ثم ركب فى مماليكه ومن بقى من عسكره وأتباعه، وركب معه حسين أغا شنن وبعض أغوات وصحبته ثلاثة هجن وخرج إلى جزيرة بدران.

فعندما أشيع ركوبه هجمت عساكر الأرنؤد على البيت واشتغلوا بالنهب، هذا والنار تشتعل فيه.

وكان ركوبه قبيل العصر من يوم الأحد تاسع المحرم وخرج خلفه عدة وافره من عسكر الأرنؤد فرجع عليهم وهزمهم مرتين وقيل ثلاثا.

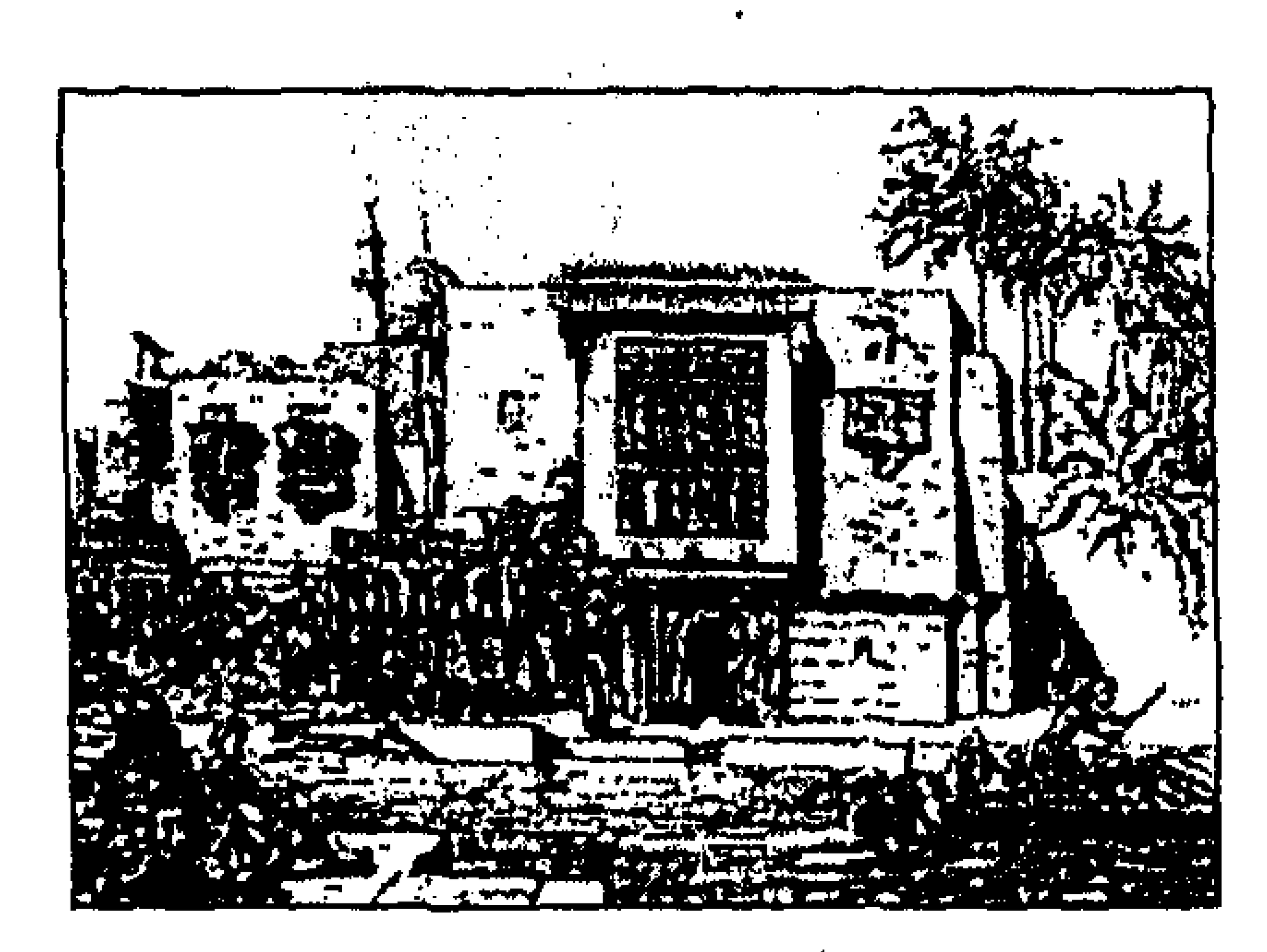
وأما المحروقى ومن معه فإنهم تشتتوا من بعضهم خلف الدلاد ولم يلحقوا وانقطع حزام بغلته فنزل عنها فأدركه العساكر* المتلاحقة بالباشا فعروه وشلحوه هو وأتباعه وابنه، وأخذوا منه نحو عشرين ألف دينار إسلامبولى نقديه، وقيل جواهر بنحو ذلك فأدركهم عمر أغا بينباشى المقيم ببولاق، فوقعوا عليه فأمنهم وأخذهم معه إلى بولاق وباتوا عنده إلى ثانى يوم

* العسكر تنهب أموالاً كثيرة من الشيخ المحروقى.

وأخذ لهم أمانا وحضر إلى طاهر باشا وقابله وكذلك المعلم جرجس الجوهرى.

* الارناؤد تحرق بيت الباشا. واصله بيت السيد إبراهيم إسكندر.

ونهب العسكر بيت الباشا وأخذوا منه شيا كثيرا وباتت النار تلتهب فيه والدخان صاعد إلى عنان السما، حتى لم يبق فيه إلا الجدران التحتانيه الملاصقه للأرض، واحترقت وانهدمت تلك الأبنيه العظيمه المشيده والعاليه وما به من قصور والمجالس والمقاعد والرواشن [المشربيات] والشبابيك والقمريات والمناظر والتنهات والخزاين والمخادع، وكان هذا البيت من أضخم المبانى المكلفة فإنه إذا حلف الحالف أنه صرف على عمارته من أول الزمان إلى أن احترق عشرة خزاين من المال أو أكثر لا يحنث، فإن الألفى لما أنشاه صرف عليه مبالغ كثيرة.



* وصف قصر الباشا المحترق

وكان أصل* هذا المكان قصرا عمرّه وأنشاه السيد إبراهيم ابن السيد سعودي إسكندر من فقها الحنفيه، وجعل فى أسفله قناطر وبوايك من ناحية البركه، وجعلها برسم النزهه لعامة الناس، فكان يجتمع بها عالم من أجناس الناس وأولاد البلد شى كثير وبها قهاوى وفكهانيه ومغانى وغير ذلك، ويقف عندها مراكب وقوارب بها من تلك الأجناس، فكان يقع بها وبالجسر المقابل لها من عصر النهار إلى آخر الليل من الحظ والنزاهه ما لايوصف ، ثم تداول ذلك القصر أيدى الملاك وظهر على بك وقساوة حكمه، فسدوا تلك

البـوايك ومنعـوا الناس عنهـا لما كـان يقع بهـا فى الأحيان من اجتماع أهل الفسوق والحشاشين.

ثم اشترى ذلك القصر الأمير أحمد أغا شويكار وباعه بعد مدة فاشتراه الأمير محمد بك الألفى سنة إحدى عشره ومايتين وألف، وشرع فى هدمه وتعميره وأنشاه على الصورة التى كان عليـها، وكان غـايبا جـهة الشرقيه فرسم لكتخداه صورته فى كاغد* بكيفية وضعه، فحضر ذو الفقار كتخدا وهدم ذلك القصر وحفر الجدران ووضع الأساس وأقام الدعـائم ووضع سقوف الدور السفلى .

* صورته فى كاغد: أى رسمه التخطيطى الهندسى فى رق من الجلد أو الورق.

فحضر عند ذلك مخدومه فلم يجده على الرسم الذى حدده له فهدمه ثانيا وأقام دعائمه على مراده واجتهد فى عـمـارته وطلب له الصناع والمؤن من الأحـجـار والأخشاب المتنوعه حتى شحت المؤن فى ذلك الوقت، وأوقف أربعه من أمرايه على أربع جهاته وعمل على ذمة العماره طواحين للجبس وقمن الجير وأحضر البلاط من الجبل قطعا كبارا ونشرها على قياس مطلوبه، وكذلك الرخام وذلك خلاف أنقاش رخام المكان وأنقاض الأماكن التى اشتراها وهدمـها وأخذ أخشابهـا وأنقاضها ونقلها على الجمال وفى المراكب لأجل ذلك.

فمنها البيت الكبير الذى كان أنشاه حسن كتخدا الشعراوى على بركة الرطلى ، وكان به شى كثير من الأخـشـاب والأنقـاض والشـبـابيك والرواشن، نقلت

جميعها إلى العماره فصار كل من الأمرا المشيدين يبنى وينقل ويبيع ويفرق على من أحب حتى بنوا دورا من جانب تلك العمارة، والطلب مستمر حتى آتوه فى مده يسيره وركب على جميع الشبابيك شرايح الزجاج أعلى وأسفل وهو شى كثير جدا وفى المخادع المختصة به ألواح الزجاج البلور الكبار التى يساوى الواحد منها خمسمايه درهم وهو كثيرا أيضا، ثم فرشه جميعه بالبسط الرومى والفرش الفاخر وعلقوا به الستاير والوسايد المزركشة وطوالات المراتب كلها مقصبات، وبنى به حمامين علويا وسفليا إلى غير ذلك فما هو رلا أن تم ذلك فأقام به نحو عشرين يوما ثم خرج إلى الشرقيه فأقام هناك. وحضر الفرنسيس فسكنه سارى عسكربونابارته فعمر فيه أيضا عماره، ولما سافر وأقام مكانه كليبر عمر فيه أيضا، فلما قتل كليبر وتولى عوضه عبد الله منو. ولم يزل مجتهدا فى عمارته وغير معاليمه وأدخل فيه المسجد وبنى الباب على الوضع الذى كان عليه وعقد فوقه القبه المحكمه وأقام فى أركانها الأعمده بوضع محكم متقن وعمل السلالم



العراض التى يصعد منها إلى الدور العلوى والسفلى من على يمين الداخل، وجعل مساكنه كلها تنفذ إلى بعضها البعض على طريقة وضع مساكنهم، واستمر يبنى فيه ويعمر مدة إقامته إلى أن خرج من مصر.

فلما حضر العثمانيه وتولى على مصر محمد باشا المذكور رغب فى سكنى هذا المكان وشرع فى تعميره هذه العماره العظيمه، حتى إنه رتب لحرق الجير فقط اثنى عشر قمينا تشتغل على الدوام، والجمال التى تنقل الحجر من الجبل تلات قطارات* كل قطار سبعون جملا، وقس على ذلك بقية اللوازم.

* قطارات: بمعنى قوافل.

ورموا جميع الأتربه فى البركه [الرطلى] حتى ردموا منها جانبا كبيرا ردما غير معتدل، حتى شوهوا البركه وصارت كلها كيمانا وأتربه.

والعجب أن منتهى الرغبه فى سكن هذه البركه وأمثالها إنما هو تسريح النظر وانبساط النفس باتساعها وإطلاقها وخصوصا أيام النيل حين تمتلى بالماء فتصير لجة ماء دايره بركاويه مملوه بالزورق والقنج والشطيات المعده للنزهه تسرح فيها ليلا ونهارا، وعند دخول المسا يوقدون القناديل بدايرها فى جميع قواطين* البيوت، فيصير لذلك منظر بهيج لاسيما فى الليالى المقمرة فيختلط ضحك الماء فى وجه البدور والقناديل وانعكاس خيالها كأنها أسفل الماء أيضا، وصدى أصوات القيان والأغانى فى ليال لاتعد من الأعمار.

* قواطين: مفردها قطين، اى الحجرة.

إذا الناسُ ناسٌ والزمان زمان

فلا حول ولا قوة إلا الله العلى العظيم.



منظر حديقة قصر الألفى بك مقر القيادة العامة للجيش الفرنسى

إلى أن كان ماكان ووقعت هذه الحوادث، فتضاعف المسخ والتشويه، والعجب أنه لما وقعت الحرابه بين الفرنساويه والعثمانيه وأهل مصر وقامت الحرب ستة وثلاثين يوما وهم يضربون على ذلك البيت بالمدافع والقنابر لم يصبه شى ولم ينهدم منه حجر واحد .

ولما وقعت هذه الحرابه بين الباشا وعسكره احترق وانهدم فى ليله واحده، وكذلك احترق بيت الدفتردار وهو بيت "تلاته وليه" الذى كان أنشاه رضوان كتخدا الجلفى، وكان بيتا عظيما ليس له نظير فى عمارته وزخرفته وكلفته وسقوفه من أغرب ماصنعته أيدى بنى آدم فى الدقه والصنعه، وكله منقوش بالذهب واللازورد والأصباغ، وعلى مجالسه العليا قباب مصنعه وأرضه كلها بالرخام الملون فاحترق جميعه ولم يبق به شى إلا بعض الجلدران اللاطيه بالأرض.

وسكنت الفتنه وشق الوالى على أغا الشعراوى وذو الفقار المحتسب وأغات الإنكشاريه ونادوا بالأمان والبيع والشرا، فكانت مدة ولاية* هذا الباشا على

* رحيل محمد باشا.

مصر سنة وثلاثة أشهر وأحدا وعشرين يوما، وكان سيء التدبير ولايحسن التصرف ويحب سفك الدماء ولايتروى فى ذلك، ولا يضع شيا فى محله ويتكرم على من لايستحق ويبخل على من يستحق.

وفى آخر مدته داخله الغرور وطاوع قرنا السو المحدقين به، والتفت إلى المظالم والفرد على الناس وأهل القرى حتى إنهم كانوا حرروا دفاتر فردة عامة على الدور والأماكن بأجرة تلات سنوات وقيل أشنع من ذلك.

فأنقذ الله منه عباده وسلط عليه جنده وعساكره، وخرج مرغوما مقهورا على هذه الصورة، ولم يزل فى سيره إلى أن نزل بقليوب بعد الغروب، فعشاه الشواربى شيخ قليوب، ثم سار ليلا إلى دجوه فأنزل الحريم والأثقال فى تلات مراكب وسار هو إلى جهة بنها وغالب جماعته تخلفوا عنه بمصر، وكذلك الكتخدا وديوان أفندى والخازندار الذى كان بالقلعه والسلحدار وخليل أفندى خزنه كاتب.

وفى يوم الاتنين عاشره نودى بالأمان أيضا وأن العساكر لايتعرضون لأحد بأذيه وكل من تعرض له عسكرى بأذيه ولو قليله فليشتكه إلى القلق الكاين بخطته ويحضره إلى طاهر باشا فينتقم له منه.

وفى يوم الخميس وقت العصر حضر الأغا والوجاقلى

* الاتفاق على تلبيس طاهر باشا قائمقام حتى تحضر له النيابة على مصر.

إلى بيت القاضى وأعلموه باجتماعهم فى غد عند طاهر باشا ويتفقون على تلبيسه* قايمقام، ويكتبون عرض محضر بحاصل ماوقع.

وفى ذلك اليوم حضر جعفر كاشف تابع إبراهيم بك وبيده مراسلة خطابا للعلما والمشايخ، وقيل إنه كان بمصر من مدة أيام وكان يجتمع بطاهر باشا كل وقت بالشيخونيه.

فلما أصبح يوم الجمعه رابع عشره اجتمع المشايخ عند القاضى وركبوا صحبته وذهبوا عند طاهر باشا وعملوا ديوانا وأحضر القاضى فروه سمور ألبسها لطاهر باشا ليكون قايمقام حتى تحضر له الولايه، أو يأتى وال وكلموه على رفع الحوادث والمظالم وظنوا فيه الخيريه واتفقوا على كتابة عرضحال بصورة ماوقع.

* خطاب من الأمرا القبالى بطلب الصلح.

وقروا المكتوب* الذى حضر من عند الأمرا القبالى وهو مشتمل على آيات وأحاديث وكلام طويل: ومحصله أنهم طايعون وممتثلون ، ولم يحصل منهم تعد ولا محاربه وإنما إذا حضروا إلى جهه أو بلده وطلبوا المرور عليها أو قضا حاجة من بندر منعهم الحاكم والعساكر التى بها ونابذوهم بالمحاربه والطرد ، ومع ذلك إذا وقعت بيننا محاربه لايثبتون لنا وينهزمون ويفرون، وقد تكرر ذلك المره بعد المره ولا يخفى مايترتب على ذلك من النهب والسلب وهتك الحراير، وقد وقع أننا لما حضرنا بالمنيه فحصل ماحصل بدءونا بالطرد والإبعاد وحصل ماحصل مما

ذكر وعوقب من لا جنى ، وذنب الرعيه والعباد فى رقابكم .

وقد التمسنا من ساداتنا المشايخ أن يتشفعوا لنا عند حضرة الوزير ويعطينا مايقوم بمونتنا ومعايشنا، فأبى حضرة الوزير إلا إخراجنا من القطر المصرى كليا، وبعثتم تحذرونا مخالفة الدوله العليه مستدلين علينا بقوله تعالى :« أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »*، ولم تذكروا لنا آية تدل على أننا نخرج من تحت السما ولا آية تدل على أننا نُلقى بأيدينا إلى التهلكه.

* هذه الآية من سورة النساء. رقم ٥٨.

وذكرتم لنا أن حريمنا وأولادنا بمصر وربما ترتب على المخالفه وقوع الضرر بهم، وقد تعجبنا من ذلك فإننا إنما تركنا حريمنا ثقه بأنهم فى كفالتكم وعرضكم، على أن المروه تأبى صرف الهمه إلى امتداد الأيدى للحريم، والرجال للرجال، على أن الفلك دوار والله يقلب الليل والنهار، والملك بيد الله يوتيه من يشا ، قل اللهم مالك الملك* الآية،فلما قرى ذلك بتفاصيله تعجب السامعون له فكأنما كانوا ينظرون من خلف حجاب الغيب وأخذ ذلك المكتوب طاهر باشا وأودعه فى جيبه.

* وهى من سورة آل عمران. رقم ٢٥.

ثم قال الحاضرون فما يكون الجواب، قال حتى نتروى في ذلك، ثم كتب لهم جوابا يخبرهم فيه بما وقع ويأمرهم، بأنهم يحضرون بالقرب من مصر لربما اقتضى الحال إلى المعاونه.

وفى يوم الاثنين سابع عشرة كتبوا العرض المحضر

بصورة ماوقع وختم عليه المشايخ والوجاقليه وأرسلوه إلى إسلامبول.

* محمد باشا المعزول يمر على القرى ويجمع الأموال لحسابه بالقوة.

وأما محمد باشا المهزوم* فإنه لم يزل في سيره حتى وصل إلى المنصوره وفرد على أهلها تسعين ألف ريال وكذلك فرد على ما أمكنه من بلاد الدقهليه والغربيه فرد ومظالم وكلفا وصادف في طريقه بعض المعينين حاضرين بمبالغ الفرده السابقة فأخذها منهم.

* طاهر باشا يغدر بمماليك القاهرة.

وفي ليلة التلات بعد المغرب تامن عشره أرسل طاهر باشا عدة من العسكر فقبضوا* على جماعه من بيوتهم وهم أغاة الإنكشاريه، ومصطفى كتخدا الرزاز ومصطفى أغا الوكيل وأيوب كتخدا الفلاح وأحمد كتخدا على والسيد أحمد المحروقي وخليل أفندى كاتب خزنة محمد باشا، وأطلعوهم إلى القلعه وأصبح الناس يتحدثون بذلك. ثم إن جماعة من الفقها سعوا إلى السيد أحمد المحروقي فأنزلوه إلى بيته، في تاني يوم وعملوا عليه ستمايه كيس . ولزم العسكر بيته وكذلك بقية الجماعه منهم من عمل عليه مايتا كيس وأقل وأكثر، وأقاموا في الترسيم.

وفي يوم الجمعه حادى عشرينه ركب طاهر باشا بالموكب والملازمين وصلى الجمعه بجامع الحسين وفيه وردت الأخبار بأن الأمرا المصريه رجعوا إلى قبلي ووصلوا إلى قرب بني سويف.

وفيه تشفع شيخ السادات فى مصطفى أغا الوكيل وأخذه إلى بيته وعملوا عليه مايتين وعشرين كيسا.

فلما كان يوم الأحد أرسل طاهر باشا يطلب مصطفى أغا الوكيل من عند شيخ السادات، فركب معه شيخ السادات وسعيد أغا وكيل دار السعاده، وذهبا صحبته إلى بيت طاهر باشا فلما طلعوا إلى أعلى الدرج خرج عليهم جماعة من العسكر وجذبوا مصطفى أغا من بينهم ، وقبضوا عليه وأنزلوه إلى أسفل وأخذوه إلى القلعه ماشيا على أقدامه، فحنق الشيخ السادات، ودخل على طاهر باشا وتشاجر معه، فأطلعه على مكتوب مرسل من محمد باشا إليه، فقال هذا لا يؤاخذ به، وإنما يؤاخذ إذا كان المكتوب منه إلى محمد باشا ثم انحط الأمر على أنه لايقتله ولا يُطلقه، ثم إن طاهر باشا ركب ليلا وذهب إلى شيخ السادات وأخذ خاطره بعد مافزع من حضوره إليه فى ذلك الوقت.

وفى تالت عشرينه أطلعوا يوسف كتخدا الباشا إلى القلعه وألزموه بمال وكذلك خزنه كاتب.

وفيه خرج أمير الألزم لملاقاة الحجاج فنصب وطاقه* بقبة النصر وأقام هناك.

* الوطاق: تركية الأصل محرفة عن أوتاغ بمعنى الخيمة.

وفيه حضر هجان على يده مكاتيب مؤرخه فى عشرين شهر الحجه مضمونها أن الوهابيين أحاطوا* بالديار

* محاصرة الوهابيين للديار الحجازية.



الحجازيه، وأن شريف مكه الشريف غالب تداخل مع شريف باشا وأمير الحاج المصرى والشامى وأرشاهم، على أن يتعوقوا معه أياما حتى ينقل ماله ومتاعه إلى جده، وذلك بعد اختلاف كبير وحل وربط وكونهم يجتمعون على حربه ثم يرجعون عن ذلك، إلى أن اتفق رأيهم على الرحيل، فأقاموا مع الشريف اثنى عشر يوما، ثم رحلوا، ورحل الشريف بعد أن أحرق داره ورحل شريف باشا أيضا إلى جده.

وفيه قبضوا على أنفار من الوجاقليه أيضا المستورين، وطلبوا منهم دراهم وعملوا على طايفة القبط الكتبه خمسمايه كيس بالتوزيع.

وفى خامس عشرينه قبضوا على جماعة منهم وحبسوهم وكذلك عملوا على طايفة اليهودماية كيس.

وفيه حضر أحمد أغا شويكار إلى مصر بمراسله من الأمرا القبالى.

وفى يوم الاربع سادس عشرينه سافرت التجريده المعينة لمحمد باشا وكبيرها حسن بك أخو طاهر باشا فنزلوا فى مراكب وفى البر أيضا.

وفى يوم الخميس قبضوا على المعلم ملطى القبطى من أعيان كتبة القبط، وهو الذى كان قاضيا أيام

الفرنسيس، فرموا رقبته* عند باب زويله، وكذلك قطعوا رأس المعلم حنا الصبحانى أخى يوسف الصبحانى من تجار الشوام، عند باب الخرق فى ذلك اليوم، وأقاما مرميين إلى تانى يوم.

* قطع راس المعلم ملطى القبطى، والمعلم حنا الصبحانى.

وفى يوم السبت غايته رجع أحمد أغا شويكار بجواب من الباشا إلى رفقاه وأشيع وصول إبراهيم بك ومن معه إلى زاوية المصلوب، ووصلت مقدماتهم إلى بر الجيزه يقبضون الكُلف من البلاد.

وفيه أفرجوا عن يوسف كتخدا الباشا بعد أن دفع ثمانين كيسا ونزل من القلعة إلى داره.

وفيه أرسل طاهر* باشا إلى مصطفى أفندى رامز الكاتب وإبراهيم أفندى الروزنامجي وسليمان أفندى فأخذوهم عند عبد الله أفندى رامز الروزنامجى الرومى.

* كانت حصيلة الصراعات فى هذا الشهر تولى طاهر باشا قايمقام فى انتظار توليه السلطة بأمر من السلطات، ونظراً لأنه من الأرناؤد فقد ناصبه الانكشارية العداء ولذلك قرر التخلص منهم فوراً فقبض على بعض قياداتهم والمتحالفين معهم من كبار الموظفين العثمانيين الذين يديرون الخزانة والدفتردارية وسك العملة التى يشرف عليها شاه بندر التجار أحمد المحروقى، كما منع عن الانكشارية رواتبهم مما اجبرهم فى النهاية على تدبير مؤامرة أدت إلى اغتياله كما سنرى فى وقائع الشهر التالى (صفر)

شهر صفر (سنة ١٢١٨)

استهل بيوم الأحد فى تانيه حضر الأمراء القبالى إلى الشيخ الشيمى.

وفى ليلة الاربع رابعه خنقوا أحمد كتخدا على باش اختيار الإنكشاريه ومصطفى كتخدا الرزاز كتخدا

العزب وكانا محبوسين بالقلعه، وضربوا وقت خنقهما مدفعين فى الساعة الثالثه من الليل ورموهما إلى خارج.



وفى صبحها يوم الاربع حضر جواب من العسكر الذين ذهبوا لمحاربة محمد باشا مضمونه أنه انتقل من مكانه وذهب إلى جهة دمياط وأنه تخلف عنه جماعه من العسكر الذين معه وأرسلوا يطلبون منهم الأمان، فلم يجاوبوهم حتى يستأذنوا فى ذلك فأجابهم طاهر باشا بأن يعطوهم أمانا ويضموهم إليهم.

وفى ذلك اليوم أشيع أن طاهر باشا قاصد التعديه إلى البر الغربى ليسلم على الأمرا المصرليه، وفى ذلك الوقت أمر بإحضار حسن أغا محرم، فارتاع من ذلك وأيقن بالموت، فلما حضر بين يديه خلع عليه فروه وجعله معمارجى باشا، وأعطاه ألفى فرانسا وأمره أن يتقيد بتعمير القلعه، وما صدق أنه خرج من بين يديه وسكن روعه.

وفى ذلك الوقت حضر إليه طايفه من الإنكشاريه، وهم الذين كانوا حضروا فى أول المحرم فى النقاير مع الجبخانه ليتوجوا إلى الديار الحجازيه، وأنزلوهم بجامع الظاهر خارج الحسينيه.

وحصلت كاينة محمد باشا وهم مقيمون على ماهم عليه، ولما خرج محمد باشا وظهر عليه طايفة

الأرنؤد، شمخوا على الإنكشاريه وصاروا ينظرون إليهم بعين الاحتقار مع تكبر الإنكشاريه ونظرهم فى أنفسهم أنهم فخذُ السلطنة، وأن الأرنؤد خدمهم وعسكرهم وأتباعهم.

ولما فَرَدْ الفِرَدْ طاهر باشا وصادر الناس صار يدفع إلى طايفة الأرنؤد فى جماكيهم المنكسره أو يحولهم بأوراق على المصادرين، وكلما طلب الإنكشاريه شيا من جماكيهم قال لهم ليس لكم عندى شى، ولا أعطيكم إلا من وقت ولايتى، فإن كان لكم شى فاذهبوا وخذوه من محمد باشا، فضاق خناقهم وأوغر صدورهم وبيتوا أمرهم مع أحمد باشا والى المدينة.

فلما كان فى هذا اليوم ركب الجماعة المذكورون من جامع الظاهر وهم نحو المايتين وخمسين نفرا بعددهم وأسلحتهم كما هى عادتهم، وخلفهم كبراوهم وهم إسماعيل أغا ومعه آخر يقال له موسى أغا وآخر فذهبوا على طاهر باشا وسألوه فى جماكيهم، فقال لهم ليس لكم عندى إلا من وقت واليتى، وإن كان لكم شى مكسور فهو مطلوب لكم من باشتكم محمد باشا، فألحوا عليه فنتر فيهم، فعاجلوهُ بالحسام* وضربه أحدهم فطير رأسه ورماها من الشباك إلى الحوش، وسحبت طوايفهم الأسلحة، وهاجوا فى أتباعه، فوقع الحريق والنهب فى الدار، ووقع فى الناس كرشات، وخرجت العساكر الإنكشاريه وبأيديهم السيوف المسلوله ومعهم ما خطفوه من النهب،

* اغتيال طاهر باشا على يد الجند الانكشارية، لإنه ارناؤدى.

فانزعجت الناس وأغلقوا الأسواق والدكاكين، وهربوا إلى الدور وأغلقوا الأبواب وهم لايعلمون ما الخبر.

وبعد ساعة شاع الخبر وشق الوالى والأغا ينادون بالأمن والأمان حسب مارسم أحمد باشا*، وكرروا المناداه بذلك.

* هو قائد الانكشارية ووالى المدينة المنورة.

ثم نادوا باجتماع الإنكشاريه البلديه وخلافهم عند أحمد باشا على طايفة الأرنؤد وقتلهم* وإخراجهم من المدينة فتحزبوا أحزابا ومشوا طوايف طوايف، وتجمع الأرنؤد جهة الأزبكيه وفى بيوتهم الساكنين فيها، وصار الإنكشاريه إذا ظفروا بأحد من الأرنؤد أخذوا سلاحه وربما قتلوه، وكذلك الأرنؤد يفعلون معهم مثل ذلك .

* اندلاع المعارك بين الارناؤد والانكشارية.



هذا والنهب والحريق عمال فى بيت طاهر باشا، وفرج الله عن المعتقلين والمحبوسين على المغارم والمصادرات، وبقيت جثة طاهر باشا مرميه لم يلتفت إليها أحد، ولم يجسر أحد من أتباعه على الدخول إلى البيت وإخراجها ودفنها وزالت دولته، وانقضت سلطته فى لحظة. فكانت مدة غلبته ستة وعشرين يوما، ولو طال عمره زياده لأهلك الحرث والنسل، وكان صفته أسمر اللون نحيف البدن أسود اللحيه قليل الكلام بالتركى فضلا عن العربى، ويغلب عليه لغة الأرنؤديه، وفيه هوس وانسلاب وميل للمسلوبين والمجاذيب والدراويش، وعمل له خلوة بالشيخونيه وكان يبيت



فيها كثيرا ويصعد مع الشيخ عبد الله الكردى إلى السطح فى الليل ويذكر معه، ثم سكن هناك بحريمه. وقد كان تزوج بامرأة من نسا الأمرا، وكان يجتمع عنده أشكال مختلفة الصور، فيذكرُ معهم ويجالسهم ويظهر الاعتقاد فيهم، ولما رأوا منه ذلك خرج الكثير من الأوباش وتزيا بما سولت له نفسه وشيطانه، ولبس له طرطورا طويلا ومرقعه ودلقا، وعلق له جلاجل وبهرجان وعصا مصبوغه، وفيها شخاشيخ وشراريب وطبله يدق عليها ويصرخ ويزعق ويتكلم بكلمات مستهجنه وألفاظ موهمه بأنه من أرباب الأحوال ونحو ذلك.

ولما قتل أقام مرميا إلى تانى يوم لم يدفن، ثم دفنوه من غير رأس بقبه عند بركة الفيل، وأخذ بعض الينكجرية رأسه وذهبوا بها ليوصلوها إلى محمد باشا ويأخذوا منه البقشيش، فلحقهم جماعة من الأرنؤد فقتلوهم وأخذوا الرأس منهم ورجعوا بها ودفنوها مع جثته.

وكتب أحمد باشا مكتوبا إلى محمد باشا يعلمه بصورة الواقعه ويستعجله للحضور*، وكذلك المحروقى وسعيد أغا أرسل كل وحد مكتوبا بمعنى ذلك وظنوا إتمام المنصف.

* أحمد باشا يطلب من محمد باشا الرجوع.

ولما نهبوا بيته نهبوا ما جاوره من دور الناس من الحبانيه إلى ضلع السمكه إلى درب الجماميز.

ثم إن أحمد باشا أحضر المشايخ وأعلمهم بما وقع وأمرهم بالذهاب إلى محمد على ويخاطبوه بأن يذعن إلى الطاعه، فلما ذهبوا إليه وخاطبوه فى ذلك أجاب بأن أحمد باشا لم يكن واليا على مصر، بل إنما هو والى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاه والسلام، وليس له علاقه بمصر، وأنا كنت الذى وليت طاهر باشا لكونه محافظ الديار المصرية من طرف الدوله وله شبهه فى الجمله، وأما أحمد باشا فليس له جره ولا شبهه، فهو يخرج* خارج البلد ويأخذ معه الإنكشاريه ونجهزه ويسافر إلى ولايته.

* محمد باشا يطلب من احمد باشا الرحيل عن مصر بجنوده من الانكشارية.

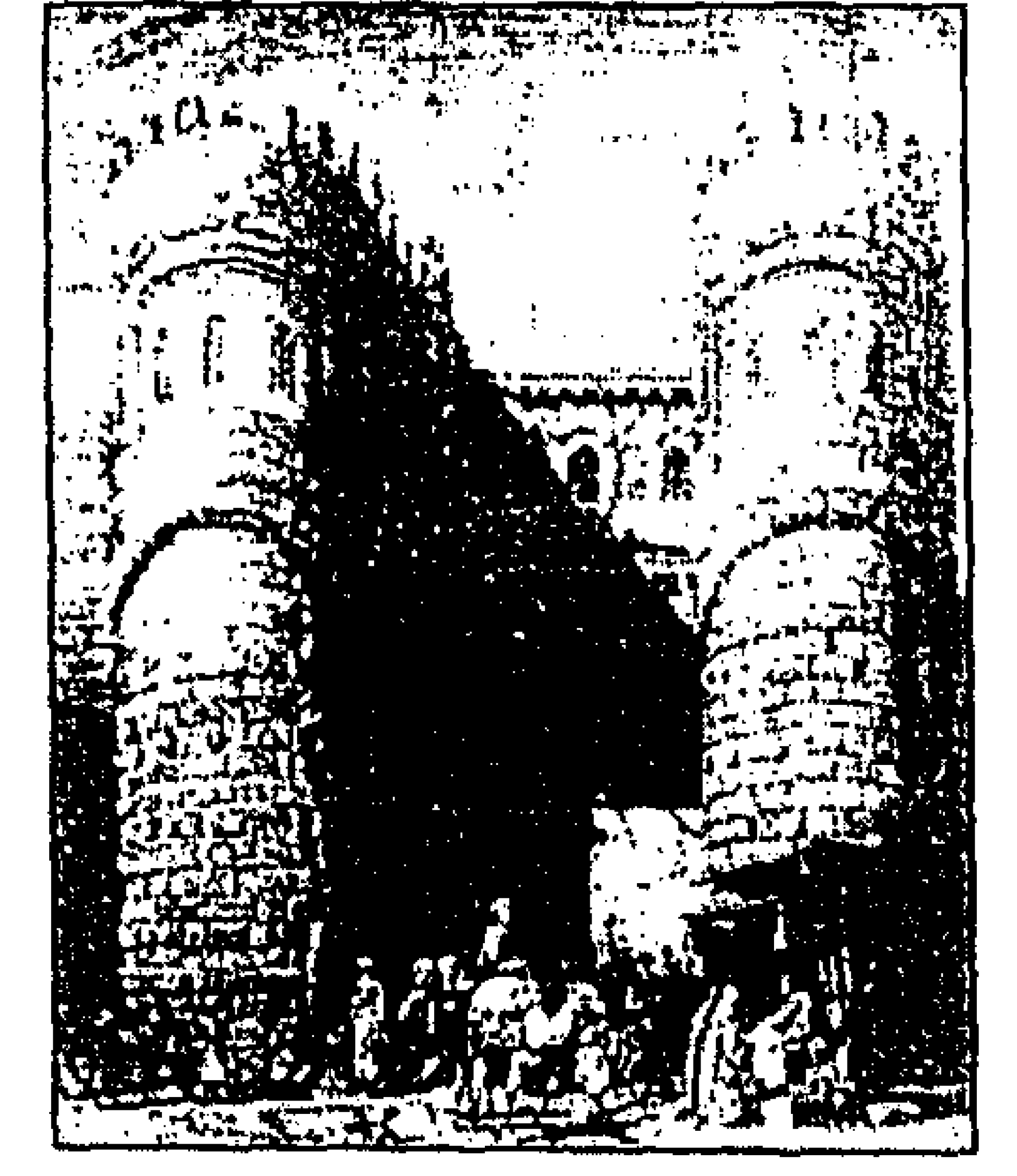
فقاموا من عنده على ذلك، واستمر الإنكشاريه على ماهم عليه من النهب وتتبع الأرنؤد وتحزبوا وتسلحوا وعملوا متاريس على جهاتهم ونواحيهم إلى آخر النهار، فنادوا على الناس بالسهر والتحفظ، والدكاكين تفتح والقناديل تعلق، وبات الناس على تخوف.

ولما أصبح نهار الخميس مر الوالى والأغا ينادون بالأمان برسم حكم أحمد باشا، ثم إن أحمد باشا أرسل أوراقا إلى المشايخ بالحضور فذهبوا إليه، فقال لهم أريد منكم أن تجمعوا الناس والرعية وتأمروهم بالخروج على الأرنؤد وقتلهم*، فقالوا سمعا وطاعه، وأخذوا

* استفحال النزاع بين محمد باشا واحمد باشا.

فى القيام، فقال لهم لا تذهبوا وكونوا عندى وأرسلوا للناس كما أمرتكم، فقالوا له إن عادتنا أن يكون جلوسنا فى المهمات بالجامع الأزهر ونجتمع به ونرسل إلى الرعية فإنهم عند ذلك لايخالفون، وكان مصطفى أغا الوكيل حاضرا فرادهم فى ذلك وعرف منهم الانفكاك، فلم يزالوا حتى تخلصوا وخرجوا.

وكان أحمد باشا أرسل أحضر الدفتردار ويوسف كتخدا الباشا وعبد الله أفندى رامز الروزنامجى وغالب أكابر العثمانيه ومصطفى أغا الوكيل كان مرهونا عند شيخ السادات، كما تقدم فعندما سمع بقتل طاهر باشا ركب بجماعته وأبهته وأخذ معه عده من الإنكشاريه، وذهب إلى عند أحمد باشا ووقف بين يديه يعاضده ويقويه، وأما محمد على والأرنؤد فإنهم مالكون القلعه الكبيره ويجمعون أمرهم ويراسلون الأمرا.


باب الفتوح

فلما أصبح ذلك اليوم عدى الكثير من المماليك والكشاف إلى بر مصر ومروا فى الأسواق وعدى أيضا محمد على وقابلهم فى بر الجيزه ورجع، وعدى الكثير منهم من ناحية إنبابه، ومعهم عُربان كثيره وساروا إلى جهة خارج، باب النصر وباب الفتوح، وأقاموا هناك.

وأرسل إبراهيم بك ورقه إلى أحمد باشا يقول فيها إنه بلغنا موت المرحوم طاهر باشا عليه الرحمه والرضوان،

فأنتم تكونون مع أتباعكم الأرنؤد حالا واحدا ولا تتداخلوا مع الإنكشاريه. فلما كان ضحوة النهار ذهب جماعه من الإنكشاريه إلى جهة الرميله فضربوا عليهم من القلعه مدافع فولوا وذهبوا ، ثم بعد حصه ضربوا أيضا عدة مدافع متراسله على جهة بيت أحمد باشا وكان ساكنا فى بيت على بك الكبير بالداوديه فعند ذلك أخذ أمره فى الانحلال وتفرق عنه غالب الإنكشاريه البلديه. ووافق أن المشايخ لما خرجوا من عنده وركبوا لم يزالوا سائرين إلى أن وصلوا جامع الغوريه فنزلوا به وجلسوا وهم فى حيره متفكرين فيما يصنعون ، فعندما سمعوا صوت المدافع قاموا وتفرقوا إلى بيوتهم.

ثم إن إبراهيم بك أرسل ورقه إلى أحمد باشا قبيل العصر يأمره* فيها بتسليم الذين قتلوا طاهر باشا ويخرج إلى خارج البلد، ومعه مهله إلى حادى عشر ساعه من النهار ولايقيم إلى الليل، وإن خالف فلا يلومن إلا نفسه، فلما رأى حال نفسه مضمحلا لم يجد بدا من الامتثال إلا أنه لم يجد جمالا يحمل عليها أثقاله، فقال للرسول سلم عليه وقل له يرسل لى جمالا وأنا أخرج ، وأما تسليم القاتلين فلا يمكن، فقال له أما حضور الجمال فغير متيسر فى هذا الوقت لبعد المسافة، فقال له وكيف يكون العمل، فقال : يركب حضرتكم ويخرج ووقت ماحضرت الجمال الليلة أو غدا حُملت الأثقال ولحقتكم خارج البلد، فعند ذلك قام وركب وقت العصر، وتفرق من كان معه من أعيان

* إبراهيم بك يأمر احمد باشا بالرحيل عن القاهرة فيمتثل للأمر.

العثمانيه مثل الدفتردار وكتخدا بك والروزنامجى، وذهبوا إلى محمد على والتجئوا إليه فأظهر لهم البشر والقبول.

وخرج أحمد باشا فى حاله شنيعه وأتباعه مشاه بين يديه وهم يعدون فى مشيهم، وعلى أكتافهم وسايد وأمتعه خفيفه، فعندما خرج من البيت دخل الأرنؤد ونهبوا جميع مافيه ولم يزل سايرا حتى خرج من المدينه من باب الفتوح فوجد العسكر والعربان وبعض كشاف ومماليك مصريه محدقه بالطرق، فدخل مع الإنكشاريه إلى قلعة الظاهر وأغلقوها عليهم، وخرج خلفهم عده وافره من الأرنؤد والكشاف المصرليه والعرب والغز وأحاطوا بهم، وأقاموا على ذلك تلك الليله.

وبعد العشا مر الوالى وأمامه المناداه بالأمان حسب مارسم إبراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا* محمد على، فكانت مدة الولايه لأحمد باشا يوما وليله لاغير.

وفى ذلك اليوم نهبوا بيت يوسف كتخدا بك وأخرجوا منه أشيا كثيره أخذ ذلك جميعه الأرنؤد، وأصبح يوم الجمعه فركب المشايخ والأعيان وعدوا إلى الجيزه وسلموا على إبراهيم بك والأمرا.

وفيه استأذن الدفتردار وكتخدا بك محمد على فى الإقامه عنده أو الذهاب فأذن لهما بالتوجه إلى

* الجبرتى يذكر اسم محمد على مسبوقاً بافندينا لأول مرة.
فكلمة افندينا: من افندى المأخوذة من الكلمة العامية اليونانية "افنديس"، دخلت فى اللغة التركية الأناضولية منذ القرن ١٣ الميلادى. وقد استعملها محمد الفاتح فى فرمانه اليونانى الموجه لأهل "غلطه" بمعنى السيد العظيم. كما استعملها العثمانيون لقباً لبعض كبار الموظفين فقد كان يقال لقاضى استانبول

بيوتهما فركبا قبيل الظهر وسارا إلى بيت الدفتردار وهو بيت البارودى، فدخل كتخدا بك مع الدفتردار لعلمه نهب بيته فنزلا وجلسا مقدار ساعه، وإذ بجماعة من كبار الأرنؤد ومعهم عده من العسكر وصلوا إليهما وعند دخولهم طلبوا المشاعلى من بيت على أغا الشعراوى، وهو تجاه بيت البارودى فلم يجدوه ، فذهب معهم رفيق له وليس معه سلاح، فدخلوا الدار وأغلقوا الباب .

وعلم أهل الخطه مرادهم فاجتمع الكثير من الأوباش والجعيديه والعسكر خارج الدار يريدون النهب، ولما دخلوا عليهما قبضوا أولا على الدفتردار وشلحوه من ثيابه وهو يقول : «عيبتر»، وأصابه بعضهم بضربه على يده اليمنى، وأخرجوه إلى فسحة المكان وقطعوا رأسه بعدة ضربات وهو يصيح مع كل ضربه لكون المشاعلى لايحسن الضرب، ولم يكن معه سلاح بل ضربه بسلاح بعض العسكر الحاضرين.

ثم فعلوا ذلك بيوسف كتخدا بك وهو ساكت لم يتكلم وأخذوا الرأسين وتركوهما مرميين وخرجوا بعد مانهبوا ماوجدوه من الثياب والأمتعه بالمكان ، وكذلك ثياب أتباعهم وخرج أتباعهم فى أسوأ حال ، يطلبون النجاه بأرواحهم، ومنهم من هرب وطلع إلى حريم البارودى الساكنات فى البيت، وصرخ النساء وانزعجن.

وكانت الست نفيسه المراديه فى ذلك المنزل أيضا فى

(إستانبول افنديس)، واطلقت على مشايخ الإسلام، وكان الترك يطلقونها على رؤساء الديانات الأخرى. وكان الجيش العثمانى يلقب الضباط رسمياً بلقب افندى حتى رتبه البكباشى، فأما الملازمون واليوزباشيه الألايليه (اى المتخرجون من تحت السلاح فى الألايات)- فقد كانوا لأميتهم يلقبون بلقب اغا. وكان يقال لزوجة السلطان (قادين افندى): وكان الروزنامجى فى مصر هو رئيس طائفة الأفندية اى العاملين فى الدولة والقائمين بالأعمال الكتابية - كما اطلقت فى مصر على نقيب الأشراف، يقول الجبرتى فى تاريخه: "عمر افندى نقيب الأشراف، وكان المصريون يطلقون على محمد على باشا وعلى الباشات العثمانيين الذين تولوا الحكم قبله لقب (افندينا). وقد الغى لقب انفدى فى تركيا فى ٢٦ نوفمبر عام ١٩٣٤ وبطل فى مصر بعد سنة ١٩٥٢. انظر: تاصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى. احمد السعيد سليمان. ص٢٠-٢١.

تلك الأيام فعندما رأت وسول الجماعه أرسلت إلى سليم كاشف المحرمجي فحضر فى ذلك الوقت فكلمته فى أن يتلافى الأمر فوجده قد تم، فخرج بعد خروجهم بالرأسين فظن الناس أنها فعلته، ثم حضر محمد على فى أثر ذلك وطرد الناس المجتمعين للنهب، وختم على المكان وركب إلى داره. ثم إن على أغا الشعراوى استأذن محمد على فى دفنهما فأذن له فأعطى شخصا ستمايه نصف فضه لتجهيزهما وتكفينهما، فأخذها وأعطى منها لآخر مائتى نصف لاغير فأخذها وذهب، فوضعهما فى تابوت واحد من غير رؤوس ، وكانوا ذهبوا برؤوسهما إلى الأمرا بالجيزه ولم يردوهما ولم يدفنا معهما، ثم رفعهما بالتابوت إلى ميضاة جامع السلطان شاه المجاور للمكان، وهو مكان قذر فغسلهما وكفنهما فى كفن حقير ودفنهما فى حفره تحت حايط بتربه الأزبكيه من غير روس، فهذا ماكان من أمرهما.

* محاصرة الارناؤد للانكشارية فى القلعة.

وأما الذين فى قلعة الظاهر فإنهم انحصروا* وأحاط بهم الأرنؤد والغز والعربان وليس عندهم مايأكلون ولا مايشربون ، فصاروا يرمون عليهم من السور بالقرابين والبارود وهم كذلك يرمون عليهم من أسفل، وجمعوا أتربه وعملوها كيمانا عاليه وصاروا يرمون عليهم منها كذلك بقية نهار الجمعه، وليلة السبت اشتد الحرب بينهم بطول الليل.

وفى الصباح أنزلوا من القلعه مدافع كبارا وبنبه

وجبخانه وأصعدوها على التلول وضربوا عليهم إلى قبيل العصر، فعند ذلك طلبوا الأمان وفتحوا باب القلعه، وخرج أحمد باشا وصحبته شخصان وهما اللذان قتلا طاهر باشا فأخذوهم وعدوا بهم إلى الجيزه، وبطل الحرب والرمى وبقى طايفة الإنكشاريه داخل القلعه وحولهم العساكر.

فلما ذهبوا بهم إلى الجيزه أرسلوا أحمد باشا إلى قصر العينى وأبقوا الاتنين وهم إسماعيل أغا وموسى أغا بالقصر الذى بالجيزه، ونودى بالأمان للرعيه حسب مارسم إبراهيم بك وعثمان بك البرديسى ومحمد على*.

* لاحظ هنا انقسام السلطة فى هذه اللحظة بين المماليك والوالى ومحمد على.

وفى يوم السبت حضر أحمد بك أخو محمد على إلى جهة خان الخليلى لإجراء التفتيش على منهوبات الأرنؤد التى نهبها الإنكشاريه وأودعوه عند أصحابهم الأتراك ففتحوا عدة حوانيت وقهاوى وأماكن، وأخذوا مافيها. وأجلسوا طوايف من عسكر الأرنؤد على الخانات والوكايل والأماكن، وشلحوا اناسا كثيره من ثيابهم وربما قتلوا من عصى عليهم، فتخوف أهل خان الخليلى ومن جاورهم، واستمر الأرنؤد كلما مرت منهم طايفة ووجدوا شخصا فى أى جهه فيه شبه ما بالأتراك قبضوا عليه وأخذوا ثيابه، وخصوصا إن وجدوا شيا معه من السلاح أو سكينا، فتوقى أكثر الناس وانكفوا عن المرور فى أسواق المدينه، فضلا عن الجهات البرانيه.



جنود محمد على (الأرنؤد)

وفيه كثر مرور الغز والكشاف المصرليه وترددوا إلى المدينه، وعلى أكتفاهم البنادق والقرابين وخلفهم المماليك والعربان فيذهبون إلى بيوتهم ويبيتون بها ويدخلون الحمامات ويغيرون ثيابهم ويعودون إلى بر الجيزه، وبعضهم أمامه المناداة بالأمان عند مروره بوسط المدينه.

وفيه كتبت أوراق بطلب دراهم فرده على البلاد* المنوفيه والغربيه كل بلد ألف ريال، وذلك خلاف مضايف العرب وكلفهم.

* جباية فرد على البلاد.

وفي يوم الاتنين قتلوا شخصا بباب الخرق يقال إنه كان من أكبر المتحزبين على الأرنؤد وجمع منهوبات كثيره.

وفيه أيضا قتلوا* إسماعيل أغا وموسى أغا، وهما اللذان كانا قتلا طاهر باشا، وتقدم أنهم كانوا أخذوهما بالأمان صحبة أحمد باشا، وأرسلوا أحمد باشا إلى قصر العينى، وبقى الاثنان بقصر الجيزه فأخذوهما وعدوا بهما إلى البر الآخر وقطعوا رأسيهما عند الناصريه، وأخذوا الرأسين وذهبوا بهما إلى زوجة طاهر باشا بالشيخونيه، ثم طلعوهما إلى أخى طاهر باشا بالقلعه.

* قتل إسماعيل اغا وموسى اغا اللذين قتلا طاهر باشا.

وفيه تقلد سليم أغا أغات مستحفظان سابقا الأغاويه كما كان، وركب وشق المدينه بأعوانه وأمامه جماعه من العسكر الأرنؤد.

ولبسوا أيضا حسين أغا أمين خزنة مراد بك وقلدوه والي الشرطة. ولبسوا محمدا المعروف بالبرديسي كتخدا قائدا أغا، وجعلوه محتسبا وشق كل منهم بالمدينه وأمامهم المناداة بالأمن والأمان والبيع والشرا.

وفيه أخرجوا الإنكشاريه الذين بقلعة الظاهر وسفروهم إلى جهة الصالحيه وصحبتهم كاشفان وطايفة من العرب بعد ما أخذوا سلاحهم ومتاعهم بل وشلحوهم ثيابهم، والذى بقى لهم بعد ذلك أخذته العرب وذهبوا فى أسوأ حال وأنحس بال، وهم نحو الخمسماية إنسان، ومنهم من التجأ إلى بعض المماليك والغز فستر عليه وغير هيئته وجعله من أتباعه، وكذلك الإنكشاريه الذين كانوا مخفيين التجئوا إلى المماليك وانتموا إليهم وخدموهم، فسبحان مقلب الأحوال.

وحضر سليم كاشف المحرمجي وسكن بقلعة الظاهر وكتب إلى إقليم القليوبيه أوراقا وقرر على كل بلد ألف ريال، ومن كل صنف من الأصناف سبعين: مثل سبعين خروفا وسبعين رطل سمن وسبعين رطل بن وسبعين فرخه وهكذا، وحق طريق المعين لقبض ذلك خمسة وعشرون ألف فضه من كل بلد.

وفي يوم الاربع حادي عشره حضر محمد علي وعبد الله أفندي رامز الروزنامجي ورضوان كتخدا إبراهيم بك إلى بيت الدفتردار المقتول وضبطوا تركته، فوجد عنده نقودا تلتمايه كيس ، وقيمة عروض وجواهر

وغيرها نحو ألف كيس.

وفيه أرسل إبراهيم بك فجمع الأعيان والوجاقليه وأبرز لهم فرمانات وجدوها عند الدفتردار المقتول مضمونها تقريرات مظالم منها أن المماليك المصرليه كانوا أحدثوا على الغلال التى تباع إلى (بحر برا)* عن كل أردب محبوب، فيقرر ذلك بحيث يتحصل من ذلك للخزينه العامره عشرة آلاف كيس فى السنه، فإن نقصت عن ذلك القدر أضر ذلك بالخزينه.

* عوايد "بحر برا"

ومنها تقرير المليون الذى كان قرره الفرنسيس على أهالى مصر فى آخر مدتهم، ويوزع ذلك على الرووس والدور والعقار والأملاك، ومنها أن الحلوان عن المحلول تلات سنوات، ومنها أنه يحسب المضاف والبرانى إلى ميرى البلاد وغير ذلك.

وفي يوم الخميس ثانى عشره عمل عثمان بك البرديسى عزومة بقصر العينى وحضر إبراهيم بك والأمراء ومحمد على سرششمة ورفاقه، وبعد انقضا العزومه ألبسوا محمد علي ورفاقه خلعا وقدموا لهم تقادم.

وفي يوم الجمعه كذلك عملوا عزومه لابن أخي طاهر باشا المقيم بالقلعه وصحبته عابدى بك ورفقاهم بقصر العينى وخلعوا عليهم وقدموا لهم تقادم أيضا.

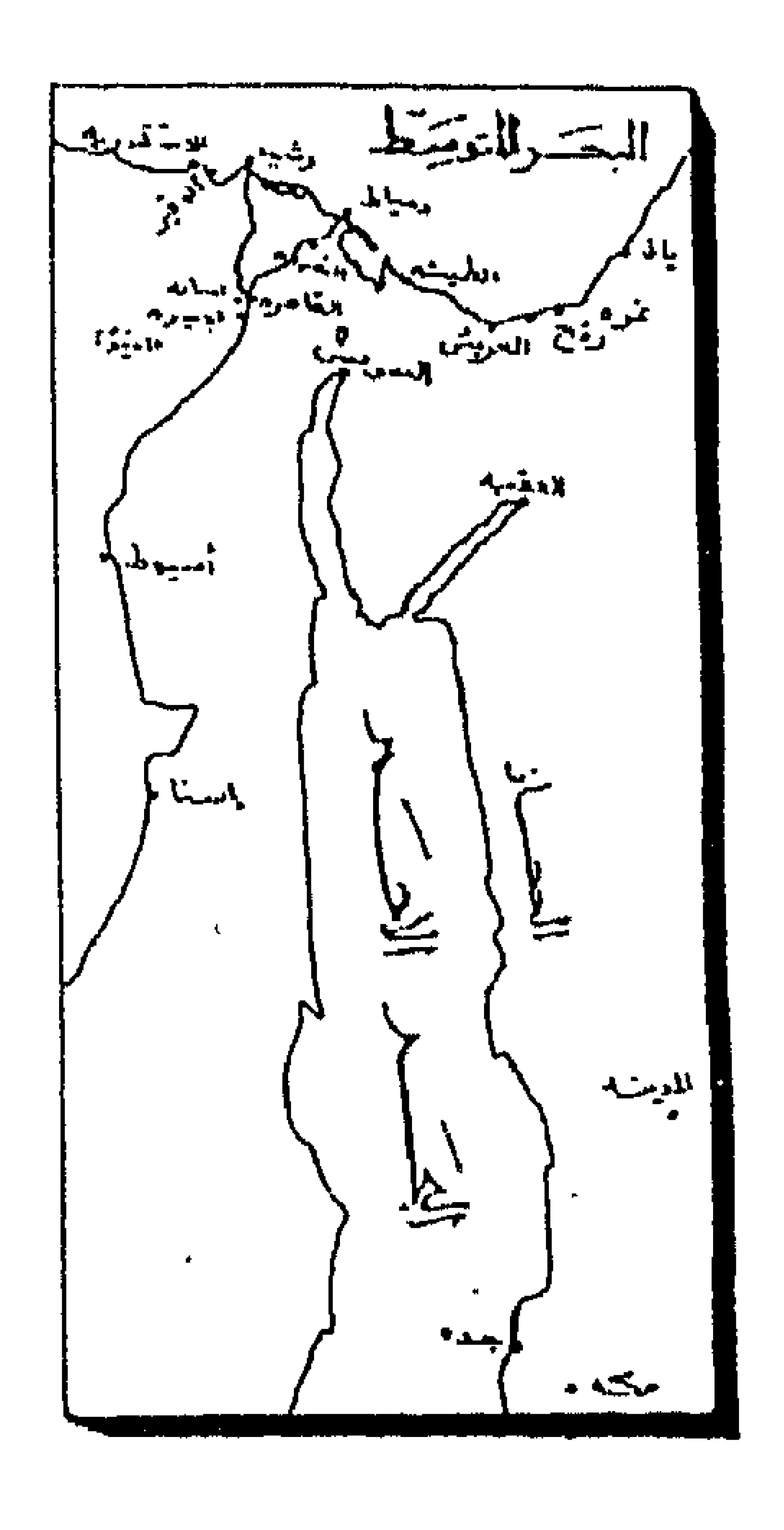
وفي يوم الأحد خامس عشره نزل ابن أخى طاهر باشا من القلعه ومن معه من أكابر الأرنؤد وأعيانهم

وعساكرهم بعزالهم ومتاعهم وماجمعوه من المنهوبات وهو شي كثير جدا وسلموا القلعه إلى الأمرا المصرليه. وطلع أحمد بك الكلارجي إلى باب الإنكشاريه، وأقام به وعبد الرحمن بك إبراهيم إلى باب العزب، وسليم أغا مستحفظان إلى القصر ، فعند ذلك اطمأن الناس بنزولهم من القلعه فإنهم كانوا على تخوف من إقامتهم بها وكثر فيهم اللغط بسبب ذلك، فلم يزل الأمرا يدبرون أمرهم حتى أنزلوهم منها ، وبقى بها طايفة من الأرنؤد وعليهم كبير يقال له حسين قبطان.

وفيه ورد الخبر أن محمد باشا لما قربت منه العساكر التى كان أرسلها له طاهر باشا ارتحل إلى دمياط كما تقدم.

*** استيلاء الوهابيين على مكة يوم عاشوراء بغير حرب.**

وفى يوم الاتنين وردت مكاتبات من الديار الحجازيه مؤرخه فى منتصف محرم، وفيها الأخبار باستيلا* الوهابين على مكه فى يوم عاشورا، وأن الشريف غالب أحرق داره، وارتحل إلى جدة. وأن الحجاج أقاموا بمكة ثمانية أيام زيادة عن المعتاد بسبب الارتباط قبل حصول الوهابيين بمكة ومراعاة للشريف، حتى نقل متاعه إلى جدة، ثم ارتحل الحجاج وخرجوا من مكة طالبين زيارة المدينة فدخل الوهابيون بعد ارتحال الحج بيومين.



وفى يوم الاربع ثامن عشره أخرجوا باقى الإنكشاريه والدلاه والسجمان، وكانوا مجتمعين بمصر القديمه فتضرر منهم الماره وأهل تلك الجهه بسبب قبايحهم وخطفهم أمتعة الناس بل وقتلهم ، وكان تجمعهم على

أن يذهبوا إلى جهة الصعيد ويتلفون على حسن باشا بجرجا، وينضمون إليه وإلى من بناحية الصعيد من أجناسهم، فذهب منهم من أخبر الأمرا المصرليه بذلك فضبطوا عليهم الطرق، واتفق أن جماعه منهم وقفوا لبعض الفلاحين المارين بالبطيخ والخضار فحجزوهم وطلبوا منهم دراهم فمر بهم بعض مماليك من أتباع البرديسى فاستجار بهم الفلاحون فكلموهم فتشاحنوا معهم وسحبوا على بعضهم السلاح، فقتل مملوك منهم فذهبوا إلى سيدهم وأعلموه فأرسل إلى إبراهيم بك فركب إلى العرضى ناحية بولاق التكرور وترك مكانه بقصر الجيزه محمد بك بشتك وكيل الألفى، وشركوا عليهم الطرق وأمروهم بالركوب والخروج من مصر إلى جهة الشام، واللحوق بجماعتهم فركبوا من هناك ومروا على ناحية الجبل من خلف القلعه إلى جهة العادليه وأمامهم وخلفهم بعض الأمرا المصرليه، ومعهم مدفعان وهم نحو ألف وخمسمابة وأزيد، فلما خرجوا وتوسطوا البريه عروا الكثير منهم ومن المتخلفين والمتأخرين عنهم، وأخذوا أسلحتهم وقتلوا كثيرا منهم. ورجع المماليك ومعهم الكثير من بنادقهم وسلاحهم يحملونه معهم ومع خدامهم، فلما رجع المماليك بهذه الصوره ووقف العسكر الأرنؤديه على أبواب المدينه انزعج الناس كعادتهم فى كرشاتهم، وأغلقوا الدكاكين، وعين للسفر معهم حسين كاشف الألفى يذهب معهم إلى القنطره، ونودى فى عصريته بالأمان وخروج من تخلف من الإنكشاريه، وكل من وجد منهم بعد ثلاثة أيام فدمه وماله هدر.



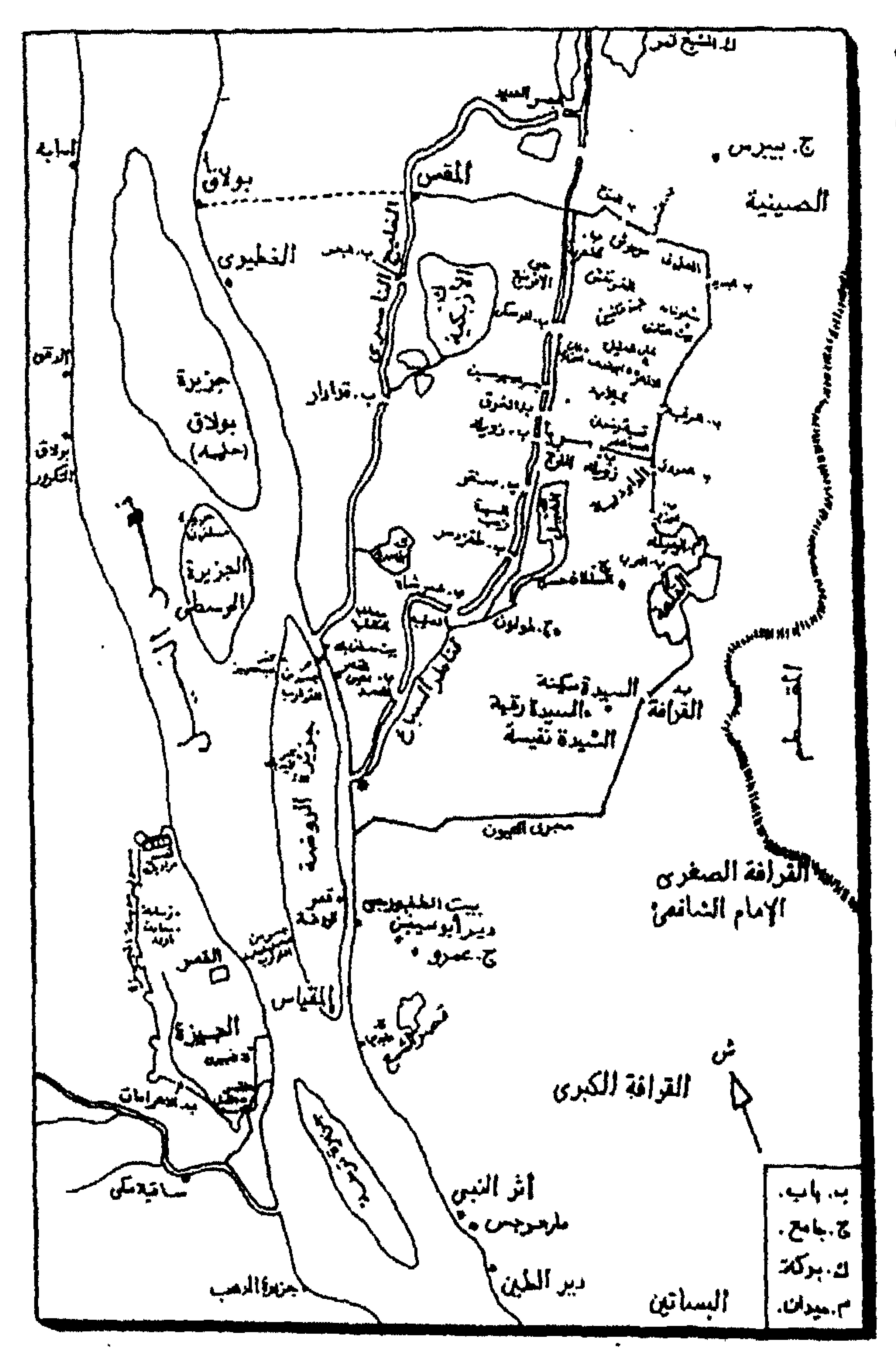
الجيش العثمانى: مرتزقة من جميع الأجناس

وفى يوم الخميس مر الوالى والمناداة أمامه تنادى على الأتراك والإنكشاريه والبشتاق والسجمان بالخروج من مصر، والتحذير لمن آواهم أو تاواهم، وكلما صادف فى طريقه شخصا من الأتراك قبض عليه وسأله عن تخلفه، فيقول أنا من المتسببين والمتأهلين من زمان بمصر، فيطلب منه بينه على ذلك ويستلمه عسكر الأرنؤد فيودعونه، فى مكان مع أمثاله حتى يتحققوا أمره.

وفيه مر بعض المماليك بجهة الميدان ناحية باب الشعريه فصادفوا جماعه من العسكر المذكورين يحملون متاعا لهم فاشتكلوا بهم [تحرشوا] وأرادوا أخذ سلاحهم ومتاعهم فمانعوهم وتضاربوا معهم، فقتل بينهم شخصان من الإنكشاريه وشخصان من المماليك أحدهما فرنساوى*.

* فرنسى ضمن عسكر المماليك.

وفيه حضر أيضا تلاته من المماليك إلى وكالة الصاغه إلى رجل رومى ططرى ، وسألوه عن جوارى سود عنده لمحمد باشا وأنهم يطلبونهن لعثمان بك البرديسى، فأنكر ذلك وشهد جيرانه أنهن ملكه واشتراهن ليتجر فيهن فلم يزالوا حتى أخذوا منه تلاته على سوم الشرا، وذهب معهن، فلما بعدوا عن الجهه فزعوا عليه وطردوه، وذهبوا بالجوارى فذهب ذلك الططرى إلى محمد على، فأرسل إلى البرديسى ورقه بطلب الجوارى أو ثمنهن ففحص عنهن حتى ردهن إلى صاحبهن.



وفيه حضر أيضا جماعه من المماليك إلى بيت عثمان أفندى بجوار ضريح، الشيخ الشعرانى، وهو من كتبه ديوان محمد باشا، فأخذوا خيله وسلاحه ومتاعه التى بأسفل الدار.

وفى يوم الجمعة نهبوا أيضا دار أحمد أفندى الذى كان شهر حواله وكاشف الشرقيه فى العام الماضى فأخذوا جميع ماعنده حتى ثيابه التى على بدنه، وقتلوا خادمه على باب داره، قتله الوالى زاعما أنه هو الذى دل عليه.

وفى يوم السبت مر سليم أغا وأمامه المناداه على الأغراب الشوام والحلبيه والروميه يجتمعون بالجماليه يوم تاريخه فلم يجتمع منهم أحد.

* حضور شرفاء مكة إلى القاهرة بعد استيلاء الوهابيين عليها بغير حرب.

وفى يوم الأحد حضر* الشريف عبد الله بن سرور وصحبته بعض أقاربه من شرفا مكه وأتباعهم نحو ستين نفرا، وأخبروا أنهم خرجوا من مكه مع الحجاج وأن عبد العزيز بن مسعود الوهابى دخل إلى مكه من غير حرب، وولى الشريف عبد المعين أميرا على مكه والشيخ عقيل قاضيا وأنه هدم قبة زمزم، والقباب التى حول الكعبه والأبنيه التى أعلى من الكعبه وذلك بعد أن عقد مجلسا بالحرم وباحثهم على ما الناس عليه من البدع والمحرمات المخالفه للكتاب والسنه وأخبروا أن الشريف غالب وشريف باشا ذهبا إلى جده وتحصنا بها وأنهم فارقوا الحجاج فى الجديده.

* اضطراب الأحوال الأمنية بالقاهرة.

وفيه كتبوا عرضحالين أحدهما بصورة ماوقع لمحمد باشا مع العساكر ثم قيام الإنشكاريه وقتلهم لطاهر باشا ثم كرة الأرنؤد على الإنكشاريه لما أثاروا الفتنه* مع أحمد باشا حتى اختلت أحوال المدينه وكاد يعمها الخراب، لولا قرب الأمرا المصرليه وحضورهم فسكنوا الفتنه وكفوا أيدى المتعدين، والثانى يتضمن رفع الأحداثات التى فى ضمن الأوامر التى كانت مع الدفتردار التى تقدمت الإشاره إليها.

وفيه عزم الأمرا على التوجه إلى جهة بحرى فقصد البرديسى وصحبته محمد بك تابع محمد بك المنفوخ جهة دمياط، ومعهم محمد على وعلى بك أيوب وغيرهم وصحبتهم الجم الكثير من العساكر والعربان، ولم يتخلف إلا إبراهيم بك وأتباعه والحكام، وسافر

سليمان كاشف البواب إلى جهة رشيد وصحبته عساكر أيضا.

وفي يوم التلات عدى الكثير إلى البر الشرقي.

وفي يوم الاربع خامس عشرينه قدم جاويش الحجاج بمكاتيب العقبه وأخبروا بموت الكثير من الناس بالحمى والإسهال، وحصل لهم تعب شديد من الغلا أيضا ذهابا وإيابا، ومات* الشيخ أحمد العريشى الحنفى ودفن بنبط، ومات أيضا محمد أفندى باش جاجرت ودفن بالينبع، والشيخ على الخياط الشافعى.

* وفاة الشيخ العريشى.

وفيه عدى إبراهيم بك إلى قصر العينى وركب مع البرديسى إلى جهة الحلى وودعه ورجع إلى قصر العينى، فأقام به وجلس ابنه مرزوق بك فى مضرب النشاب واستمر وكيل الألفى مقيما بقصر الجيزه.

وفيه وردت الأخبار بأن محمد باشا لما ارتحل من المنصوره إلى دمياط* أبقى بفارسكور إبراهيم باشا ومملوكه سليم كاشف المنوفيه بعده من العسكر فتحصنوا بها، فلما حضر إليهم حسن بك أخو طاهر باشا بالعساكر تحاربوا معهم وملكوا منهم فارسكور فنهبوها وأحرقوها وفسقوا بنساها وفعلوا مالا خير فيه، وقتل سليم كاشف المنوفيه المذكور أيضا، ثم إن بعض أكابر العساكر المنهزمين أرسل إلى حسن بك يطلب منه أمانا، وكان ذلك خديعه منهم فأرسل لهم

* وقائع بين محمد باشا وحسن بك اخو طاهر باشا فى فاركسور.

أمانا فحضروا إليه وانضموا لعسكره وسهلوا له أمر محمد باشا وأنه فى قله وضعف، وهم مع ذلك يراسلون أصحابهم ويشيرون عليهم بالعود والتشبت إلى أن عادوا وتأهبوا للحرب ثانيا، وخرج إليهم حسن بك بعساكره وخلفه المنضافون إليه من أوليك، فلما أن نشبت الحرب بينهم أخذوهم مواسطه فأنخنوهم، ووقعت فيهم مقتله عظيمه. وانهزموا إلى فارسكور فتلقاهم أهل البلده وكملوا قتلهم ونزلوا عليهم بالنبابيت والمساوق والحجارة جزا لما فعلوه معهم حتى اشتفوا منهم، ولم ينج منهم إلا من كان فى عزوه أو هرب إلى جهه أخرى، وحضر الكثير منهم إلى مصر فى أسوأ حال.

وفى يوم الجمعة والسبت حضر الكثير من حجاج المغاربة وصحبتهم مصاروه* وفلاحون كثيره.

* لاحظ هنا كلمة "مصاروه" فهى جديدة فى مصطلحات الجبرتى.

وفيه حضرت مكاتبه من الديار الروميه على يد شخص يسمى صالح أفندى إلى اسكندريه، فأرسل خورشيد أفندى حاكم اسكندريه يستأذن فى حضوره بمكاتبه على يد "راشته" قنصل النيمسا، فذهب "راشته" إلى إبراهيم بك، وأخبره وأطلعه على المكتوب الذى حضر له، فبعد ساعه وصل الخبر بوصول صالح أفندى المذكور إلى بولاق، فأرسل إبراهيم بك رضوان كتخدا وأحمد بك الأرنؤدى، وأمرهما بأن يأخذا مامعه من الأوراق ويأمراه بالرجوع بغير مهله ولا يدعاه يطلع إلى البر، ففعلا ذلك.

ومضمون مافى تلك الأوراق خطاب لطاهر باشا وأنه بلغنا ماحصل من محمد باشا من الجور والظلم وقطع علوفات العسكر، وأنهم قاموا عليه وأخرجوه، وهذه عادة العساكر إذا انقطعت علوفاتهم، وإننا وجهنا له ولاية سنانيك [سلونيك] وأن طاهر باشا يستمر على المحافظه وأحمد باشا قايمقام إلى أن يأتى المتولى، وخطاب لمحمد باشا بمعنى ذلك.

والسر فى تقليد أحمد باشا قايمقام دون طاهر باشا أن طاهر باشا أرنؤدى وليس له إلا طوخان، ومن قواعدهم القديمه أنهم لايقلدون الأورنؤدى تلاتة أطواخ أبدا.

وفى يوم السبت المذكور دخل الكثير من الحجاج آخر النهار وفى الليل.

وفى يوم الأحد دخل الجم الغفير من الحجاج، ومات الكثير من الداخلين فى ذلك اليوم، وكثير مرضى وحصل لهم مشقه عظيمه وشوب* وغلا، وخصوصا بعد مجاوزتهم العقبه، وبلغت الشربه الماء دينارا، والبطيخة دينارين، وكان حجاج كثير وأكثرهم أوباش الناس من الفلاحين والنسا وغير ذلك.

* شوب: يقصد به الحر الشديد والعطش، وهى من الكلمات المصرية التى كانت تستخدم فى ذلك الوقت ولكنها بادت وظلت كحفرية لغوية عند أهل الشام حتى اليوم.

وخرج سليم أغا مستخفظان وصحبته جماعه من الإنكشاريه والكشاف والأجناد والعسكر فاستلموا المحمل من أمير الحاج وأمروه أن لايدخل المدينه بل يقيم بالبركه، حتى يحاسبوه ويسافر بمن معه من

العسكر إلى جهة الشام.

ثم رجعوا بالمحمل ودخلوا به المدينه وقت الظهر على خلاف العاده وحضر صحبة الحجاج كثير من أهل مكه هروبا من الوهابى.

ولغط الناس فى خبر الوهابى واختلفوا فيه فمنهم من يجعله خارجيا وكافرا وهم المكيون ومن تابعهم، وصدق أقوالهم، ومنهم من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه. وأرسل إلى شيخ الركب المغربى كتابا ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته وصورتها*:

* خطاب الموهب إلى شيخ الركب المغربى (انظر الهامش ص٧٧)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له ومن يُضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى.، ولا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.
أما بعد، فقد قال الله تعالى، قُل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيره أنا ومن اتبعنى، وسبحان الله وما أنا من المشركين، وقال الله تعالى: قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم وقال تعالى: وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، وقال تعالى: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا، فأخبر

سبحانه أنه أكمل الدين وأتمه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمرنا بلزوم ما أنزل إلينا من ربنا، وترك البدع والتفرق والاختلاف، وقال تعالى: اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أوليا قليلا ماتذكرون، وقال تعالى: وإن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون.

والرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبرنا بأن أمته تأخذ مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع، وثبت فى الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: لتتبعهن سنن من كان قبلكم حذو القُذة بالقذة حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه، قالوا يارسول الله اليهود والنصارى، قال فمن؟

وأخبر فى الحديث الآخر أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة، قالوا من هى يارسول الله؟ قال من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى. إذا عرف هذا فمعلوم ماقد عمت به البلوى من حوادث الأمور التى أعظمها الإشراك بالله والتوجه إلى الموتى، وسوالهم النصر على الأعدا، وقضا الحاجات وتفريج الكربات التى لا يقدر عليه إلا رب الأرض والسموات.

وكذلك التقرب إليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم فى كشف الشدايد وجلب الفوايد إلى غير ذلك من أنواع العباده التى لاتصلح إلا لله، وصرف شى من أنواع العباده لاغير الله كصرف جميعها لأنه سبحانه وتعالى أغنى الأغنيا عن الشرك، ولا يقبل

من العمل إلا ماكان خالصا كما قال تعالى: فأعبد الله مُخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص، والذين اتخذوا من دونه أوليا ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون، إن الله لايهدى من هو كاذب كفار.

فأخبر سبحانه أنه لايرضى من الدين إلا ماكان خالصا لوجهه، وأخبر أن المشركين يدعون الملايكة والأنبيا والصالحين ليقربوهم إلى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده، وأخبر أنه لايهدى من هو كاذب كفار.

وقال تعالى: ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلا شفعاونا عند الله، قل أتنبؤن الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يُشركون.

فأخبر أنه من جعل بينه وبين الله وسايط سألهم الشفاعه، فقد عبدهم وأشرك بهم، وذلك أن الشفاعه كلها لله كما قال تعالى: من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه. وقال تعالى: فيومئذ لاتنفع الذين ظلموا معذرتهم وقال تعالى: يومئذ لاتنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا.

وهو سبحانه وتعالى لايرضى إلا التوحيد كما قال تعالى: «ولايشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون» فالشفاعه حق ولا تطلب فى دار الدنيا إلا من الله كما قال تعالى: وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا، وقال تعالى ولاتدع من دون الله مالا ينفعك ولايضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين، فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو سيد الشفعاء

وصاحب المقام المحمود، وآدم فمن دونه تحت لوائه لايشفع إلا بإذن الله، لايشفع ابتداء بل يأتى فيخر لله ساجدا فيحمده بمحامد يعلمه إياها ثم يقال ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع، ثم يحد له حدا فيدخلهم الجنه، فكيف بغيره من الأنبيا والأوليا.

وهذا الذى ذكرناه لايخالف فيه أحد من علما المسلمين، بل قد أجمع عليه السلف الصالح من الأصحاب والتابعين والأيمة الأربعه وغيرهم ممن سلك سبيلهم ودرج على منهاجهم.

وأما ماحدث من سوال الأنبيا والأوليا من الشفاعه بعد موتهم وتعظيم قبورهم ببنا القباب عليها وإسراجها والصلاة عندها واتخاذها أعيادا، وجعل السدنة والنذور لها فكل ذلك من حوادث الأمور التى أخبر بها النبى صلى الله عليه وسلم أمته وحذر منها كما فى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال لاتقوم الساعه حتى يلحق حى من أمتى بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتى الأوثان.

وهو صلى الله عليه وسلم حمى جناب التوحيد أعظم حمايه، وسد كل طريق يودى إلى الشرك فنهى أن يجصص القبر وأن يبنى عليه كما ثبت فى صحيح مسلم من حديث جابر، وثبت فيه أيضا أنه بعث على بن أبى طالب رضى الله عنه وأمره لايدع قبرا مشرفا إلا سواه ولاتمثالا إلا طمسه.

ولهذا قال غير واحد من العلما يجب هدم القباب المبنيه على القبور لأنها أسست على معصيه الرسول صلى الله عليه وسلم، فهذا هو الذى أوجب الاختلاف

بيننا وبين الناس، حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دمانا وأموالنا، حتى نصرنا الله عليهم وظفرنا بهم، وهو الذى تدعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحجه منه كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع السلف الصالح من الأمه ممتثلين لقوله سبحانه وتعالى: وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله.

فمن لم يجب الدعوه بالحجه والبيان قاتلناه بالسيف والسنان كما قال تعالى «لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس.

وندعو الناس إلى إقامة الصلوات فى الجماعات على الوجه المشروع وإيتاء الزكاه وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام، ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، كما قال تعالى «الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور» فهذا هو الذى نعتقده وندين الله به فمن عمل بذلك فهو أخونا المسلم له مالنا وعليه ماعلينا، ونعتقد أيضا أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم المتبعين للسنه لاتجتمع على ضلاله، وأنه لاتزال طايفه من أمته على الحق منصوره لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك، أقول: إن كان كذلك فهذا ماندين الله به نحن أيضا وهو خلاصة لباب التوحيد، وما علينا من المارقين والمتعصبين.

وقد بسط الكلام فى ذلك ابن القيم فى كتابه إغاثة

اللهفان، والحافظ المقريزى فى تجريد التوحيد، والإمام اليوسى فى شرح الكبرى، وشرح الحكم لابن عباد وكتاب جمع الفضايل وقمع الرذايل، وكتاب مصايد الشيطان وغير ذلك [انتهى].

وفى ذلك اليوم نودى على المتخلفين من الإنكشاريه بالسفر صحبة أمير الحاج وقبضوا على أنفار منهم وأخرجوهم، ومنعوا أيضا حجاج المغاربه من الدخول إلى المدينه، ومن دخل منهم لأجل حاجه فليدخل من غير سلاح فذهبوا إلى بولاق وأقاموا هناك.

وفى يوم الاتنين مر الوالى بناحية الجماليه فوجد إنسانا من أكابر غزه يسمى على أغا شعبان حضر إلى مصر من جملة من حضر مع العرضى، وكان مهندسا فى عمارة الباشا، ثم عين لسد ترعة الفرعونيه لمعرفته بأمور الهندسه، فوجده جالسا على دكان يتنزه حصه وفرسه وخدمه وقوف أمامه، فطلبه وأمره بالركوب معه فركب وذهب صحبته فكان آخر العهد به، وكان فى جيبه ألف دينار ذهبا بإخبار أخيه خلاف الورق* فأخذ ثيابه وفرسه وما معه وخنقه وأخفى أمره وأنكره وكان رجلا لا بأس به.

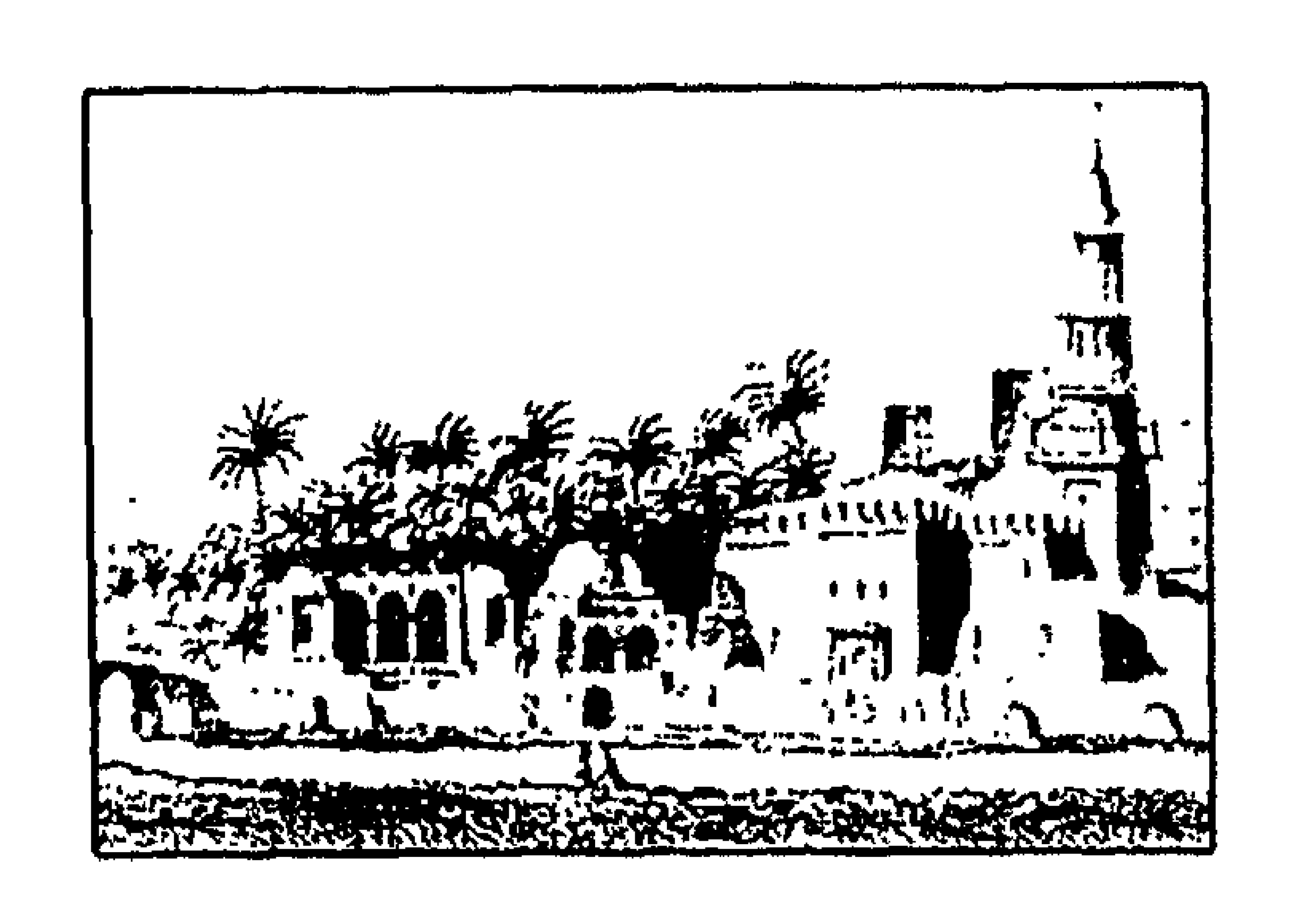
* الورق: أى العملات الفضية.

شهر ربيع الأول (سنة ١٢١٨)

استهل بيوم التلات وفى يوم السبت خامسه سافر

* سفر أحمد باشا بعسكر الانكشارية.

أحمد باشا* والعساكر الإنكشاريه الذين جمعوهم من المدينه، وسافر صحبتهم من العساكر الذين كانوا صحبة أمير الحاج والجميع كانوا نحو ألفين وخمسماية، وأما أمير الحاج فإنهم عفوا عنه من السفر ودخل المدينه بخاصته.



وفي اليوم حضر على كتخدا من جهة قبلي، وهو كتخدا حسن باشا والى جرجا ومعه مكاتبه إلى الأمرا المصرليه وأنه وصل إلى أسيوط، فكتبوا له أمانا بالحضور إلى مصر بمن معه من العسكر، ورجع على كتخدا بذلك في ثاني يومه فقط.

وفيه ورد الخبر بوصول أنجد بك إلى ثغر دمياط بالرياله [الأسطول] إلى محمد باشا.

وفي يوم الاربع تاسعه سافر الشريف عبد الله بن سرور إلى اسكندريه متوجها إلى إسلامبول، وأنعم عليه إبراهيم بك بخمسين ألف فضه.

* الاحتفال بالمولد النبوى.

وفي يوم الجمعة كان المولد النبوى* ونادوا بفتح الدكاكين ووقود القناديل فأوقدت الأسواق تلك الليله والليله التي قبلها، ولكن دون ذلك، وأما الأزبكيه فلم يعمل بها وقده إلا قبالة بيت البكرى لاستيلا الخراب عليها.

وفى تانى عشره سفروا جبخانه وجللا وبارودا إلى جهة بحرى، وأشيع بأن كثيرا من العسكر المصحوبين بالتجريده ذهبوا إلى محمد باشا، وكذلك طايفه من الإنكشاريه المطرودين الذين خلصوا إلى طريق دمياط.

وفى يوم الاربع سادس عشره وردت مكاتبات من عثمان بك البرديسى* بالخبر بوقوع الحرب بينهم وبين محمد باشا وعساكره.

* معارك عسكرية بين محمد باشا والبرديسى.

وفى يوم الاتنين رابع عشره وقع بين الفريقين مقتله عظيمه، وكانوا ملكوا منه متاريس القنطره البيضا قبل ذلك ثم هجم المصريون فى ذلك اليوم عليهم هجمه عظيمه وكبسوا على دمياط بمخامره بعض رؤسا عساكر الباشا، وفتكوا فى عسكر الباشا بالقتل وقتلت خواصه وأتباعه، وقتل حسين كتخدا شنن، ومصطفى أغات التبديل، ونهبوا دمياط وأسروا النسا وافتضوا الأبكار، وأخذوهم أسرى، وصاروا يبيعونهم على بعضهم، وفعلوا أفعالا شنيعه من الفسق والفجور، وأخذوا حتى ما على أجساد الناس من الثياب، ونهبوا الخانات والبيوت والوكايل وجميع أسباب التجار التى بها من أصناف البضايع الشاميه والروميه والمصريه، وكان شيا كثيرا يفوق الحصر وما بالمراكب حتى بيع الفرد الأرز الذى هو نصف إردب بثلاثة عشر نصفا وقيمته ألف نصف، والكيس الحرير الذى قيمته خمسماية ريال بريالين إلى غير ذلك، والأمر لله وحده.

والتجأ الباشا إلى القرية وتترس بها فأحاطوا به من كل جهه فطلب الأمان فأمنوه فنزل من القريه، وحضر إلى البرديسى*، وخطف عمامته بعض العسكر، ولما رآه البرديسى ترجل عن مركوبه إليه وتمنى بالسلام عليه وألبسه عمامه، وأنزله فى خيمة بجانب خيمته متحفظا به.

* البرديسى يهزم محمد باشا ويأسره ويرسل بذلك بشرى إلى القاهرة.

ولما وصل الخبر بذلك إلى مصر ضربوا مدافع كثيره من قصر العينى والقلعه والجيزه ومصر العتيقه واستمر ذلك ثلاثة أيام بلياليها فى كل وقت.

وفى عصريتها حضر جوخدار* البرديسى وهو الذى قتل حسين أغا شنن، وحكى بصورة الحال فألبسه إبراهيم بك فروه وأنعم عليه ببلاد المقتول وبيته وزوجته وأملاكه وجعله كاشف الغربيه، وذهب إلى وكيل الألفى أيضا فخلع عليه فروه سمور وصار يبدر الذهب فى حال ركوبه.

* الجوخ قماش معروف و"دار" اى "صاحب" فى الفارسية، والجوخدار هو صاحب الجوخ، والقيم عليه أو لابسه. موظف غير عسكرى يناط به النظر فى شئون ملابس السلطان فى العصر العثمانى، فهو مثل "الجامدار" فى العصرين السلجوقى والمملوكى، وقد أطلق عليه فى أواخر عهد العثمانيين لقب "آثوابجى باشى". والمقصود هنا رسول من البرديسى.

وفى يوم الجمعه ذهب المذكور إلى مقام الإمام الشافعى وأرخى لحيته على عادتهم التى سنها السدنه ليعفيها بعد ذلك من الحلق.

وفى ذلك اليوم عمل إبراهيم بك ديوانا ببيت ابنته بدرب الجماميز وحضر القاضى والمشايخ ولبس خلعة وتولى قايمقام مصر* وضربت فى بيته النوبه التركيه.

* إبراهيم بك يتولى قايمقامية مصر.

* علي باشا الطرابلسي حاكماً على مصر.

* مخاطبة بين علي باشا والأمراء المماليك.

وفى عشرينه ورد الخبر بوصول على باشا الطرابلسى* إلى اسكندريه واليا على مصر عوضا عن محمد باشا، وحضر منه فرمان خطابا للأمرا* يعلمهم بوصوله ويذكر لهم أنه متولى على الأقطار المصريه عوضا عن محمد باشا من اسكندريه إلى أسوان، (ولم يبلغ الدوله موت طاهر باشا ولا دخولكم إلى مصر) ومعنا أوامر لطاهر باشا وأحمد باشا أنهم يتوجهون بالعساكر إلى الحجاز بسبب الوهابيين. فلما وصلنا إلى اسكندريه بلغنا موت طاهر باشا وحضوركم إلى المدينه بمعاونة الأرنؤديه، وقتل رجال الدولة والإنكشاريه وقتل من معهم وإخراج من بقى على غير صورة إلى غير ذلك، وهذا غير مناسب ولا نرضى لكم بهذا على هذا الوجه فإننا نحب لكم الخير ولنا معكم عشره سابقه ومحبه أكيده ونطلب راحتكم فى أوطانكم ونسعى لكم فيها على وجه جميل، وكان المناسب أن لاتدخلوا المدينه إلا بإذن من الدوله فإن تظاهركم بالخلاف والعصيان مما يوجب لكم عدم الراحه، فإن سيف السلطنه طويل فربما استعان السلطان عليكم ببعض المخالفين الذين لا طاقة لكم بهم.

ثم قال لهم فى ضمن ذلك إن لنا معكم بعض كلام لايحتمله الكتاب وعن قريب يأتيكم اثنان من طرفنا عاقلان تعملون معهما مشاوره.

فكتبوا له جوابا حاصله أن محمد باشا لما كان متوليا

لم نزل نترجى مراحمه وهو لايزداد معنا إلا قسوه معنا ولايسمح لنا بالإقامه بالقطر المصرى جمله، وجرد علينا التجاريد والعساكر من كل جهه، وينصرنا الله عليه فى كل مرة إلى أن حصل بينه وبين عساكره وحشه بسبب جماكيهم وعلوفاتهم، فقاموا عليه وحاربوه وأخرجوه من مصر بمعونة طاهر باشا ثم قامت الإنكشاريه على طاهر باشا وقتلوه ظلما وقامت العساكر على بعضهم البعض.

وكنا حضرنا إلى جهة الجيزه باستدعاء طاهر باشا فلما قتل طاهر باشا بقيت المدينة رعيه من غير راع وخافت الرعيه من جور العساكر وتعديهم فحضر إلينا المشايخ والعلما واختياريه الوجاقليه واستغاثوا بنا فأرسلنا من عندنا من ضبط العساكر وأمن المدينه والرعيه. وأما محمد باشا فإنه نزل إلى دمياط وظلم البلاد والعباد وفرد عليها الفرد الشاقه وحرقها فتوجه عثمان بك البرديسى لتأمين أهالى القرى إلى أن وصل إلى ظاهر دمياط فأقام بمن معه خارج المدينة فما يشعر إلا ومحمد باشا صدمهم ليلا وحاربهم فحاربوه فنصرهم الله عليه وانهزمت عساكره وقبض عليه وهو الآن عندنا فى الإعزاز والإكرام، ونحن الآن على ذلك حتى يأتينا العفو.

وأما قولكم إننا نخرج من مصر فهذا لايمكن ولا تطاوعنا جماعتنا وعساكرنا على الخروج من أوطانهم* بعد استقرارهم فيها. وأما قولكم إن حضرة السلطان

* لاحظ هنا شدة تشبس المماليك بالبقاء فى مصر باعتبارها وطنهم.

الجبرتى/ سنة ١٢١٨

يستعين علينا ببعض المخالفين فإننا لانستعين إلا بالله، وإننا أرسلنا عرضحال نطلب العفو ونترجى الرضا ومنتظرون الجواب.

وفى تانى عشرينه حضر واحد أغا ومعه آخر فضربوا له مدافع وعملوا ديوانا وتكلم معهم وتكلم المشايخ* الحاضرون فى ظلم العثمانيين وما أحدثوه من مظالم والمكوس، واتفقوا على كتابة عرضحال إلى الباشا فكتبوا ذلك وأمضو عليه ونادوا فى الأسواق برفع ما أحدثه الفرنساويه والعثمانيه من المظالم وزيادة المكوس ودفعوا إلى الأغا الواصل ألف ريال حق طريقه وسافر.

* المشايخ يشتكون لرسول إسلامبول من ظلم العثمانيين ويطالبون برفع المظالم والفرد.

وفيه وصل الخبر بأن سليمان كاشف لما وصل إلى رشيد وبها جماعة من العثمانيه وحاكمها إبراهيم أفندى، فلما بلغه وصول سليمان كاشف أخلى له البلد، وتحصن فى برج مغيزل فعبر سليمان كاشف إلى البلد.

وخرج يحاصر إبراهيم أفندى، فهم على ذلك وإذا بالسيد على باشا القبطان وصل إلى رشيد، وأرسل إلى سليمان كاشف يعلمه بحضوره وحضور على باشا القبطان [الطرابلسى] والى مصر، ويقول ماهذا الحصار؟ فقال له نحن نقاتل كل من كان من طرف حسين قبطان باشا، وأما ماكان من طرف الوزير يوسف باشا فلا نقاتله، وارتحل من رشيد إلى

الرحمانيه ودخل السيد على القبطان إلى رشيد.

وفى تالت عشرينه سافر جوخدار البرديسى إلى ولاية الغربيه وكان شاهين كاشف المرادى هناك يجمع الفرده وتوجه إلى طنتدا، وعمل على أولاد الخادم تمانين ألف ريال فحضروا إلى مصر ومعهم مفاتيح مقام سيدى أحمد البدوى هاربين، وتشكوا وتظلموا، وقالوا لإبراهيم بك: لم يبق عندنا شى، فإن الفرنساويه نهبونا وأخذوا أموالنا، ثم إن محمد باشا أرسل المحروقى فحفر دارنا وأخذ منا نحو تلتماية ألف ريال ولم يبق عندنا شى جمله كافيه.

وفى يوم الاتنين تاسع عشرينه وصل محمد باشا إلى ساحل بولاق وصحبته المحافظون عليه، وهم جماعه من عسكر الأرنؤد الذين كانوا سابقا فى خدمته وجماعه من الأجناد المصرليه، ولم يكن معه من أتباعه إلا ست مماليك فقط، فإن مماليكه المختصين به اختار منهم البرديسى من اختاره، واقتسم باقيهم الأرنؤد ومنهم من يخدم الأرنؤد المحافظين عليه.

ووافق أن ذلك اليوم كان جمع* سيدى أحمد البدوى ببولاق على العادة فنصبوا له خيمه لطيفه بساحل البحر وطلع إليها فرأى جمع الناس فظن أنهم اجتمعوا للفرجه عليه، فقال ماهذا؟ فأخبروه بصورة الحال.

* جمع: احتفال المولد.

وكان إبراهيم بك فى ذلك اليوم حضر إلى بولاق ودخل

إلى بيت السيد عمر نقيب الأشراف باستدعا فجلس عنده ساعه. ثم ركب إلى ديوان بولاق فنزل هناك ساعه أيضا ثم ركب إلى بيته بحارة عابدين، فلما وصل الباشا كما ذكر حضر إليه سليم كاشف المحرمجي وأركبه حصانا وركب مماليكه حميرا وذهبوا به إلى بيت إبراهيم بك بحارة عابدين، فوجدوا إبراهيم بك طلع إلى الحريم فلم ينزل إليه ولم يقابله، فرجع به سليم كاشف إلى بيت حسن كاشف جركس وهو بيت البرديسى، فبات به.

* الأمراء المماليك يتجاهلون محمد باشا.

فلما كان فى الصباح ركب إبراهيم بك إلى قصر العينى، فركب المحرمجى وأخذ معه الباشا وذهب به إلى قصر العينى فقابل إبراهيم بك هناك وسلم عليه، وحضر الألفى وباقى الأمرا بجموعهم وخيولهم فترامحوا تحت القصر وتسابقوا ولعبوا بالجريد.

ثم طلع أكابرهم إلى أعلى القصر فصاروا يقبلون يد إبراهيم بك فقط والباشا جالس، حتى تحلقوا حواليهما، ثم إن إبراهيم بك قدم له حصانا وقام وركب مع المحرمجى إلى بيت حسن كاشف بالناصريه فسبحانَ المعز المذل القهار.

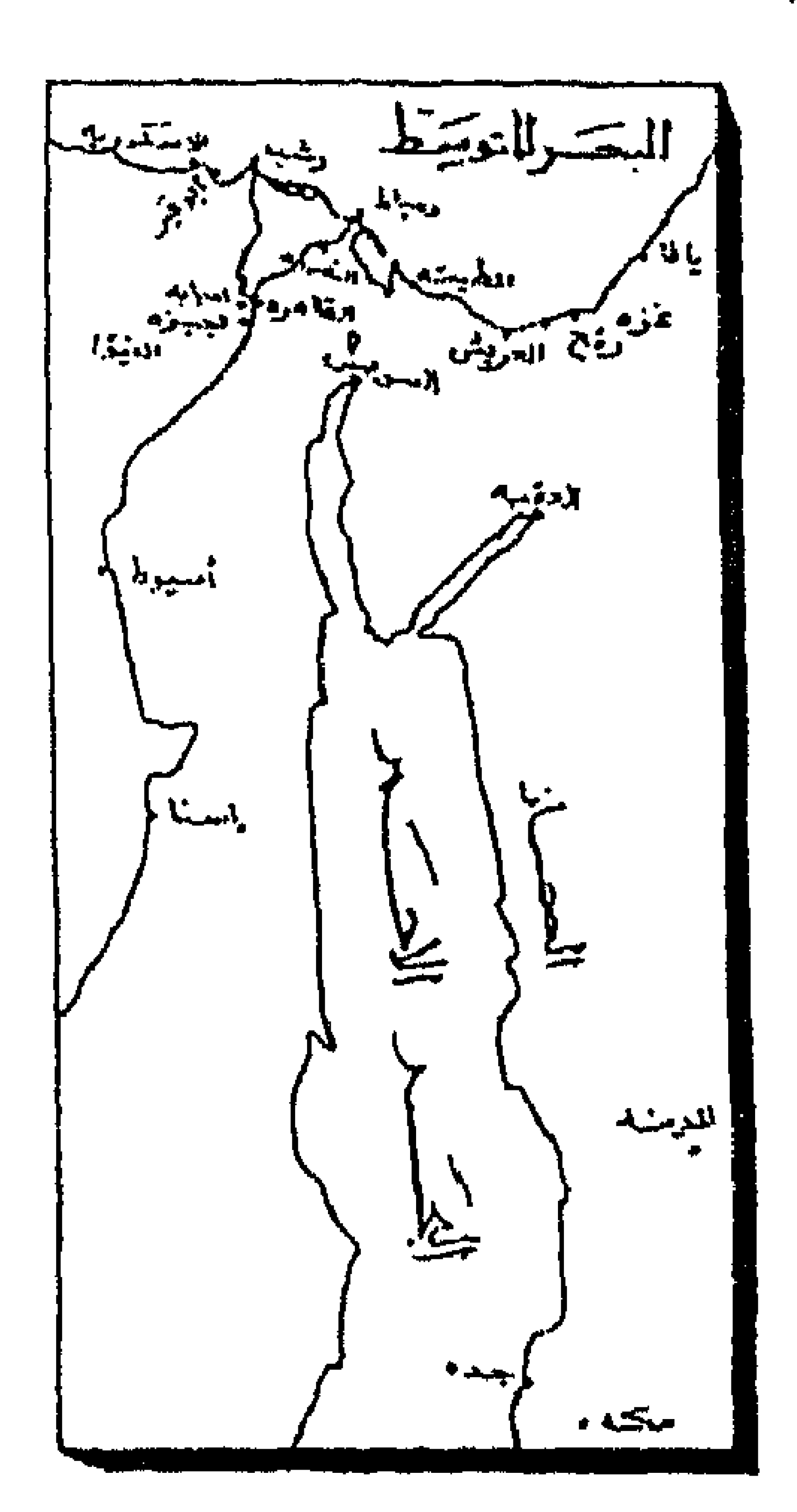
وفى تانى يوم غايته ركب إبراهيم بك والألفى وذهبا إلى الباشا وسلما عليه فى بيت البرديسى وهادياه بثياب وأمتعه، وبعد أن كانوا يترجون عفوه ويتمنون الرضا منه ويكونوا تحت حكمه صار هو يترجى عفوهم

ويؤمل وفدهم وإحسانهم وبقى تحت حكمهم، فالعياذ بالله من زوال النعم وقهر الرجال.

شهر ربيع الثانى (سنة ١٢١٨)

استهل بيوم الاربع: فى تانيه ضربت مدافع كثيره بسبب إقامة بنديره الانكليز بمصر.

وفيه عدى البرديسى من المنصوره إلى البر الغربى متوجها إلى جهة رشيد.



* الينبع: ميناء بالحجاز.
* انسحاب الوهابيين من مكة وجدة.
* الدرعية: كانت عاصمة الوهابيين فى نجد.

وفى يوم السبت رابعه وردت هجانه من ناحية الينبع* وأخبروا أن الوهابيين جلوا عن جده ومكه بسبب أنهم جاتهم أخبار بأن العجم زحفوا على بلادهم الدرعيه* وملكوا بعضها، والأوراق فيها خطاب من شريف باشا وشريف مكه لطاهر باشا على ظن حياته.

وفى يوم الاتنين نادى الأغا والوالى بالأسواق على العثمانيه والأتراك والأغراب من الشوام والحلبيه بالسفر والخروج من مصر، فكل من وُجد بعد تلاته أيام فدمه هدر، وأمروا عثمان بك أمير الحاج بالسفر على جهة الشام من البر، ويسافر المنادلى عليهم صحبته، وكذلك إبراهيم باشا.

وفى يوم الاربع خرج عثمان بك إلى جهة العادليه

وخرج الكثير من أعيان العثمانيه معه وتتابع خروجهم فى كل يوم وصاروا يبيعون متاعهم وثيابهم، وهم خزايا حيارى فى أسوأ حال وأكثرهم متأهل ومتزوج، ومنهم من نُهب وسُلب وصار لايملك شيا.

فلما تكامل خروجهم وسافروا فى عاشره وهم زياده عن ألفين وبقى منهم أناس التجوا إلى بعض المصرليه والانكليز وانتموا إليهم.

وفيه وصلت الأخبار بأن البرديسى وصل إلى رشيد، وأن السيد على باشاريس القبطانيه تحصن ببرج مغيزل، وغالب أهلها جلا عنها خوفا من مثل حادثة دمياط، ولما دخل عثمان بك البرديسى إلى رشيد فرد على أهلها مبلغ دراهم يقال ثمانين ألف ريال.

وفى تالت عشره حضر قنصل الفرنسيس* فعملوا له شنكا ومدافع وأركبوه من بولاق بموكب جليل وقدامه أغات الإنكشاريه والوالى وأكابر الكشاف وحسين كاشف المعروف بالأفرنجى وعساكره الذين مثل عسكر الفرنسيس وهيئته لم يتقدم مثلها بين المسلمين، ونصب بنديرته* فى بركة الأزبكيه من ناحية قنطرة الدكه على صارى طويل مرتفع فى الهوا، واجتمع إليه كثير من النصارى الشوام والأقباط، وعملوا جمعيات وولايم وازدحموا على بابه وحضر صحبته كثير من الذين هربوا عند دخول المسلمين مع الوزير وكان المحتفل بذلك حسين كاشف الإفرنجى.

* الاحتفال بوصول قنصل الفرنسيس ومعه عدد من الذين خرجوا من مصر مع الحملة الفرنسية.

* هى الراية والعلم بالإسبانية والإيطالية.

وفى ثامن عشره وصلت مكاتبه من البرديسى إلى إبراهيم بك يخبر فيها أنه لما وصل إلى رشيد، وتحصن السيد على باشا بالبرج [برج مغيزل] أرسل إليه فبعث له حسن بك قرابة على باشا الطرابلسى الوالى، فتكلم معه وقال ما المراد؟ إن كان حضرة الباشا واليا على مصر فليأت على الشرط والقانون القديم ويقيم معنا على الرحب والسعه، وإن كان خلاف ذلك فأخبرونا به إلى أن انتهى الكلام بيننا وبينه وعلى مهله تلاته أيام، ورجع وانتظرنا بعد مضى الميعاد بساعتين فلم يأتنا منهم جواب، فضربنا عليهم فى يوم واحدماية وخمسين قنطارا من البارود وأنكم ترسلون* لنا أعظم مايكون عندكم من البنب، والمدافع والبارود، فشهلوا المطلوب وأرسلوه فى تانى يوم صحبة حسين الإفرنجى وتراسل الطلب خلفه ولحقوا به عدة أيام.

** البرديسى يطلب مده بالمدافع والبارود لمحاصرة قلعة رشيد.

وفى عشرينه وصل حسن باشا الذى كان والى جرجا إلى مصر العتيقه فركب إبراهيم بك للسلام عليه، وحضر الطبجيه إلى جبخانته فأخذوها وطلعوا بها إلى القلعه، وكذلك الجمال أخذها الجماله والعسكر وذهبوا إلى رفقاهم الذين بمصر، وطولب بالمال واستمر بمصر العتيقه مستحفظا به من كل ناحيه.

وفى يوم السبت خامس عشرينه، وقعت نادره* وهى أن محمد باشا طلب من سليم كاشف المحرمجى أن يأذن له فى أن يركب إلى خارج الناصريه بقصد التفسح فأرسل سليم كاشف يستأذن إبراهيم بك فى

* نادرة محمد باشا مع المماليك وتوبيخهم له، ووضعه تحت الحراسة.

ذلك فأذن له بأن يركب ويعمل رماحه، ثم يأتى إليه بقصر العينى فيتغدى عنده ثم يعود، وأوصى على ذبح أغنام ويعملون له كبابا وشوا فأركبه سليم كاشف بمماليكه وعدة من مماليك المحرمجى وصحبته إبراهيم باشا، فلما ركب وخرج إلى خارج الناصريه أرسل جواده ورمحه وتبعه مماليكه من خلفه فظن المماليك المصرلية أنهم يعملون رماحه ومسابقه.

فلما غابوا عن أعينهم ساقوا خلفهم ولم يزالوا سايقين إلى الأزبكيه وهو شاهر سيفه وكذلك بقية الطاردين والمطرودين فدخل إلى أحمد بك الأرنؤدى وضرب بعض المماليك فرسه بباروده فسقط، وذلك عند وصوله إلى بيت أحمد بك المذكور، ووصل الخبر إلى سليم كاشف، فركب على مثل ذلك بباقى أتباعه وهم شاهرون السيوف ورامحون الخيول واتصل الخبر بإبراهيم بك فأمر الكشاف بالركوب وأرسل إلى البواقى بالطلوع إلى القلعة، وحفظ أطارف البلد فركب الجميع وتفرقوا رامحين وبأيديهم السيوف والبنادق فانزعجت الناس وترامحوا وأغلقوا الحوانيت، واختلفت رواياتهم وظنوا وقوع الشقاق بين الأرنؤد والمصرليه، وكذلك المماليك المصرليه أيقنوا ذلك، وطلع الكثير منهم إلى القلعه.

ولما دخل محمد باشا عند أحمد بك ومن معه من أكابر الأرنؤد قاموا فى وجهه ووبخوه بالكلام وقبضوا عليه وعلى مماليكه، وأخذوا ماوجدوه معهم من الدراهم،

وكان فى جيب الباشا خاصة ألف وخمسماية دينار، وحضر سليم كاشف المحرمجى عند ذلك فسلموه له فأركبه اكديشا لأن فرسه أصيب ببارودة من بعض المماليك اللاحقين به وذلك عند وصوله إلى أحمد بك وركب معه أحمد بك أيضا وأخذوه إلى عند إبراهيم بك بقصر العينى فخلع إبراهيم بك على أحمد بك فروه سمور وقدم له حصانا بسرجه وسكنت الفتنه، ونعوذ بالله من الخذلان ومعاداة الزمان.

وفى يوم الأحد سادس عشرينه وردت الأخبار ومكاتبه من البرديسى* بنصرتهم على العثمانيه واستيلاهم على برج رشيد بعد أن حاربوا عليه نيفا وعشرين يوما، وأسروا السيد على القبطان وآخرين معه وعدة كثيره من العسكر وأرسلوهم إلى جهة الشرقيه ليذهبوا على ناحية الشام، بعد أن قتل منهم من قتل، فعند ذلك عملوا شنكا وضربوا مدافع كثيره، وكذلك فى تانى يوم وتالت يوم.

* البرديسى يستولى على برج رشيد.

وفى يوم الاربع تاسع عشرينه كسفت* الشمس وقت الضحوه وكان المنكسف تسعة أصابع وهو نحو التلتين، وأظلم الجو وابتداه الساعه واحده وتمان دقايق ونصف، وتمام الانجلا فى تالت ساعه وست عشرة دقيقه، وكان ذلك فى أيام زيادة النيل. نسأل الله العفو والعافيه فى الدين والدنيا والآخره.

** كسوف الشمس.


Bibliotheca Alexandrina
12400076